

مؤلفات يوسف السباعي



■ نفحة من الإيمان

■ صور طبق الأصل

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com



الاهداء

الى أخى العزيز ، احسان عبد القدوس ،

اهدى كتابى هذا

أهديه اليه بصفته « أولا » .. أخا عزيزا ، .. رغم أن له من المزايا العامة فى نفوس القراء والجماهير ما يفوق كثيرا هذه الميزة الخاصة فى نفسى . فهو كاتب سليم التفكير ، صريح الأسلوب ، جذاب التعبير ، شجاع ، صريح غير معوج ولا ملنو .

ومع ذلك .. ورغم أن هذه الصفات لا تتوفر فى كثير من كتاب هذا الزمن رغم أنها قد جعلت منه فى فترة وجيزة كاتباً من أبرز الكتاب السياسيين ، رغم كل هذا فأنا أتجاهلها فى اهدائى .. وأهدى كتابى اليه لمجرد أنه أخ عزيز .

قد يكون فى هذا نوع من إثارة النفس والأنانية وقد يكون نوع من الغرور أن أميز أخ عزيز ليوسف السباعى أكثر من أن أميزه بأنه كاتب شهير معروف .

ولكنى حر فى اهدائى .. وفى اعتبارى لميزة المهدي اليه . ولى فى ذلك عذر قد يقبله صاحب الاهداء والقراء وقد لا يقبلونه ولكنه ليس عليهم

لِلْأَقْسَاءِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن
أَشْيَاءٍ إِن تَبْلَغَكُمْ سُؤَالُكُمْ ﴾
« قرآن كريم »

الساعة السابعة صباحاً وشارع « الخيامة » ما زال يتأعب وينفض عن
عينيه آثار النعاس .. والحركة تدب فيه بطيئة واهنة ، والعمال من سكان الحي
يحنون الخطأ وقد وضعوا لفافات الخبز تحت أياطهم ودسوا أيديهم في جيوبهم
ولفوا رؤوسهم وأصداعهم بالتلافيح الصوفية انقاء صقيع الصباح . والنكاكين
ما زالت مغلقة الا نكان « أبو الفضل » ، بائع القول والطعمية فقد فتح على
مصراعيه وقاحت من داخله رائحة الطعمية تفتح الشهية وتهيج الخياشيم .

ومن إحدى « الحارات المنة اطعمة بدأ الحاج « درويش » بعبأته وطأفته
وجلبابه الأبيض وخطواته الممتدة المتناقلة وقد أخذ يجري حبات المسبحة بين
أصابعه ويحرك شفثيه بتمتمة خافتة .

ووصل الحاج الى حانوته المواجه لحانوت « أبو الفضل » وألقى بتحية
الصباح على جاره ثم أخذ يفتح باب الحانوت وقد اتجه ببصره الى السماء وأخذ
يهتف بصوت خافت « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم » .

سوى الرضوخ له رضوا أم لم يرضوا .

هذا العذر هو أن صفة « الأخ العزيز » ، في حد ذاتها صفة مميزة لأن
الانسان لا يكون لي أخاً عزيزاً حقاً الا اذا توفرت فيه شروط ومميزات ،
تجعل من مرتبة « الأخ العزيز » مرتبة تفوق كثيراً غيرها من المراتب . هذه
الشروط والمميزات ، هي أن يكون الانسان نكياً ، وفياً ، مرحاً ، لطيفاً ، غير
مغرور ولا متكلف .

فاذا أنا أهديت الكتاب الى احسان لأنه « أخ عزيز » ، فأنا أعني بذلك أنه
قد توفرت فيه تلك الشروط والمميزات .

أنى لأذكر منذ بضع سنوات أنى أهديت كتابي « اثني عشر رجلاً » الى
توفيق الحكيم وعندما قرأ احسان الاهداء ثار عليه وعلى وقال ان توفيق الحكيم
وطبقته من الكتاب لا يستحقون أى اهداء لأنهم أنانيون مغرورون لم يحاولوا
أن يمدوا أيديهم لمعاونة الجيل الذي يليهم من الكتاب وسألنى هل حاول توفيق
الحكيم أن يكتب عني مرة لينقدنى أو ليقدمنى الى قرائه .

وقلت له يومئذ أن الكاتب المجيد سيررز بلا معاونة أحد وانى أهدى
كتابى الى أحب الناس الى لا الى اكثرهم نفعا لى .

ولا أظننى نقضت رأيى فى اهداء أى كتاب من كتبى ، فانى قد أهديت
كتبى الى نفسى والى أبى وأمى وأولادى وأخوتى وعمى والى أحب
الأصدقاء الى ..

فاذا أهديت كتابى الآن الى احسان ، فلسبب واحد هو أنه أضحى حبيباً
الى نفسى .

يوسف السباعى

كان الوقت ما زال مبكرا عن الموعد الذى تعود الرجل فيه أن يفتح
حانوته . ولذا فقد أثار الأمر دهشة المعلم ، أبو الفضل ، الذى مد عنقه من
وراء قدور الفول وصاح بالحاج :

- خير ان شاء الله .. ان الوقت ما زال مبكرا .

- ان شاء الله خيرا .. ربنا لا يعطى الا الخير .. لقد استقيظت مبكرا
ففضلت الحضور الى الدكان .

وبدأ الحاج يتشاغل بنقل الغرارات ورصها خارج الدكان ثم أخذ يقوم
بأعمال النظافة اليومية التى تعود أن يقوم بها كل صباح .. وهو يبدو على
أتم حال من الهدوء والسكينة .. ومع ذلك فقد كان صدره يصطخب بالمشاعر ،
وكانت نفسه تحترق قلقا واضطرابا .

كان الحاج رجلا مؤمنا تقيا .. وكانت بوجهه اشراقه ايمان ووسامة
طيبة ووداعة .. ولم تكن رزاقته وتناقل مشيئة عن كبر فى السن .. فقد كانت
تلك هى طبيعته منذ الصغر . كان دائما نموذجا للتقوى والورع .. حتى لقد
أطلق عليه لقب الحاج وهو ما زال صبيا يقيم الصلاة وأتراه مغرقون فى اللهو
واللعب .

وكانت حياته مثالا للتضحية وانكار الذات .. فقد مات أبوه وخلفه صبيا
دون أن يورثه سوى أسرة عاجزة من أم وثلاث بنات ، ليس لهن من يعولهن
سواه . واضطر الحاج درويش أن يترك المدرسة ويتولى حانوت البقالة الذى
كان يملكه أبوه .. والذى كان على شفا الافلاس .. فاستطاع بصبره وجلده أن
ينقذ الحانوت . وأن يعول أمه وأخوته .. ووقف حياته على تربيتهم ومنحه
الله من لئله الستر والتوفيق فتزوجن زيجات مرضية ضمنت لهن حياة مستقرة
هائلة .. من الله على أمه بمهنة هادئة ناعمة بعد أن أطمأنت على مصير
بناتها .

ووجد الحاج درويش نفسه وحيدا بعد موت أمه .. وقد أنفق زهرة شبابه
فى تربية أخواته وهيا لكل منهن حياة راضية .. أما هو فقد أدير عمره أو
كاد دون أن يجد من حوله زوجا ولا بنين .

لقد كان يرفض الزواج خشية أن يشغل عن أمه وأخواته بزوجه
وأولاده .. ومرت به الأيام ومرضاتهن هى جل بغيته وسعادتهن هى هدفه فى
الحياة حتى تفرق من حوله .. وذهبت كل منهن الى غايتها . وبقي هو وحده
تتساقط من حوله أوراق الخريف .. وتنسل الى شعره خيوط الشتاء البيضاء
وتتسرب الحياة من بين أصابعه .

وأخيرا قرر أن يتزوج فيتم نصف دينه ، ويحقق لأمه أمنيتها التى
طالما تأقت اليها ، ويقضى لنفسه حقها فى الحياة .

ورزقه الله ، بينت الحلال ، .. فتاة من عائلة كريمة طيبة . كانت له
نموذجا للزوجة الطيبة الراضية بالقناعة فحق بها عليه قول الله تعالى ﴿ أنا
لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

وسارت به الحياة ناعمة هائلة ، ونفسه فريرة راضية ، لا يبغي مزيدا
من هناء ولا مزيدا من نعيم ولا يكاد يقلقه فى حياته سوى أمر واحد كان يرى
أن الزمن كفيل بتحقيقه .

لقد مرت به الأيام ، دون أن تظهر على أمراته علامات حمل ولم يكن
الرجل بالعجول الطامع أو الهوى المتلهف ، ولكنه رغم ذلك كان لا يستطيع
أن يقاوم تلك الرغبة الملحة فى البنين ولا الشوق الجارف اليهم .

ولم يجد سوى الله ملجأ ، فأخذ يدعو دعاء المؤمن الواثق ، ان الله
لا يخيب له أملا ، ولا يرفض له دعاء وهو لا يطلب الشئ الكثير ، انه يطلب
حقا له من رب كريم رحيم .

ومرت السنون دون أن تحمل امرأته . ولكنه لم يضيق بها ولم يحزن ولم يئأس ، لقد كان إيمانه بالله عظيما وظل يواصل دعاءه ورجاءه حتى حقق الله أمنيته .

كان ذلك في يوم أغر ميمون .. عندما أنبأته أمراؤه ذات صباح أنها تشعر بعلائم حمل .. ولم يستطع .. وهو الرزين الوقور أن يكتف فرحته فاندفع يضمها بين ذراعيه .. وعيناه مغروقتان بالدموع وهو يهتف بنبرات مرتجفة « الحمد لله .. الحمد لله » .

وهو يتكرر أنه قد أصابه القلق بعد خشية أن تكون العلامات خادعة .. وإن تكون امرأته واهمة فطلت نفسه تتأرجح بين الأمل واليأس والثقة والقلق حتى أكدت له الأيام أن الأمر حقيقة لا غبار عليها .

وبات بعد ذلك مطمئن النفس فريز العين .. يرتقب المولود بنفس لهفة .. وقلب مشتاق .. حتى قرب الموعد .. وبات الوضع قاب قوسين أو أنفى .

وفي الليلة السابقة لم يغمض له جفن فقد جاء لامرأته المخاض ، وحلت الساعة المرجوة .. وبدأت الأم الوضع تلج عليها .. فتطلق منها الصيحة تلو الصيحة .

ولقد كانت ثقته في نفسه وفي جلده وصبره لا حد لها .. ولكنه في الليلة الماضية كان أشبه بريشة تلعب بها الريح .. لا يكاد من قلقه يستقر على موضع .

انه لم يرقد .. ولم يجلس .. لقد كان أشبه ببندول الساعة .. دائم القلق دائم التأرجح .

ومرت به الليلة طويله مرهقة .. وقد وقف ينصت خارج الحجرة ممسكا

قلبه بيديه .. منتظرا بعد كل صيحة بشرى . ولكن الصيحة تخفت ويعقبها سكون ثقيل وصمت جاثم .

وتسلل ضوء الفجر من النافذة وهو جالس في مقعده مسندا رأسه بين كفيه مغرقا في التفكير .. وخرجت « القابلة » من الحجرة تنبئه أن امرأته قد استغرقت في النوم وأنه لا ينتظر ولادة عاجلة ومآلته أخنه أن يذهب الى الفراش ليستريح برهة .

ولقد حاول فعلا أن يرقد في فراشه ولكن كان لا يكاد يغمض جفنه حتى يهب فزعا على صيحة موهومة .. وأخيرا ترك الفراش وارتنى ثيابه ، وصمم على أن يذهب الى الحانوت علّه يتشاغل هناك بما يخلصه من ذلك الانتظار الثقيل والقلق الممض .

بمثل هذه النفس القلقة المضطربة كان الحاج « درويش » يتحرك في حانوته يعبى لهذا زيتونا بقرش ويزن لآخر أفة من الأرز . وهو مستمر في تمتعه وتسبيحه . وبين أونة وأخرى يرفع رأسه الى أعلى ويدعو بحرارة وإيمان « يا رب .. رحمتك يا رب » .

وكان الحاج « درويش » يرجو في قرارة نفسه - أن تضع امرأته ولدا .. ولكنه لم يكن يجسر على أن يفصح عن رغبته في دعائه . فقد كان يرى في هذا طمعا منه .. ولا يفتأ يكرر بين أونة وأخرى انما يجيب على رغبته الخفية - كل ما يأتي به الله نعمة وبركة .

وبينما هو منهمك في لف قطعة جبن لأحد الزبائن .. وصل الى مسمعه صوت عندليب .. فمس الصوت من نفسه موضعا حساسا .. وبدأ البشر على وجهه وممرت الى نفسه موجة رجاء وتفاؤل . انه ما سمع صوت العندليب الا وأصابه خير .

ومد الشاربي يده يثمن الجبن فرفض أن يأخذه وقال له ضاحكا :

- خذها حلوة بشرى أتوقع سماعها .

وفى تلك اللحظة لمح من بعيد خادمتها الصغيرة زينب وقد أقبلت تعدو من الحارة .. ولم ينتظر حتى تصل إليه الخادم ، وما حاجته الى الانتظار وهو يعلم ما أنت من أجله ؟ وأسرع يحمل الغرارات الى داخل الحانوت .. وفى غمضة عين كان قد أغلق الحانوت وانطلق يهرول تجاه الدار والفتاة فى أعقابها .

ووصل الى البيت وهو يلهث وقد فصد جبينه عرقا .. وقطع السلم أربعاً بعد أربع .. ودفع باب الشقة فإذا به يصطدم بصرخة حادة :

ويحه .. أما زال الوضع مستمرا ؟

أذن فيم كان حضور الخادم اليه ؟

أم ترى أن الصراخ قد يعقب الولادة . كما يسبقها ؟

من يدرى .. انه لم يحضر من قبل حالات الولادة .

ولكن الصرخة تلتها صرخات .. أجل صرخات متوالية من حناجر متعددة .. تماماً كتلك الأصوات التى يسمعا فى ماتم .

واندفع كالمجنون الى الداخل .. فإذا بجمع من النسوة يحطن بامرأته وقد استلقنت مسجاة على فراشها جثة هامدة ومن حولها الملاءات البيضاء وقد غلبتها حمرة دماء قانية .

وأمسكت به أخته تقوده الى خارج الحجرة وتطلب منه الصبر والصمود وتنبئه بأن الطفل قد نزل مقلوبا وأن الولادة تعذرت حتى راح ضحيتها الأم والابن .

أجل .. الابن .. فقد كان المولود .. ولدا !

هكذا ؟

أبمثل هذه السخرية والضمانة يعامل الله أمثاله من المؤمنين والأتقياء ؟
أبمثل هذا الجزاء يجزى الله عبده الطيبين الأبرار ؟

ولم يبك الرجل .. بل انطلق يقهقه فى سخرية . ان الصدمة كانت أقسى من أن يتحملها فانهارت مقاومته وتحطمت أعصابه وتبدد إيمانه .

ووقف فى حجرته وحيدا .. وقد أمسك بالمسبحة يقطعها وينثر حباتها .. ضاحكا مقهقا .

هكذا ؟

أهذه هى بشرى العنديل ؟

لقد خدعه الله .. خدعة مقصودة مدبرة .. محكمة التدبير .

أبعد كل هذا الايمان والتقوى .. والاحسان .. والحياة النقية التى لم تشبها شائبة وزر ولا عكر صفاءها ذرة شر .. جزى جزاء سخام ..
انها والله منتهى الضمانة .

وهكذا ظلت قهقهته تختلط بأصوات الصراخ .. حتى أحس بغرط التعب والاجهاد وشعر بقواه تنهار ، فتهوى على أحد المقاعد وأخفى رأسه بكفيه واندفع فى نوبة من البكاء ...

وفعل البكاء فعلة .. وهذأت أعصاب الرجل .. وتمالك نفسه وخرج من حجرته .. يباشر عمله نحو تشييع الجنازة واستقبال المعزين .

واستمر طيلة يومه يتحرك حركة آلية .. وهو يتجلد ويقاوم حتى انتهى اليوم .. وأب الى داره بعد انقضاء المعزين .

وخلا الحاج « درويش » الى نفسه فى حجرته .. كما تعود أن يخلو بها فى صلواته الطويلة .. ولكنه لم يطق أن يجلس على سجادة الصلاة فقد كان يحس نفورا منها .. كانت نفسه مكلومة من ربه ومن خالفه .. لقد تبدد إيمانه ..

وانطلقت روحه هائمة شاردة . كافرة بكل شيء .. وكان من العيب أن يعيدها مرة ثانية الى قيود العبادة الأولى ..

وعلام العبادة والتقى والورع ؟

ومن يعيد ؟

لو أنه استطاع أن يرى فيما أصابه حكمة .. أو مبررا .
وتعدد الحاج على فراشه مقروح الجفن مسهد العينين وقد أمعنت روحه في الهميان والشرود .. وأخذ يقلب رأسه على الوسادة متعلما ويرنو بعينييه من خلال زجاج النافذة وقد بدت النجوم تتلألأ في ظلمة السماء .. ثم أخذ يتمتم قائلا :

- أنت موجود يا الهى .. أنت ترى وتسمع .. لم فعلت بى هذا وأنا ما عصيتك مرة واحدة ؟ .. لم فعلت هذا .. لم .. لم .. ؟ لقد خدعت منك أربعين عاما .. قضيتها فى عبادتك والتسبيح بحمدك .. ماذا كنت فاعلا بى لو أنى زنيت وارتكبت الفاحشة وشربت الخمر ؟ .. لم تركنتى أطمئن الى عبدالك وحكمتك .. ثم خذلتنى فى النهاية هذا الخذلان الشديد ؟ .

وعاد رأسه يتململ وعينه تدمع .. ثم اندفع مرة ثانية فى نوبة من البكاء .. نهض على أثرها من الفراش ووضع عباة على جسده ووس قدميه فى الحذاء ثم غادر البيت متسللا فى سكون .

وخرج الرجل يهيم على وجهه فرارا من نفسه ومن تفكيره . وأمعن فى السير بين الطرقات المظلمة الضيقة ، حتى وجد نفسه أمام باب المسجد .

وتردد برهة .

أيدخل أم لا يدخل .. ان بوده أن يهتدى .. وأن يعيد روحه الضالة الهائمة الى رشادها وإيمانها .. ولكنه لا يستطيع .

أحق له أن يدخل بيت الله .. ونفسه كافرة بالله ؟

وماذا فى ذلك .. ألم تجعل بيوت الله للهداية ؟
ومد يده الى قدميه فخلع نعليه ثم تقدم الى المسجد متناقل الخطا مكروب النفس .. وتحرك حتى وصل قرب القبلة ووقف قبالتها .

ورفع يديه الى أذنيه مكبرا .. هاما بالصلاة .. ولكنه لم يستطع .

لقد كان ذهنه شاردا .. وروحه عاصية ..

وخر الى الارض راكعا فى يأس ، ورفع رأسه الى اعلى وأخذ يتساءل فى عناد واصرار ... لو أعلم السبب .. ما حكمتك يارب .. كيف تأخذها هكذا على غرة .. وهى القوية السليمة التى لم تمرض قط .

وفجأة وصل الى سمعه صوت تتممة . وتلفت الى ناحية الصوت فلمح فى ركن قصى من أركان المسجد فقيها متربعا على الأرض وقد أخذ يهز رأسه كأنما هو منهمك فى القراءة ، ثم علا صوته . يتلو ﴿ قل ان الأمر لله .. قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ .

وأحس الرجل برجفة تسرى فى بدنه .. وأخذ يهز رأسه فى عناد ويتمتم قائلا .. كتب عليهم القتل ؟ ولم تكتب عليها القتل . ما حكمتك أريد أن أعلم .. لم .. لم ؟

وصمت الفقيه برهة .. ثم عاد يتلو قوله تعالى :

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ﴾ .

وهتف الرجل ساخرا .. علمه ! .. أى علم هذا ... لا أفقه منه شيئا ؟
ليعلمنى .. اذا شاء الآن ؟ متى يشاء ؟ ان لم يشأ الآن ؟

مرة أخرى عاد صوت الفقيه يردد :

﴿ لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ﴾ .

وهز الرجل رأسه فى يأس وأجاب :

- لن يسؤنى شيء أكثر مما فعلت بى لقد بلغ السيل الزبى لقد ضللت

نفسى .. قل عن حكمتكم فيما فعلت بى حتى أعود الى رشدى ، لم أخذت زوجتى وولدى ؟

وصمت الصوت برهة ثم عاد يردد :

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾

وصرخ الرجل صائحا بصوت يائس مبجوح

- لا .. لا .. لا أريد أن أسمع .. هذا كذب ..

ووصل الى أذنيه الصوت يردد بقية القول ﴿ فامسكوهن فى البيوت

حتى يتوفاهن الموت ﴾ .

واندفع الحاج الى الفقيه هاجما عليه فى جنون وهو يصيح ..

- هذا كذب .. هذا كذب ..

ووصل الى مكان الرجل يعدو فى أنحاء الجامع كالمجنون ، ثم أصابه

الكلل فخر على الأرض ، وبعد برهة أفاق الى نفسه ورفع رأسه الى السماء

وقال بصوت باك ... الحمد لله . الحمد لله الذى لا يحدد على مكروه سواه .

وفى اليوم التالى عاد الرجل الى حانوته ، منكس الرأس محدودب

الظهر ، كسير القلب ، لقد استعاد ايمانه بالله ولكنه فقد ايمانه بالبشر ولم يعد

له من قول يردده سوى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء

ان تبد لكم تسؤكم ﴾ .

٣٠ قصة

ولما كان الصباح تشاور جميع

رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على

يسوع حتى يقتلوه فاوثقوه ومضوا

به ودفعوه الى بيلاطس البنطى

الوالى .

حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه

انه قد دين ندم ورد الثلاثين من

الفضة الى رؤساء الكهنة والشيوخ

قائلا قد أخطأت اذ سلمت بما بريفا .

فقالوا له ماذا علينا أنت ابصر

فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف ثم

مضى وخلق نفسه .

انجيل متى

وقفت أتأمل صورتين وأنا مشدود مأخوذ . وقلت لصاحبى الفنان

انهما أعجوبة .. انهما معجزة ..

كانت صورتان للعنراء ويهوذا ..

وعجبت في نفسي كيف استطاع صاحبي أن يبرز تلك المعاني فيجعلها شيئاً ناطقاً حياً .. ونظرت الى العذراء فوجدت الصورة تنطلق بمزيج من الكبرياء المتواضعة والابحار العميق .. وخيل الى أنني لست أمام صورة .. بل أمام العذراء نفسها .

ونظرت الى يهوذا .. فراعني منه ظلال داكنة عميقة يتجسد فيها الطمع والبخل وراعي من عينيه احساس بوزر أنقض ظهره وبارقة يشع منها ندم عميق ولهفة الى التوبة والاعتراف بالجرم .. والى ازالة تلك الحثالة التي رسبت في قرارة النفس .. ومحو تلك الصدأ الذي شمل الروح في حلقة ممتعة .

وشددت علي يد صاحبي مهنأ وطاف بذهني كيف حاولت أن أسخر منه عندما أنبأني أنه سيتقدم الى المعرض بصورتني العذراء ويهوذا وكيف حاولت أن أنهيه عن عزمه ولا سيما عندما أعياه البحث عن نموذج ليهوذا . وتذكرت وقدذاك أن أول صورة عرضها منذ عشرات السنين كانت تمثل المسيح وهو صبي .. وقد نالت الجائزة الأولى .. وكانت هي السبب في شهرته وذبوح صيته .

وغادرنا المعرض وسألت صاحبي كيف عثر على نموذج ليهوذا ورأيت يترك برأسه وقد شرد منه الذهن . ثم أنبأني أن لذلك قصة عجيبة وحاولت أن أعرفها منه فلاذ بالصمت .

وافترقا بعد ذلك ومرت الأيام والشهور . وكنت أنسى ما كان من أمر صاحبي حتى حمل الى البريد الرسالة التالية :

عزيزي :

يخيل الى أنني أستطيع الآن أن أرضى لهفتك على معرفة شيء طالما

نقت الى استجلائه وأن أشبع رغبتك في سماع قصة طال شوقك الى سماعها . لست أظنك الا ذاكرة كيف حاولت أن تنفزع مني سر صورتي الأخيرتين اللتين تمثلان العذراء ويهوذا ..

وكيف ألححت على بعد أن خرجنا من المعرض الأخير الذي عرضتهما فيه وفازتا بالجائزة الأولى ، في أن أفشى اليك بقصة النموذجين اللذين نقلت عنهما الصورتين ..

فلقد كنت تعلم مني أن لهما قصة .. وقصة عجيبة .

لقد تهريت منك وقدذاك .. ولم أستطع أن أرض فضولك .. اذ لم أكن في حل من الحديث .. ولست أشك في أن تهربي منك وقدذاك قد ساءك .. فلما أعلم أنك مصاب بحب الاستطلاع .. فهل تسمح لي الآن أن أكفر عن اسأني وأقص عليك القصة بعد أن أصبحت في حل من الحديث .. وبعد أن أصبحت واثقا من أن حديثي لن يضير أحدا .

هل تذكر عندما أخبرتك أنني سأدخل مسابقة المعرض بصورتين هما صورتا العذراء ويهوذا .

وكيف سخرت مني وقدذاك ونصحتني أن أدع تلك الصور الدينية .. فقد سبقني اليها أساطين الرسم وأني مهما فعلت فلن أتى بما لم يستطعه الأوائل . وقلت أنه خير لي أن أتقدم بشيء حديث مبتكر .

ولكنني ضريت بنصائحك عرض الحائط وأصررت على رأيي وبدأت البحث عن نموذجين أنقل عنهما ولم يكن من العسير على أن أجد نموذجا للعذراء ولو أنه لم يرضني ارضاء تاما .

ولكن المشكلة الكبرى كانت في الحصول على نموذج ليهوذا . ولم تكن

الصعوبة كائنة في أن أجد النموذج الصالح .. بل كانت المسألة أعوص من ذلك .. فأنت تعلم اني قد تعودت دائما أن أفهم الأشخاص الذين أتخذهم نماذجاً ، أية صورة أنوى أن أرسمها لهم وأية تعابير يهمنى أن أوضحها منهم .. وأى نوع من أنواع النماذج أريد أن أجعلهم ..

فالمراة التى اتخذها نموذجا لعاهرة أفهمها جيدا أنتى سأرسم عنها عاهرة .. وانى سأوضح فيها تعابير العهر والفجور .

ولقد كان هذا هو ما جعل الحصول على نموذج ليهودا أمرا عسيرا .. فما من انسان - بالغا ما بلغ من السوء والحطة والدناءة - قد رضى أن يكون أنموذجا ليهودا بعد أن شرحت له من يكون يهودا ..

ولا شك أنك تذكر دهشتك وقتذاك عندما أنبأتك بهذا .. وتذكر سؤالك اياى :

- ماذا يمنعهم من أن يكونوا نموذجا ليهودا أو لغيره ... ماداموا سيأخذون أجرهم فى النهاية .

وتذكر اجابتي لك :

- هذا هو ما فعله يهودا أيضا .. لقد أخذ أجره فى النهاية .. ولكنى مع ذلك لم أجد حتى من حثالة البشر من رضى أن يكونه .

ومرت الأيام وأنا لا أجد النموذج وكلما ازداد اقتراب الموعد المحدد لاقامة العرض ازداد بى الضيق واشتدت حيرتى .. حتى أنت بى الصدفة العجيبة فى طريق النموذج المطلوب .. أو على الأصح ألقت به فى طريقي . رأيته أول مرة مع سواء من المسجونين وقد حششوا فى احدى اللوريات فى طريقهم الى السجن .

وكانت للحظات الخاطفة التى لمجته فيها .. والتى التقى فيها بصره

بيصرى كافية لأن أجزم بأنه ضالتي المنشودة .

لم يصعب على العثور عليه بعد ذلك واستطعت بواسطة أولى الأمر أن أحصل على إذن للقائه .. وأن يسهلوا لى مهمة اتخذه نموذجا أنقل عنه صورتى .

ودهبت اليه فى حجرته الرطبة المظلمة .. بعد أن قررت أن أنتقل أنا اليه .. فقد تخيلت أن جو الحجرة الموحش الكئيب الذى تفوح منه عفونه الجريمة سيكون أكثر الأجواء ملاءمة للصورة .. وأن غياهب السجن التى يتقلها ضباب الذنوب ستكون خير عون لى على الاجادة والاتقان .

ودفع الحارس الباب فسمعت له صريرا موحشا وتفتت الى الحجرة الضيقة واستطعت أن أميز الرجل على ضوء تلك الخيوط التى تسلت من النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية .

وأخذت أتأمل وجهه الضامر وعينه .. والتقى بصرنا فأصابتنى اذ ذاك رجفة .

لقد أدهشنى من الرجل .. أكثر من أى شيء آخر .. بارقة تشع من عينيه المنبتتين . بارقة تحاول أن تبدد ظلمات الذنوب التى أثقلتة .. ورغبة فى التكفير والتوبة والاستغفار والندم .

وأفهمه الحارس ما هو مطلوب منه .. فرفع الرجل رأسه الى فى شيء من الدهشة ولم يحرك ساكنا .. فألقيت عليه التحية فى رفق وأدب .

وتركنا الحارس وأخذت أجاذه أطراف الحديث متوددا ... حتى أفهمه ما أنوى أن أتخذه نموذجا له .. وتطرق بنا الحديث الى أن أسأله عما قاده الى السجن .. فأفضى الى بقصته فى اقتضاب .

هل تدرى ماذا كانت قصته ؟ أى حظ هذا الذى دفع به الى ؟

لقد قال لى الرجل انه متهم فى قضية قتل ..
وأن المجنى عليه كان أحد تجار الأواني الفضية .

وأكد لى أنه لم يشترك مع اللصوص فى عملية القتل .. ولكن الذى زج
به فى التهمة هو تعدد موايقه فى سرقة الفضيّات .

فلقد كان به تحرق دائم الى الفضة . ولم يكن يتورع فى سبيل الحصول
عليها عن أن يسلك أى الطرق ، سواء كانت شريفة أم غير شريفة .

وكان الحصول على الفضة هو العامل الأول الذى يتحكم فى حياته .

تصور يا صاحبي أن هذه هى قصته !

تصور دهشتى وقتذاك وأنا أسمعها منه !

أنا الذى كنت أبحث عن نموذج ليهودا .. هل أستطيع أن أجد نموذجا
خيرا من هذا ؟

رجل مصاب بجنون الفضة .. رجل تحكمت الفضة فيه .. فهوت به
الى بش القرار .

ونظرت اليه برهة .. وبدأت أخبره عما أود أن أتخذه نموذجا له ..
وقصصت عليه قصة يهوذا والمسيح .. وكيف باعه بثلاثين من الفضة .. ثم
وخزه الندم فرد الفضة لأصحابها وخنق نفسه .

ورأيت الرجل يحملق فى بشدة فاغرا من الدهشة فاه ..

ثم أطرق برأسه وخيل لى أنتى أبصر فى عينيه دمة تترقق .

وتملكنى العطف عليه والرثاء له .. وكهرت أن أكون سبب ايلام
الرجل .. وأن أستغل فرصة كونه سجيناً فأجبره على أن يفعل ما لا يود فعله .

ووجدت أن خير ما أريح به ضميرى هو أن أترك له الخيار فى أن

يجلس أمامى أو لا يجلس .

وقلت له :

لا أريد أن أكرهك على شيء فلا شك أن لك مطلق الحرية فى أن
ترضى أن أتخذ منك النموذج الذى أريده . لقد رفض الكثيرون غيرك من
قبل .. فلن ألومك اذا ما رفضت .

ونظر الى الرجل نظرة طويلة ثم هز رأسه بشدة قائلا :

- ابدأ ياسيدى أبداً .. انى سأجلس أمامك .. انى أرغب فى ذلك ..

هذه فرصة أذل بها نفسى وأهبط الى أسفل القرار .. حتى أستطيع بعد
ذلك أن دفع بها الى أعلى القمة .. هذه فرصة أظهر فيها روحى حتى تتخلص
من أدرانها وشوائبها .

ثم صمت الرجل برهة استغرق خلالها فى تفكير عميق حتى قال وكأنه
يحدث نفسه :

- ثم هناك أمر آخر .. أمر لاشك قد أتاحته الظروف لى .. اذ يخيل
لى أنها قد آمنت بأن تضع خاتمة لهذه اللعنة .

أجل هذه الفرصة التى ألقى عن نفسى فيها ما أنقلها وحطمتها .
ولم أفهم ما يعنى الرجل بقوله .. ولم أريد أن أستوضحه خشية أن أثير
فى نفسه ذكريات مريرة محزنة .

وأجلسته فى الوضع الذى أريده وفتحت الحقيبة وأخرجت منها بعض
الأدوات .. وبدأت أرسم له تخطيطا .

وانهمكت فى الرسم .. وخيل الى أن الرجل متمرن على الجلوس أمام
الرسامين فقد كان من خير النماذج التى أجلستها أمامى .. اذ لم ينحرف عن
جلسته أو يحرك جسده طوال الساعتين اللتين استغرقتهما فى رسمه .

وكان أهم ما يسترعى اهتمامي في الرجل عينيه .. فقد ركزت في رسمهما كل جهدي .. اذ كنت ألمح فيهما وراء ذلك الاحساس بالجرم واليأس الظاهر لمحة عزم وبارقة أمل ، كنت ألمح في عينيه وراء تلك المثلة والانهيار شيئا لا يعبر عنه أكثر من قوله ، حتى أستطيع بعد ذلك أن أدفع بها الى أعلا القمة ، هذه فرصة أظهر فيها روحي حتى تتخلص من أدائها وشوائبها ..

أجل لقد كان ذلك هو ما أستطيع أن ألمحه وراء أفق نفسه ..

وكان ذلك هو ما حاولت جهدي أن أبرزه - وعندما انتهيت من الرسم .. أحسست أنني قد نجحت وانني استطعت كذلك أن أجسد ذلك الشيء الخفي الذي لمحته في قرارة نفسه وأيقنت كذلك أنني سأنجح في نقله من التخطيط الى الصورة .

ووضعت التخطيط جانبا وأمرته بأن يجلس على راحته شاكرا له فضله .. ثم وضعت يدي في جيبى وأخرجت بضعة ورفات مالية وحاولت أن أعطيها اياه ولكنه أعادها الي قائلا في شيء من المرارة .

لا ياسيدى استبقها لنفسك .

وأصابتنى دهشة وحيرة وقلت له :

- هذا أجرك فهو مال حلال لك .. لقد تعودت دائما أن أنقد النماذج التي تجلس أمامي فماذا يمنحك من أن تأخذ الأجر .

- لا ياسيدى اعفني من الأجر .. أرجوك .. اني لا أود أن آخذ أجرا على ما فعلت .

وصمت الرجل برهة ثم أرتف :

- ولكن هناك أمرا بسيطا أسألك اياه . وبودي لو تفضلت بفعله من

أجلى .

وهنا أدركت أن الرجل ينوي أن يطلب مني شيئا يعوض به الأجر ، شيئا لاشك سيعتبره أكثر من الأجر ، وخشيت أن يبالغ في مطلبه أو يطلب أمرا تحرمه قوانين المسجين .

وقلت له في شيء من التردد :

- لاشك اني فاعل لك ما تريد ما دام في طاقتي .

- هو في طاقتك ياسيدى ، أريد منك أن تذهب الى زوجتي ، انها هي التي وهبتني القوة لأتماسك وأتجدد . وهي التي منحنتني الارادة لأبدأ من جديد .

انها تعيش على مقربة من السجن فلقد استأجرت دار في القرية المجاورة حتى تكون بجوارى .

- وماذا تريد أن تبلغها .

- لو تفصلت ياسيدى بلقائها وقلت لها كل ما حدث بيننا ، وطلبت منها أن تعطيك الكيس الصغير لكي توصله الي ، فلاشك أنك تكون قد أسديت لى معروفا لن أنساء ، هل تستطيع أن تفعل هذا من أجلى ؟

وترددت برهة فقد خشيت أن يكون في الكيس شيء يحرم دخوله الى السجن ، وبدا لي أن الرجل قرأ ما جال بخاطري فقد قال مؤكدا .

- ليس بالكيس شيء يخشى منه . أقسم لك ياسيدى .

واستطعت أن أميز في صوت الرجل رنة صدق وإخلاص فلم أتردد في أن أقول له :

- سأفعل ما تريد ، سأذهب الى زوجتك وأنبئها بكل ما حدث وأحضر لك منها الكيس .

وشد الرجل على يدي شاكرا وتركته وانصرف .

غادرت السجن وكان الوقت قبيل الغسق ولم يبق في الأفق الا بقايا شفق

داكن الحمراء ، وفلول النهار تترنح أمام طلائع الليل المعتمة ، ولم يصعب على أن أعثر على الدار التي وصفها لى الرجل وبعد لحظات كنت أطرق الباب ، وسمعت من الداخل صوتا يجيبني في ورقة ، ثم فتح الباب ووجدت نفسى أمام امرأة انتشحت بمنزر أسود ونظرت الى نظرة فاحصة ثم سألتنى :

- نعم ياسيدى .

وحينها فى رفق ... مساء الخير ياسيدتى .

مساء الخير ، أستطيع أن أودى لك خدمة .

انى قائم من عند زوجك .

وأخذت المرأة من قولى وردته فى دهشة :

- قادم من عند زوجى ؟ تفضل ياسيدى .

ثم أفسحت لى الطريق وقادتنى الى الداخل .

وجلمت على مقعد خشبى وجلست أمامها على الأرائك وساد السكون برهة ثم رأيته قد قامت وبدأت تتشغل بأشغال المصباح الغازى ، فلقد أخذت الظلمة تشتد ثم عادت الى مقعدها .

وكنت أول من بدأ الحديث فقصصت عليها فى اسهاب ما دفعنى الى لقاء زوجها وما حدث بينى وبينه .

وأخذت أرقبها وهى تستمع الى ، ووجدت فى وجهها نوعا من الجمال العجيب ، نوعا هادئا ساكنا ، يبعث فى نفسك الطمأنينة جمال لا يبهرك منه ضياء ولا بريق ، ولا تؤخذ منه لأول وهلة ، ولكنه يسحرك كلما أطلت النظر اليه ، وتحس منه أمنا وسلاما ، تشعر من النظر اليه براحة كالتي يحسها الانسان عندما يستلقى فى روضة غناء فى يوم صافى الأديم هادئ السمات .

وانتهيت من الحديث ورفعت الى عينيها الصافيتين وسألتنى فى شيء من اللهفة :

- كيف وجدته ياسيدى ؟ هل يبدو فى تحسن .. أعنى نفسه وروحه .. هل تسيران فى طريق الشفاء .

وأجبتها على الفور :

- بالتأكيد ياسيدتى . انى أستطيع أن أجزم من حديثه ومن مظهره .. انه قد بدأ فعلا فى الصعود الى أعلى . وأن روحه قد أخذت تتخلص من شوائبها وأدرانها وان نفسه قد أخذ يزول عنها الصدا .

وبدأت المرأة تتحدث بدورها لتقص على قصته قائلة :

ان أمره عجيب - لولا هذا المرض النفسانى الذى به لكان خير الرجال وكان له شأن آخر غير الذى صار اليه ، انى أذكر كيف التقينا منذ بضع سنوات .. وكيف شدنا الحب بوثاقه .. ووجد كل منا فى صاحبه أقصى ما يريد .

ثم تزوجنا وبدأنا حياة رغبة هائلة .. وكنت أرى المستقبل أمامه زاهرا متفتحا وكان كل ما حولنا يبعث على الرضا ويوحى بالأمل .. حتى بدأت أكتشف ذلك المرض الذى به ، وهو لهفته الى الفضة . وتحرقه الى جمعها ، وحرصه عليها حرص بخيل يتأجج فى جوفه الجشع والطمع .

ولم أكن أجد فى الأمر غضاضة عندما كانت لهفته لا تتعدى جمع كل ما تصل اليه يده من الفضة ومحاولته تخزينها .. ولكننى بدأت أحس قلقا عندما وجدته ذات مرة يغالل يانعا فى أحد الحوانيت فيسرق من كيسه ما وصلت اليه يده من القطع الفضية .

ولم تذق عيني النوم فى تلك الليلة فقد قضيتها باكية مسهدة وانتهى به الأمر الى أن أقسم لى أنها ستكون المرة الأخيرة التى يفعل فيها مثل تلك الفعل .

وكنت وقتذاك فى حالة لا أحسد عليها ، فقد أضناني التفكير دون أن

أهتدى الى حل لما أنا فيه .

للتخيل ياسيدى حال زوجة تحب زوجها . وترى فيه مثلا أعلا ونموذجا بين الرجال ثم تراه ينزل الى مثل تلك الدنيا التى لا موجب لها ولا سبب .. فنحن بحمد الله فى غير حاجة الى تلك المبررات المخزية التى يرتكبها .. وبدأت أتصور ماذا يكون حالنا لو ضبط مرة مثلما باحدى تلك الفضائح المشينة .. أية مصيبة وأى ضياع لمستقبله ؟

ولم أشك فى أن ما به مرض نفسانى ، قد يكون مرجعه الى عقدة نفسية أصابته فى طفولته أو فى صباه ، ولكن كيف السبيل الى علاجه كيف أجرو أن أقول للناس أن زوجى مصاب بداء سرقة الفضة ، وأنه قد ارتكب عدة سرقات نافهة حقيرة .

وأخيرا حدث ما كنت أخشاه فقد افترضح أمره وضبط عدة مرات وفقد سمعته ومركزه ، وتدهور حالنا وبذلت جهد الجبابة لانقاذه مما به ، حتى حدثت أخيرا تلك الكارثة التى قتل فيها ناجر الأروانى القضية فكانت القضية علينا .

وبالطبع ياسيدى لم يكن له أى دخل فى عملية القتل .. ولا كان يخطر على باله أنها ستنتهى بمثل ما انتهت عليه .. فهو لا يمكن أن يفكر فى ازهاق روح حشرة ، بلة انسان مثله .

ويخيل الى أن هذه الحادثة رغم فظاعتها ورغم ما حل به من جرائمها قد أفادته كل الفائدة .. فقد أصيب منها بصدمة عنيفة .. روعته وهزت مشاعره وأحدثت فى نفسه تحولا مفاجئا وأصابته ينفور من الشيء الذى طالما نلّف عليه .. وشفيت نفسه من الداء الذى أزمى بها .

ألمت ترى ذلك ياسيدى .

ألم تر أن نفسه على وشك الشفاء ؟

ورأيت فى سؤالها شبه رجاء واستعطاف فقلت لها فى ثقة :

- بالتأكيد ياسيدتى ، انه سيخرج اليك رجلا آخر . سيخرج اليك نفسا سليمة وروحا طاهرة وتستطيعان أن تبدعا حياة جديدة مرة ثانية ، فالمستقبل مازال زاهرا متفتحا .

وفعل قولى فى نفسها فعل السحر ووجدت تعابير وجهها قد نمت عن شيء جديد وشع من عينيها بريق أصابنى منه رجفة .

وأخذت تحدثنى عن أملها فى المستقبل وعن أحلامها وأمانيتها وبهت لحظة ، ثم أقبلت على حقيبتى أفتحها وأخرج منها ورق الرسم وبدأت أرسم لها تخطيطا .

وانهمكت المرأة فى حديثها الملىء بالثقة والايمان . ايمانها بالله وبالمستقبل وبزوجها وبنفسها وانهمكت فى الرسم بلهفة جنونية ، لقد كنت أرغب فى أن أجد ذلك الايمان الذى شع من عينيها وذلك الاخلاص الذى برق فى وجهها والثقة التى ملأت جوانحها .

وأخيرا كتفت المرأة عن الحديث وكفتت عن الرسم ..

لقد رسمت ما أبغى ..

لقد حصلت على ما كنت أتلهف عليه .

ولا شك أنك تذكر صورتها فلقد رأيته وأبدت اعجابك بها هل تنكر ؟

لقد كانت صورة العذراء .

وعندما صممت ، مددت يدي اليها بالصورة التى رسمتها وابتمت

وعلى وجهها احمرار خجل ، وأنبانى أن الصورة فيها كثير من التعلق ،

وانتى أطربتها أكثر من اللازم .

وصممت برهة ثم سألتنى فى حياء :

- هل يمكن أن تربها له ؟

- بالتأكيد ، لا شك أنى فاعل .

ووضعت الصورة فى الحقيقة ثم نهضت من مقعدى ماذا يدى لمصافحتها .

وقلت أذكرها بما أتيت من أجله .

- لا تنسى الكيس ياسيدتى الذى يطلبه زوجك .

وهزت المرأة رأسها بالموافقة ثم اختفت بضع لحظات وعادت تحمل كيسا جلديا صغيرا ودفعت به الى قائلة :

- عندما تعطيه له سيشرح لك كل شيء عنه .

لا تسخر منه ياسيدى اذا ما رأيت فيما يقول حديثا صبيانيا .

هل تعدنى ياسيدى ؟

- لا لزوم للوعد فانى ما سخرت من شيء فى هذه الحياة قط .

فقد نجد نحن أنفسنا فى نفس الموضع الذى سخرنا منه ، فليس علينا الا أن ندعو الله ألا يدخلنا تجربة .

- أشكرك ياسيدى .. انه يريد أن يتخلص مما يظنه لعنة حلت به أنه يريد أن يلقى عن نفسه ما أثقلها وأنهكها .

ووجدتني أسمع للمرة الثانية نفس ما سمعته من الرجل عن التخلص من لعنة وعن شيء أثقل نفسه وأنهكها ولم أجب بشيء فما استطعت أن أفهم بعد .

وغاربت المرأة وسلكت سبيلي مرة ثانية الى السجن ولم أجد مشقة فى الدخول الى الرجل .

ووصل الى أذننى صرير الباب مرة أخرى .. ووجدت الرجل ما زال جالسا حيث تركته .

وعندما أبصرنى وثب من مكانه وتقدم الى بلهفة شديدة وسألنى فى حدة .

- هل أحضرته ياسيدى .

وأشرت برأسى - نعم - ثم مددت يدى اليه بالكيس .

ووضع الرجل الكيس على حافة الفراش ونظر الى مطرقا باستحياء ثم قال بصوت هامس :

- هل لم تتكرنى بعد ياسيدى ؟

هل نظن أن هذه هى المرة الأولى التى أجلس أمامك فيها لترسمنى ؟ ورفعت حاجبى فى دهشة بالغة وهزرت رأسى متسائلا عما يعنيه وعاد هو يقول :

هل تذكر صبيبا جلس أمامك منذ عشرات السنين لتتخذ منه نموذجا للسيد المسيح ؟

- بالطبع أذكر ، فلقد كانت أول صورة رفعتنى الى أوج الشهرة ولكن ، هل تعرف الصبى ؟

ثم ترددت برهة وبدأت أحملق فيه بشدة وقلت مترددا :

- لا أظنك تعنى أن هذا الصبى هو ...

- أنا ! أجل ياسيدى ، هذا هو ما أعنيه بالضبط ، لقد اتخذت منى فى صباى نموذجا للمسيح ، وجعلت اليوم منى نموذجا ليهودا .

ثم ضحك ضحكة مريرة أصابتني برجفة .

وحدثت نفسي في صوت هامس :

- ولكن هذا غير معقول .

- أجل انه يبدو فعلا غير معقول .

ثم صمت برهة وأردف :

- هل تذكر عندما أعطيتني أجرى وقتذاك أورقا مالية فسألتك أن

تستبدله بفضة .

- لاشك انى أذكر ، وأذكر مبلغ فرحتك بالنقود الفضية لقد كانت فرحة

جنونية .

- أجل ياسيدى ، فقبل أن تعطيها لى ببضع ساعات كان أبى قد ضربنى

ضربا مبرحا لأنى حاولت أن آخذ من درجه قطعة فضية أشتري بها لعبة كنت

أتلهف عليها ، وزادنى الضرب والحرمان لهفة على لهفة .

وكننت أتحرق شوقا الى القطعة الفضية وأحلم اننى قد عثرت على كنز

ملئ بالفضة ، وبعد بضع ساعات حققت أنت لى الحلم وهبأت لى ذلك الكنز

من الفضة .

ومرت الأيام بعد ذلك ، فإذا بى أحس بجشع دائم الى الفضة ولهفة على

الحصول عليها ، وفرحة فى تجميعها وتخزينها ، واشتد بى الأمر ، وتحكم

فى نفسى ذلك الشعور ، وتسلب على ارادتي وحياتى وأصبحت أشبه بعمد من

المخدرات . وأظلمت حياتى وانتهى بى الأمر الى حيث تجدى الآن .

وأحسست برعدة فى بدنى وقلت لنفسى فى صوت هامس :

- يا للفنى المسكين ، هل يمكن أن أكون أنا السبب فى كل ما حدث له .

- لا ، لا ، ياسيدى ما ذنبك أنت ، الذنب أولا ذنب ذلك الذى أخذنى

بالشدة أول الأمر ، وأذاقتى الحرمان بلا سبب ، ثم ذنب هذه النفس الضعيفة

التي لم تستطع أن تقاوم العلة .

هل يدهشك ياسيدى اذا وجدتني قد احتفظت بنقودك كما هي ؟

وانى اتخذت منها تعويذة ، أجلس بواسطتها غيرها من الفضة ، انها

مازالت معى كما هي ، لم أصرف منها مليما واحدا ، وكم أتعنى لو أردتها

لك - اذا لم تجد فى هذا ما يسوءك - حتى أرفع عن نفسى اللعنة التى حلت

بى .

وأمسك الرجل بالكميس الفضى وفك رباطه وألقى ما فيه فوق الفراش

ونظرت الى الرجل فوجدت عينيه تبرقان بطبقة من النع وأحسست بأن نفسه

غمرها شعور بالراحة والاطمئنان ، والتفكير عن الخطيئة ، ورأيت بارقة

الايمان التى كنت ألمحها بعيدة فى أقصى أفاق نفسه قد أشرقت حتى أضاءت

نفسه .

وأخذت أجمع النقود الملقاة فى الفراش .

وأعدت الى جيبى ، ما أعطيتة للصبي منذ عشرات المنين .

ثلاثين من الفضة .

رُعْرُهَا يَا رَبِّ

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ
لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
« قرآن كريم »

دفت الساعة الثانية عشرة . وأنصتت العجوز الى الدقات تعدها واحدة
واحدة ، ثم أرسلت من صدرها زفرة حارة وأغمضت عينيها .

لم تنم العجوز فقد استعصى عليها النوم وأرقها الحزن ، وأخذت تهز
رأسها متململة . وانسايت من جفنيها المطبقين ندمتان جرتا على وجهها
المغضن واستقرتا على الوسادة .

كان أكثر ما يحزنها هو احساسها بالعجز . فقد كانت تنمى لو تستطيع
أن تفعل شيئاً ، أى شيء مهما بلغ من ثقافته يخفف من لوعتها ويهيبء لها
بعض السلوان .

لو أنها كانت تستطيع أن تغدو وتروح لتقضى بعض الحوائج أو تناول
هذا الدواء أو ذاك . وتضع الكمادات وترفعها . أو لو أنها كانت تستطيع حتى
أن تجلس بجوار المريضة العزيزة لتسرد عليها الأقاصيص والنوادر ، فتسليها

وتضحكها وتدفع عنها بعض آلامها .

لو أنها كانت تستطيع أن تفعل شيئا من هذا لكانت بلا شك أحسن حالا ،
ولكان المصاب - على فداحته - يمكن احتماله .

أما أن ترفد هكذا في فراشها لا تملك إلا الرأس المتململة ، والدمع
المنساب ، والزفره نلو الزفره . فقد كان هذا شيئا لا يطاق .

وسمعت وقع أقدام تقترب من حجرتها ثم أضىء النور وأبصرت أم
عبيده الخادم تفتح أحد الدواليب لتخرج منها بعض الملاءات البيضاء ، وعندما
أوشكت أن تهم بالخروج دون أن تلقى إليها بكلمة سألتها في صوت خافت :

- كيف الحال ؟

وكانما قد فوجئت المرأة بمزاج العجوز . فقد أصابتها رجفة بادية
وهتفت مجيبة :

- أما زلت مستيقظة ياسيدتى ؟ ظننتك نائمة .

- كيف حال عفت ؟

- كما هي . لقد استدعينا الدكتور عبد العزيز فأشار بوجوب عمل
كورنسلتو . وقد حضر الأطباء وتشاوروا في أمرها ثم انصرفوا بعد أن قالوا
أنهم فعلوا كل ما يستطيعون وأن على الله الباقي .

رفعت العجوز يدها الى السماء داعية بصوت ملؤه الحرارة .

ربنا لا يرينى فيها مكروها .

وأطفأت الخادم النور . وغادرت الغرفة تاركة العجوز غارقة في
ظلمات أحزانها .

وشرد ذهن العجوز فانطلق الى حجرة المريضة العزيزة الجميلة ،

وتخيلتها مسجاة على فراشها مكروبة الصدر متلاحقة الأنفاس قد الهنتها الحمى
وأنهكها المرض وبجوارها رقد طفلها الصغير لا يتجاوز عمره أباما
معدودات .

عجبا للزمن ، ما أسرع مروره أهكذا أضحت الحفيدة الصغيرة أما ،
وهي مازالت تنكرها بالأمس تحبو على أربع ؟

لقد جمعت الدار أربعة أجيال وانها لسعيدة بذلك . فما كانت تلقى في
حياتها حفيدها الرابع .

تتمنى أقصى من أن تعيش لترى عفت قد أضحت زوجة وأما . وأن
يحقق القدر أمنيتها . ولكن بأى ثمن ؟

إن الثمن لو أخذه القدر حقا لكان فادحا ، أفدح من أن يحتمل .

لقد وضعت عفت ولدا ، حملوه إليها عقب ولادته مباشرة فبعث فيها
منظره فرحة شديدة . إذ كان أول ولد تنجبه العائلة . وسألتهم أن يسموه محمدا
كجده الكبير المرحوم زوجها .

ولم تطل فرحتها ، إذ ما لبثت أن أبصرت في الوجوه تجهما . وأحسست
في الدار حركة قلق . ثم علمت أن حرارة الأم الصغيرة قد أرتفعت وأنها
محمومة متعبة .

وروغها النبا ، وأحسست كان مطرقة قد هوت على رأسها فنكتها دكا ،
ووجدت نفسها تتسائل كالمحمومة :

- أنرى القدر بنوى أن يكرر ضربه فيصيبها في حفيدتها كما أصابها
في ابنتها .

أى ذنب جنته لكى ينزل بها القدر تلك القصاص العجيب ؟

فيحكم عليها بالحياة حتى تشاهد بعينها مصرع أحب الناس إليها !

لا لا ، ان القدر لا يجسر أن يعيد فعلته ، لئنه يؤخذها هي ، فما عاد بها رغبة في الحياة . وما أضحى لها نفع ولا فائدة ، ان من المعجب أن يترك عودها الذابل اليايس ليقطف هذه الزهرة النظرة اليانعة .

لا لا ، هذا ليس معقولا .

ولكن ألم يفعلها القدر من قبل ؟ ألم يأخذ ابنتها بنفس الطريقة وفي نفس الظروف !

أجل أنها تذكر اليوم المشنوم تماما ، كان الوقت صيفا ، في مثل هذا الوقت ، أجل ، أجل انه كان شهر يؤونه ، والجو مسموم خائق والقيظ على أشده ، والتوافذ قد أغلقت انقاء لهبوب الشرد اللافح ، والدار قد خيمت عليها ظلمة وران عليها صمت لا يشوبه الا وقع أقدام تتسلل هنا وهناك ، وهمسات تنساب من الشفاء كالنفح ، والأطباء قد احتشدوا في حجرة المريضة ، الحجرة المظلة على الناحية البحرية (نفس الحجرة التي نرقد فيها عفت الآن) وهي جالسة في حجرتها هذه ترتجف كريشة في مهب الريح وقد أخفت وجهها بين كفيها وانكششت فوق الأريكة كأنها كوم حطام ، وبجوارها وقف زوجها يحاول أن يزيل مخاوفها ويبعث فيها الطمأنينة وهو أشد منها خوفا وأكثر انهيارا ، لا يكاد يتمتم الا بجملة واحدة تتواتر على شفتيه :

- سليمة باذن الله ، سليمة ان شاء الله ، لطفك يارب ، رحمتك يارب .

ومن الصالة كان يصل إليها وقع أقدام زوج ابنتها ابراهيم وقد أخذ يغدو ويروح في قلق شديد وهو يهتف بحرارة داعيا من قبله بين آونة وأخرى « يارب ، »

وأخيرا غادر الأطباء الغرفة وتحركوا مغادرين الدار وفي أعقابهم سار

ابراهيم ، وتحاملت هي على قنمها حتى حجرة ابنتها وجلست في سكون على حافة الفراش محاولة التجلد والتماسك .

كانت تحس بقلبها يتفتت وهي ترى ابنتها وفلذة كبدتها الشابة الجميلة القوية الصحيحة مسجاة على الفراش غائبة عن وعيها وقد انفرجت شفتاها وخرجت أنفاسها سريعة متلاحقة كأنها تعدو في سباق وعلى مقربة منها استقر فراش صغير كانت ترقد فيه المولودة الجديدة وقد راحت في سبات عميق .

وعاد ابراهيم بعد أن شيع الأطباء وقد بدأ مطرق الرأس مطاطيء الهامة . وأقبل زوجها عليه يسأله عما قال الأطباء . فhez رأسه ورفع كتفيه وأجاب في يأس .

- لقد قالوا انهم فعلوا كل ما في وسعهم ، وأن الباقي على الله .

ولم يصبها قوله بخيبة أو يأس ، فقد كانت تأمل في الله كثيرا وتعتقد جازمة أنه لن يخيب رجاءها .

ومضى اليوم والسكون مخيم وأهل الدار يتحركون كالأشباح وأقبل الليل فلم تترك فراش ابنتها بل استمرت جالسة بجوارها حانية عليها تتحسس وجهها الملهب بكفها وتدعو الله أن ينزل معجزته .

وغالبا النعاس فأسندت رأسها وهي جالسة على الوسادة ، ولم تشعر كم مر من الوقت وهي على حالتها تلك ؟ ولكنها استيقظت فجأة على نداء ابنتها وهي تهتف بها : « نينه .. نينه .. »

وتملكها رجة وأجابت بصوت يذوب حنانا :

- نعم يا زينب .. نعم يا حبيبتي .

أريد أن أراها .. أريد أن أرى عفت .

- حاضر يا حبيبتي .. سأحضرها لك حالا .

وكانت الطفلة ترقد في الفراش الصغير فحملتها واقتربت منها بهدوء ووضعنها بجوارها قائلة :

- بنت أمورة ، شبيهك تمام .

- نينه . أريد أن تأخذي بالك منها جيدا يانينه ، سأذهب وأنا مطمئنة لأنى سأتركها لك .

وأحسنت من قول ابنتها كأن يدا تعنصر قلبها ، وحاولت جهدا أن تهدئ عاصفة البكاء وتوقف سيل الدموع الذى يوشك أن ينهمر من مقلتيها ، وقالت فى لهجة واثقة مطمئنة :

- لا تقولى هذا يازينب ، انك بخير ، وستشفين وتتمتعين بأبنتك وتربينها .

أنا أعلم بنفسى، قريبا منى ، دعنى أمسها بشفتى .

وكان هذا آخر ما فعلته ، لقد مسّت ابنتها بشفتيها ثم انطبقت شفاتها الى الأبد .

وهكذا راحت البنية العزيزة ، لقد انسابت من بين يديها وتركهم حطاما ، لقد ذهب أروع وأنضر ما تكون ، غير تاركة عزاء لهم سوى الطفلة الصغيرة .

وتلقت الأم حفيدتها التى هبطت الى الحياة بلا أم ، فكانت لها خير أم .

ولم تكن تملك أن تكون غير ذلك ، فقد كان حبها للطفلة حبا غير طبيعى ، إذ كانت تشعر أنها بقية حية من العزيزة الراحلة ، وكانت تذكر دائما وصية ابنتها لها وقولها لها قبل أن ترحل « سأذهب مطمئنة لأنى سأتركها لك ، .

وكرست الجدة حياتها لخدمة حفيدتها ، فهى تذكرت كيف كانت تسهر

بها الليلالى ، ما حاولت مرة واحدة أن توكل أمرها لخادمة ، أو لقريبة من الأقرباء .

كانت تشعر أن لحياتها قيمة من أجل الطفلة العزيزة ، كانت تكره لنفسها المرض أو العجز خشية أن لاتجد عفت من يخدمها ، أو خشية أن يهمل الخدم أمرها .

ومرت السنين ونمت الطفلة فأصبحت صببة يانعة ناضرة وكانت الجدة تحس اذا ما رأتها بالرضا والغبطة ، وتشعر أنها قامت بواجبها نحوها خير قيام .

وفى ذات يوم أصيبت العجوز بشلل أفعدّها عن السير ، ووجدت نفسها فجأة قعيدة الفراش لا تملك حراكا .

وتلقت المصائب بصبر جميل وحمدت الله لأنها لم تصب به عندما كانت عفت فى أشد الحاجة الى قوتها ورعايتها ، واستسلمت لقضاء الله راضية ساكنة .

ومرت بها الأيام وهى قابعة فى فراشها ، عزأوها الوحيد حب حفيدتها لها وعطفها عليها ، كانت أحب الأوقات الى نفسها هى الأوقات التى تقضيها عفت جالسة بجوارها على الفراش مرهفة سمعها لاقاصيصها الطريفة ونوادرها المسلية ، وقد أسندت ذقنها الى كفها ورنّت اليها بعينيها الصافيتين ، وأخذت تستحثها من آن لآخر جملتها التقليدية :

- وبعدين يانينية حصل ايه ؟

يا للعجب ! لقد كانت هى نفسها جملة أمها . حتى لقد كانت العجوز تشعر فى كثير من الأحيان أن الجالسة أمامها هى الابنة وليست الحفيدة .

أجل ، ان الزمن ما مر وما انقضى . وان زينب مازالت طفلة ترفف

أذنيها وترنو بعينيها . انها ما وضعت وما ماتت . لانها هي هي الجالسة أمامها .

لشدة ما كان الشبه شديدا بين الاثنين . الابنة والحفيدة . حتى لقد كانت العجوز تخططيه في بعض الاحيان فتنادى الحفيدة باسم الابنة .

واستمرت السنون في كرها ونضجت الصبية وأصبحت فتاة رائعة الحسن مكتملة الأنوثة . ورحل زوجها الى ربه واكتهل ابراهيم وشاب ، وبدأت هي تشعر باللون والاضمحلال . وهذ المرض قواها فأمست كومة عظام ملقاة في الفراش ، وأخذ يساورها الاحساس بقرب النهاية ، ولم تكن تتعنى شيئا قبل الرحيل أكثر من أن ترى حفيدتها عروسا تزف .

وفي ذات يوم أقبلت الفتاة عليها منهلة الأسارير مفررة الثغر وأنبأتها في حياء مصطنع أنها قد خطبت .

وبعد بضع أسابيع تحققت أمنية العجوز ووقفت أمامها البنية الجميلة تختال في ثوب الزفاف رشيقة أنيقة مشرقة الوجه ممشوقة القد ، ووراءها عريسها يتسم في هناء وغبطة وقد بدأ حلو التقاطيع فارغ القوام ، وأقبلا عليها يقبلان جبينها ويلتقيان نهنتها ودعواتها .

وتم الزواج في هدوء وعاش العروسان في الدار ، ولم تشغل غفت بزوجها عن جدتها بل استمرت في رعايتها لها وعنايتها بها ، وكانت كثيرا ما تقضى الساعات الطويلة في مسامرتها وتسليتها .

ومر العام الأول من الزواج ، وحملت غفت وحان موعد الوضع ، وورقت الطفلة العزيزة الحلوة استعدادا للولادة .

وساور العجوز وقتذاك خوف خفى حاولت جهدها أن تتخلص منه . ولكن المشاعر كانت تضطرب في نفسها مختلطة متناقضة . كانت تذكر

يرغمها ولادة ابنتها والجو الرهيب الذى أحاط بها والخاتمة المخيفة التى انتهت اليها ، وكانت لا تكاد تغفو حتى تصحو من نومها فزعة وهي تتوهم أن الحامل الراقدة هي ابنتها وأن ما يقع الآن ما هو الا تكرار لما حدث من قبل واعادة لنفس المأساة بتفاصيلها ودقائقها .

كان أكثر ما يخيفها هو فرط التشابه بين ما حدث وما يوشك أن يحدث . نفس الظروف ونفس الأمكنة ونفس الوقت ونفس الجو . لا فارق هناك بين الواقعتين الا أنها كانت في الأولى قوة نافعة تستطيع أن تشغل نفسها بالحركة والذهاب والاياب وتستطيع أن تجلس بجوار ابنتها فتمس جبينها بيدها أو تضمها اليها . كانت تستطيع على الأقل أن ترقب رحيل ابنتها وتسمع آخر كلماتها وتودعها الوداع الأخير ، أما الآن ، فمادما تستطيع أن تفعل سوى الرقود كالخرقة البالية ترقب السقف وتسكب الدمع وتهز الرأس في عجز ويأس .

ألا تستطيع حتى أن تراها وأن تودعها قبل الرحيل ؟

انها بالطبع لا تملك لها نفعا . وهي أعجز من أن تقوم لها بأتفه الخدمات . ومن الجنون أن تتخيل أنها تستطيع انقاذها من الموت . فهذه أشياء لا يملك الانسان لها ردا ، الانسان الصحيح القوى ، فما بالكم بانسان مثلها عاجز محطم .

ولكنها فقط تريد أن تراها ، ليتهم يرضون بأن يحملوها الى حجرة غفت .

حقيقة ان الطبيب الذى يعودها أمرها بالألا تتحرك من الفراش ولكن ألا يستطيعون أن يرفعوها بالفراش .

ثم ماذا يخشى عليها الطبيب ؟ ماذا يخشى على مشلوله عاجزة وهن العظم منها ؟ أيخشى عليها من الموت ؟

قائله الله ، ألا يعلم أن فى الموت خلاصها ، وأنها لو ماتت قبل الآن

لوفرت على نفسها مشقة مشاهدة موت حفيدتها .

ولكن لم لا تحاول هي الحركة ؟ ان المسألة تحتاج الى ارادة قوية وعزم

شديد .

أجل ، أجل ، يجب أن تجرب ، ولاشك أنها مستجيب .

ان الله سيعاوننا ، فهي لا تطلب شيئا كثيرا ، انها تريد أن تودع حفيدتها

قبل الرحيل .

وهكذا بدأت العجوز التجربة .

وشينا فشيئا ، أخذت تنزلق من الفراش حتى بلغت حافته ، وفجأة فقدت

توازنها وسقطت على الأرض سقطة شديدة أحست معها أن عظامها قد

تحطمت .

ومرت برهة قصيرة وهي راغبة في مكانها ككومة عظام ، ثم بدأت

تتمالك قواها وتعود الى وعيها ، وأخذت تحبو ببطء على يديها وركبتيها حتى

بلغت باب الحجرة وأخذت تعبر الصالة متجهة الى حجرة المريضة .

وأخيرا ، وبعد جهد شديد بلغت بابها ومدت رأسها في الحجرة أخذت

ترهف السمع وتتطلع بعينيها كأنها كلب جريح .

وأحست بطمأنينة تغعم قلبها عندما بلغ مسامعها صوت أنفاس تتردد ،

لقد كانت تخشى أن تصل متأخرة ، ولكن حمدا لله أنها مازالت حية تتنفس .

واقتربت من الفراش ومدت يدها لتحسس حافته ، ثم أخذت تحاول

النهوض على ساقيها حتى تقف بجوار الفراش .

وأحست بعجز شديد كأن جسدها يشد الى الأرض بأثقال لا قبل لها

برفعها ، وأخذت تنادى حفيدتها الراقدة بصوت ملؤه اللهفة والاستغاثة دون

أن تسمع منها سوى أنفاس تتردد بصعوبة .

واستمرت العجوز في نداءها المبحوح في اصرار والحاح كأنها مصممة
على أن تستعيد عفت من غيبوبتها وأن تسترجعها من الغياهب التي توشك أن
تغيب وراءها .

أجل ، لابد لها أن تودعها قبل الرحيل ، لقد قطعت كل هذه المسافة لكي
تسمع منها كلمة وداع ، فحرام أن تبخل بها عليها .

وتوقفت العجوز برهة عن النداء ثم رفعت وجهها الى أعلى وهتفت :

- يارب ، انى لا أطلب كثيرا ، أعدها لحظة واحدة ثم خذها ثانية .

وفجأة ارتجت عينا المريضة وارتعش جفناها ثم فتحا ببطء وبدت من
خلالها نظرة خابية لاتكاد تميز من حولها شيئا .

وعاودت العجوز نداءها الحار . فإذا بالغشاوة التي قد علت عيني
المريضة تنقشع وإذا بها توجه اليها بصرها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة
باهتة وأجابت بصوت خافت :

- نعم يانينة ؟

- ازيك يا حبيبتي ؟

- بخير يانينة .

- ان شاء الله بخير دائما .

- لم تجلسين على الأرض ؟ انهضى واجلسى بجوارى .

- لا أستطيع ، انى مشلولة عاجزة .

- بل تستطيعين ، سأمد يدي لمعاونتك ، اعتمدى عليها .

- انك مازلت ضعيفة ، كيف يمكنك معاونتى على النهوض ؟

- أنت أيضا كنت عاجزة ؟ ولكنك استطعت أن تستعيدىنى من الأغوار
السحيقة ، والدجاجير المعتمة التي كنت أهوى فيها ، ان القوة فى القلوب وفى

الايمان وفي العزائم وليمت في العضلات أو الأذهان ، امسكى يدي وسأعاونك على النهوض كما عاونتني على العودة ، هيا اعتمدى على .

ومدت العجوز يدها فوضعتها في يد المريضة ثم حاولت النهوض معتمدة عليها .

وفي هذه المرة أحست أن الأثقال قد فكت وأنها أصبحت خفيفة لا يشدها الى الأرض شيء .

وبمنتهى البساطة وجدت نفسها أخيرا واقفة على قدميها بجوار حفيبتها .

ووقف الأطباء في الصباح يقبلون البصر في المرأتين ، الحفيدة وقد هبطت حراراتها وعادت الى الحياة ، والعجوز ، وقد ذهب عنها الشلل بعد طول بأس .

وهز أحد الأطباء رأسه وقلب شفتيه وقال هامما :
- كنت أومن بهذا دائما ، ان السماء مازالت بها أشياء تعجز أذهانتنا عن ادراك كنهها ، ان المعجزات لم تنته بعد .

الرحلة الكبرى

﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ .

« قرآن كريم »

كنت أعرف عنه شدة سخريته بالخرافات وعدم ايمانه بالخوارق والمعجزات ، فقد كان انسانا واقعيا لا يؤمن الا بالواقع والمنطق .

ضمنى واياہ مجلس ذات ليلة وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، فقال

لى :

- كنت أعتقد أن العلم قد هزأ بالسحر وقضى عليه .. فلم يعد هناك ما يمكن أن يخفى على ذهن البشرى ، حتى وقعت لى حادثة جعلتني أهز رأسى حيرة ودهشة .. وجعلت كل معلومات الطب التى حشوت بها رأسى تتضاءل وتتكمش .. وتهاوت تجاربي ، وخبرتي وقدرتي ، وحل محلها ايمان عميق أشبه بايمان العجائز ، بأنه اذا ألقى الطب سلاحه وسلم العقل بالهزيمة ، فذلك لا يمكن أن يعنى اليأس .. لان هناك قوى خفية تستطيع أن تتدخل فى النهاية ، فتقلب اليأس أملا ، وتفعل ما عجز عنه الذهن بطبه وعلاجه وأدويته

وكل ما يملك من قوة مادية قوى وراء المادة ، قوى تكمن فى النفوس أو تشع من الأرواح أو تهبط من السماء أو ..

وتوقف عن الحديث ثم هز رأسه وهو ينظر الى ثم أردف يقول :

- لا تستطيع أن تصدق مثل هذا القول بسهولة .. حسنا .. خير لى أن أقص عليك القصة بحدافيرها .

ثم بدأ يروى قصته العجيبة قائلا :

- كنت أقطن فى مصر الجديدة ، وكانت تجاورنى فى المسكن أرملة تعيش وحيدة مع ابنها الكساح المصاب بشلل الأطفال ، وقد تعودت أن أعوده من آن لآخر عبادة جار صديق ، ولم يكن هناك أمل فى شفائه .. فهو لم يقف على قدميه منذ أن ولد .. ولا أظن أنه كان يمكن أن يقف أو يسير حتى نهاية عمره . وكان هو وأمه يدركان ذلك .. فوطنا نفسيهما على الاستسلام للأمر الواقع ، وأخذنا يقتنعان على مر الأيام بحياتهما معا ، فهيأ فيها ما استطاعا من متعة ، وبات كل منهما قريرا راضيا .. وضرب كلاهما مثلا على أن الحب والاخلاص والشجاعة والايما ن يمكن أن تعين المرء على مواجهة أقصى ظروف الحياة وتحمل شوائدها .

وكان الصبى - ويبلغ السادسة عشرة - مخلوقا هادئا لطيفا شديد الذكاء واسع الخيال .. ولم أكن أشك فى أنه يشعر فى كثير من الأحيان بالوحدة والحرمان .. الحرمان مما يمكن أن يتمتع به كل صبى من انطلاق فى الحياة ولعب مع الرفاق ومرح ولهو .. بل كنت واثقا كذلك ، أنه بعقله الراجح وذهنه المفكر يستطيع أن يحس مدى الحرمان الذى ينتظره فى غده .. الحرمان مما يمكن أن يتمتع به كل رجل من حب وزواج وأولاد .

وقد كان يحاول دائما أن يبني أمامى مرحا سعيدا هائلا ، وأنه لا يأبه إطلاقا لما هو فيه .. ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يكبت بين آونة وأخرى

بضع كلمات تتطلق من فمه لتفصح دخيلة نفسه .

قال لى الصبى وأنا أزوره ذات مرة :

- كان أقصى أمل لى يادكتور أن أصبح رحالة أجوب بقاع الأرض وأستكشف مجاهلها .

ولم أدر كيف أجيبه ، إذ كانت تلك آخر أمنية يجب أن تجول فى نفسه !

ورأيتة يتسم ويهز رأسه ويقول مستدركا :

- أنا أعرف أنها أمنية متعذرة وأن من المستحيل تحقيقها ، ولكنى مع ذلك أستمع على تحقيقها بالوهم . لقد أصبح لى ولع كبير بالخرائط .. أنظر ..

ثم مد يده الى منضدة بجواره عليها مجموعة من الكتب والأوراق ، وسحب ورقة مطوية أخذ فى نشرها أمامه قائلا :

- أنا لا أستطيع السير .. ولكنى أستطيع وأنا راقد فى فراشى أن أذهب حيثما شئت فى غمضة عين أو فى لمح البرق كأنى أمتطى بساط الريح ، لقد بدأت أولى جولاتى فى القاهرة .. أنظر الخريطة .. اتى هنا الآن ، هذه هى مصر الجديدة .

ووضع طرف قلم فى يده على نقطة فى الخريطة ، ثم استرسل يقول :

- هذا هو طريق الخليفة المأمون ، وهذا هو شارع المكتبة المؤدى الى المحطة . لقد كانت أول رحلة لى فى القاهرة الى القلعة .. لقد سرت بعد ذلك الى الأوبرا بالعتبة فشارع محمد على حتى وصلت الى هذه المنطقة .. هذا هو جامع السلطان حسن وعلى الجانب الآخر يقوم جامع الرفاعى .. أنظر ، هذه هى صورتيهما ..

ثم مد يده الى المنضدة فأخرج بضع صور وأردف يقول .

- هذا هو جامع السلطان حسن ، أكبر جامع من نوعه ، بنى فى عهد المماليك وكان يستعمل مدرسة وجامعا .. لقد قرأت عنه فى بعض كتب التاريخ ، لم أمكث به كثيرا ثم عاودت السير فى طريقى صاعدا الى القلعة .. هذه هى صورة جامع محمد على ، ومن فوق القلعة وقفت أطل على القاهرة .. أنظر ، ما هو منظر القاهرة من القلعة .

ثم أخذ يعرض على الصور واحدة واحدة ويرينى طريق عودته وقد رسمه على الخريطة بالقلم الأحمر .

وهكذا بدأ الصبى رحلته الوهمية مسعينا بالخرائط والصور والكتب وسعة الخيال والقدرة العجيبة على العيش فى أحلام اليقظة .. وتعودت بعد ذلك فى كل مرة أزوره ، أن أجلس بجواره ليشرح لى آخر رحلاته التى يقوم بها على بساط الريح ، أو على بساط الوهم وأجنحة الخيال ..

ووقفت الأيام أواصر الصداقة بيننا ، وأصبح الصبى يركن الى وينحنى كل ثقته ولا يخفى عنى شيئا من مشاعره وأحاسيسه .. ولم أشك أنه سعيد برحلته وأنها قد بددت الكثير من الوحشة والسامة التى كانت تكتنفه فى وحدته .

وانتهت رحلاته فى القاهرة وبدأ بعد ذلك جولاته فى مختلف بلدان القطر . يوما فى الاسكندرية ويوما فى الأقصر وآخر فى الفردفة ورابعا فى أسوان .

وتعودت أن أبادله النكات والمزاح . قلت له ذات يوم وقد دخلت عليه فوجدته منهمكا فى فحص إحدى خرائط الواحات :

- كنت على الشاطئ ولا شك ، فقد لوحث الشمس وجهك ! أحذر أن يسلم جلدك .. يوجد نوع من الكرم يغير الجلد .. سأكتب لك اسمه .

- لقد ذهبت الى عيون السخنة ، قرب السويس ، هل ذهبت الى هناك ؟ انها مذهشة ! تصور ماء ساخنا ينبع من باطن الأرض ، وعلى بعد خطوات يترامى البحر أمامك وتقوم الجبال الشاهقة خلفك .. لقد كان منظرا رائعا .. هل تصدق انى لم أشأ الرحيل عن الطريق المرصوف بل فضلت المتق الصحراوي بين الجبال ؟ انى أحب المغامرة .

- ترى أين ستكون رحلتك القادمة ؟
- جولة بين الواحات فى الصحراء الغربية .. هذه منطقة ما زال بها الكثير من المجهل .

- اذن لا تنس أن تأخذنى معك فى إحدى جولاتك فأننى فى حاجة الى تغيير الهواء .

- هذه رحلات تحتاج الى قوة تحمل .. خير لك أن تنتظر حتى أبدأ جولاتى الساحلية .

وفى الزيارة التالية بادرنى بصيحة فرح قائلا :

- هنتنى !

- علام ؟

- أوشكت أن أكتشف واحة جديدة .. لقد ذهبت الى الواحات البحرية كانت رحلة شاقة متعبة وخاصة فى تلك المنطقة المسماة ببحر الرمال .. اسم على مسمى ، فرماله مغرفة خطيرة .. وقد حاولت الذهاب من البحرية الى سيوة ، ان المنفذ الوحيد هو النقب رقم ١٣ .. وهو ممر شديد الوعورة ، ولكن اجتيازه ليس بالأمر المستحيل ، ولقد اجتزته فعلا .. وبدأت سيرى بين الرمال على طريق القوافل القديم المؤدى الى سيوة ، ولكنى توقفت فى هذه البقعة .. أنظر .

ووضع طرف القلم على نقطة بالخريطة المنشورة أمامه ، ثم اردف

يقول :

- هذه النقطة هي تقاطع الطريق السائر شمالا الى المغرة ، انه طريق قديم لم يستعمل منذ مئات السنين .. هل تصدق اننى سرت فيه ؟ لقد كانت مخاطرة ، وخاصة انى أعتقد أن هذه الرمال المرسومة لابد قد انتقلت من محلها . وقد سرت فى الطريق حتى بلغت هذه النقطة .. انها تبدو منخفضة عما حولها .. وأنا واثق انى لو سرت الى اليسار قليلا فلا شك انى سأعثر على آثار ماء ، والا من أين كانت القوافل السائرة تستقى ؟

وهزرت رأسى فى حيرة ، ولم تكن لدى أية فكرة عن القوافل أو الواحات ، وما كان يهمنى قط أن أعرف من أين كانت تستقى ، ولكن لم أجد بدا من الموافقة قائلا :

- أجل ، لابد أن يكون هناك ماء كما تقول ، والا كان من أين يستقى ؟ هذا اكتشاف لو تم فانك تستحق أن تخلد به اسمك ، تهاننى الحارة ! ..

ومدبت يدي أشد بها على يده ، وبدت عليه أبلغ آيات السرور والفرح .

ولست أنكر كم مر على هذا الحادث ، ولكن أغلب الظن أنه لم يمض أكثر من أسبوع عندما سمعت طرقات على الباب ، وانطبيب كما تعرف عرضة لهذه الطرقات الطارئة فى أى وقت ، فهى تعنى دائما أحد أمرين : حياة نجل ، أو حياة ترحل ، انسان فى الطريق الى الدنيا أو آخر فى الطريق الى الآخرة .

وفتحت الباب فى عجلة فوجدت الطارق أم الصبى وقد بدا عليها اضطراب شديد وأمسكت بذراعى فى لهفة شديدة ثم أخذت تجذبني الى الخارج لاهثة :

- أرجوك يادكتور ، أعثنى .

- ماذا حدث ؟ ماذا جرى له ؟ حادثة ؟ هل فعل بنفسه شيئا ؟

- لا أعرف انه ملقى فى فراشه كالخرقة البالية وقد احتقن وجهه وأخذ العرق يتصبب منه .

وسرعان ما ارتديت ملابسى وعدوت وراءها وأنا أسألها فى دهش شديد :

- لا أستطيع أن أفهم ، اشرحى لى ما حدث .

- لقد كان على أن أترك الدار برهة لقضاء بعض الضروريات وغادرته فى مكانه بين خرائطه وكتبه قريرا هائفا صحيحا معافى ، وانى لاكره أن أتركه وحيدا ، ولكن لابد لى من أن لآخر من الخروج لشراء بعض اللوازم أو لكى أصرف المعاش فى أول كل شهر ، وقد تركت له قبل أن أخرج ، ترمساً ، مليئا بالشاي وعلبة من الشيكولاته وأخرى من البسكويت ، وعندما عدت ..

ثم اندفعت تنشج باكبة ، وضاعت كلماتها وسط زوبعة البكاء التى عصفت بها ، وأخذت أهنئها قائلاً .

- أرجوك أن تهنى ، خبرينى ماذا وجدت عندما عدت ؟ ان أقوالك ستساعدنى كثيرا .

وتماثلت المرأة بعض الشيء وعادت تقول فى صوت متهدج :

- عندما عدت ، ذهبت اليه رأساً فوجدته قد استلقى على ظهره كما تعود أن يفعل دائما عندما يرغب فى أن يستريح ، ولكن الذى استرعى انتباهى أمر غريب ، لقد وجدت علبتى الشيكولاته والبسكويت - وهما علبتان كبيرتان لم يؤخذ منهما شيء من قبل فارغتين ، ولم أجد بالترمس المليء بالشاي فطرة واحدة . لقد أتى عليهما جميعا ، وهو الذى لم يتعود أن يتناول أكثر من بضع قطع من البسكويت أو الشيكولاته تعد على الأصابع مع فنجان من الشاي ،

ووجدت كذلك أن بضعة ساندويتشات (كانت موضوعة على المنضدة) قد اختفت ، وتملكنى العجب وصحت به فى دهشة :

- كيف أكلت كل هذا ؟ لقد أصبحت غولا فجأة .

ولكنه لم يجب ، وأخذت أقترب من الفراش وقد ظننت أنه مستغرق فى النوم ونظرت إليه .

ومرة أخرى اندفعت فى بكاء عنيف ، وأخذ جسدها يهتز من قمة رأسها الى أخمص قدميها حتى بت أخشى أن يكون الصبى قد مات .

وبلغنا دارها ودلفت من الباب وسمعتها تهمس فى صوت مبجوح :
- لقد رأيت وجهه أحمر ملتها ، كأنما قد سار فى الشمس بضع ساعات .

غير معقول ، ان الصبى لا يمكنه السير فى الشمس ، ولا يمكن كذلك أن تكون الشمس قد أصابته من خلال النافذة . فقد كان اليوم كثير السحب لا تكاد الشمس تظهر من خلف سحابة الا لتتوارى وراء أخرى . وأجبت المرأة فى صوت خافت :

- مستحيل ، انى له بالشمس لابد أن تكحونى واهمة .

- كلا ، أنا واثقة مما أقوله .

لأبأس ، سأفحصه الآن ، وأرجو أن تطمأنى ، فالمسألة لا يمكن أن تكون أكثر من انفلونزا بسيطة .

ورأيت الصبى ، وكانت أمه على حق .

هل تدرون ماذا يحدث للانسان عندما يتعرض مرة واحدة للشمس ويستمر معرضا لها مدة طويلة هل تدرون ما يحدث لجلودنا عادة فى البلاج من احمرار شديد والتهاب حتى تبدو كأنها محروقة .

لقد كان وجه الصبى ويدا وكل ما تعرض من جسده قد أصيب بضربة شمس شديدة خطرة .

ترى كيف يصاب مثله « بلطشة شمس » .

ولم أجسر على اظهار دهشتى أمام الأم حتى لا أزيد فى فجيعتها وكان على أن أقول شيئا على سبيل الخداع وبعث الطمأنينة فقلت :

- المسألة بسيطة جدا ، هذه حالة طارئة سرعان ما تزول ، وهى كثيرا ما تحدث نتيجة لنقلبات الجو .

وكان هذا القول هو ما استطاع ذهنى أن يدبره فى ذلك الوقت الحرج .
وأخذت أعالج الصبى وأجرى له الاسعافات اللازمة على اعتبار أنها « لطشة » شمس عنيفة . فقد كنت واثقا من أعراضها ، وان كنت واثقا كذلك من أن الصبى لا يمكن أن يصاب بضربة شمس لأن الشمس ليس لها سبيل إليه ، وليس له كذلك سبيل إليها .

ولم يفق الصبى من اغماؤه فى ذلك اليوم ، ولكنه فى اليوم التالى تحسنت حاله ، وزالت الخطورة التى كانت تهدده ، وبدأ يتكلم :

وكان أول ما قاله هو أن قص على القصة بحذافيرها بمجرد أن أصبحنا على حدة .

فقال الصبى :

- لم أستطع أن أخبر أمى فىى لن تصدق ، ولكنك تعلم كل شيء وتستطيع أن تفهمنى جيدا .

ومد يده الى المنضدة فجذب الخرائط ثم أمسك بالقلم وأخذ يحركه عليها برهة حتى وصل الى نقطة بها ، فثبت حرف القلم عليها وقال :

- هنا ، كنت أعلم أنهما هنا في هذه البقعة ، هل سمعت عن الرحالتين اللذين أعلنت الصحف عن فقدهما منذ بضعة أيام لقد كنت أقرأ أخبارهما أولاً بأول ، وكنت أتتبع رحلتهم في الصحراء على الخريطة ، ولا يمكنك أن تتصور الانزعاج الذي أصابني عندما قرأت أنهما ضلّا طريقهما في الصحراء وأنهما قد باتا في عداد المفقودين ..

وهزرت رأسي ثم أمنت على حديث قائلاً :

- أجل ، كان خبراً مزعجاً حقاً ، ولقد أسفنا كلنا لهما .

ورد على الصبي في حدة قائلاً :

لم يكن ما أصابني مجرد أسف ، لقد كنت أحس أن مصابهما مصابي ، فهما زميلاي ، لقد روعني فقدهما وأحسست أن من الجبن أن أتركهما كذلك يترديان في هاوية الموت دون أن أحاول أن أمد اليهما يد المساعدة ، وعلى ذلك فقد صممت على أن ..

وتردد برهة ، وكان على أن أجاريه في كل ما يقول ، فقلت أستحثه : استمر ، لقد كان هذا التفكير منك دليلاً على المروءة والشجاعة .

- أجل ، صممت على انقادهما ، فلم تكذب أمي تغادر الدار حتى أمسكت الخريطة وأخذت أفحصها جيداً ، ثم عقدت النية على ألا أعود حتى أبغلهما .

- مدهش .

- لقد كنت دائماً ياميدى أشعر بالعجز وأنا جالس هنا في مكاني ، وكان أكثر ما يحز في نفسي شعوري أنني إنسان بلا فائدة ، وعلى ذلك فقد تملكنتي النشوة عندما أحسست أنني أوشك أن أفعل شيئاً وإن أكون إنساناً ذا فائدة ، وأخذت أحرم علبتي الشيكولاتة والبسكويت والساندويتش والتمر ، وهو كل ما أمكن أن تصل إليه يدي . وما أمكنني كذلك أن أحمله في هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، وبدأت الرحلة ، متتبعا الطريق بقلمى في تأن وتؤدة خشية أن أضل

الطريق أنا الآخر ، فلا أستطيع أن أمد لهما يد المعونة وأخذت في السير ، رويداً رويداً .. بدأت أحس لسعة الشمس ، ووحشة الطريق ، ومع ذلك فلم يكن بي أثر الخوف أو رهبة ، فقد كنت أحس أنني مخلوق على قيد الحياة وأنتى رجل .

- لقد كنت دائماً مخلوقاً شجاعاً وكنت رجلاً على الدوام .

- أجل ، كنت أحاول أن أبدو كذلك ، ولكنك لم تكن تراني وأنا أرقد في الليل وحيداً ، أسكب الدمع في صمت على الوسادة ، فقد كنت أحس أنني رمة بالية ، أما بالأمس ، فقد كنت مخلوقاً آخر ، كنت كتلة أعصاب حية متحفزة مثوثة ، كنت أريد أن أصل إلى الزميلين الضالين وأنقذ حياتهما ، فلم يوقفتني حر شمس ولا عصف ريح .

وأقول الحق أنني لم أكن أعرف كيف أحلّ حالة الصبي . لقد كان مخلصاً في قوله كل الأخلاص ولقد رأيت بنفسى آثار الشمس على وجهه وجسده ، ومع ذلك فلم أحاول أن أتخلى عن منطق العلم ولم أدع لنفسى فرصة الاعتقاد بأشياء فوق طاقة الذهن البشري ، ووجدتني أتمسك ببيني وبين نفسي ببعض اصطلاحات علم النفس وأرجح حالة الصبي إلى احدهما

أجل . أن الامر لا يعنو أن يكون إحدى الحالتين : إما الإيحاء الذاتي ، أو التنويم النفسى .

هذا ما قلته لنفسى ، أما الطفل فقد قلت له مبدئياً تصديق كل ما قاله :

- وهل وصلت اليهما ؟

فاطرق برأسه وأجاب :

- أجل ، بعد أن كدت أياأس من الوصول وبعد أن أنهكتني السير وأحرقت الشمس وجهي وذراعي . ولقد وصلت في اللحظة الأخيرة إذ وجدتتهما في الرميح الأخير ، وكذلك كنت . ولا أستطيع أن أنكر ما حدث بعد ذلك ..

وصمت صاحبي الطبيب لحظة ، ثم أردف قائلا :

- هذا هو ما حدث للصبي .

وأجبت في دهشة شديدة :

- عجباً ! انه أمر خارق !

- لم يكن هذا وحده هو الشيء الخارق ، فقد أنقذ الرحالتين كما تعلم

مما نشرته الصحف ، إذ أرسلت حملة تفتيش للبحث عنهما ، وقد نجحت في العثور عليهما ووجدتهما في حالة اعياء بالغ وقد استلقيا في حالة أقرب الى الموت . وعندما تكلم أحدهما كان أول ما قاله لمن حوله : « أين الصبي الصغير ؟ » ودهش الجميع وسألوه عما يعنى ، فأجاب بأنهم لم يكونوا أول من أتى اليهما ، فقد سبقهم في الوصول الى مكانهما صبي يحمل علبتين من الشيكولاتة والبسكويت وبضعة سندويشات وقرمس مليء بالشاي ، ولقد وجدتهما على وشك الهلاك فأعطاهما ما يحمل ثم اختفى ، ولولا ما حمله اليهما لما استطاعا العيش حتى هذه اللحظة .

- مدهش .. انه حقا أمر خارق ، انها معجزة !

- بقي أمر خارق آخر .. أو معجزة ثالثة .. لقد بدأت أرقب الصبي

جيدا خشية أن يتكرر ما حدث له ، أتذكر أني قلت لك انه لم يكن هناك أمل قط في أن يقف على قدميه . هذه مسألة لا تحتاج الى مناقشة ، فقد سلم الطب بعجزه فيها ، وكان شفاؤها مستحيلا الا بمعجزة من السماء ، أو بقوة خارقة . القوة التي قلت لك انها تكمن وراء الماديات . حسنا . لقد حدثت المعجزة ، وشفى الصبي ، فان اطرافه بدأت تتماسك بعد تلك الحادثة . كما سررت الحياة في أعضائه المسترخية رويدا رويدا ، وأخذت تقوى وتشد وبدأ الصبي يسير في حجرته ثم أخذ ينزله في الحديقة كأى سليم معافى .

عجباً ! كيف يمكن أن يحدث مثل هذا ؟ لو سمعته من انسان آخر غير

صاحبي لقلت حديث خرافة وقول هراء ! أما منه فلا أظن هناك شك في صحته .

وأخذت القصة تنور في ذهني . حتى وجدتنى أسأله فجأة على سبيل الاستطلاع :

- وماذا فعل الصبي بعد ذلك ؟ هل أصبح رحالة كما كان يود أن يكون ؟ هل قام بالرحلات التي كان يقوم بها على بساط الريح ؟

- رحلة واحدة فقط . كانت الأولى والأخيرة ، لقد ذهب ليركب المترو في أول مرة غادر فيها الدار ، فزلت قدمه وهوى تحت العجلات ، وذهب في رحلة طويلة لم يعد منها حتى الآن !

لقد كانت تلك هي رحلته الكبرى . في غمضة عين صعد الى السماء . بلا خريطة ولا قلم ولا بساط ريح .

عُرْوَةُ الشَّائِدِ

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾
« قرآن كريم »

أنا يا أخى غريب بينكم ، غريب عن دارى ، غريب عن وطنى .
كم نقت إلى العودة اليكم ، وكم هفت نفسى إلى جلمة بينكم .
كم حننت إلى الدور المضيئة ، والطرقات الصاخبة ، والحوانيت
المزحمة ، والعربات والمركبات ، والملاهى والمسارح .
كم نقت إلى أضواء المدينة ، وضجيجها وعجيبها .
بين رائحة البارود ، وذرات الغبار المثار ، كان أنفى يتلهف على رائحة
بتضوع عبيرها ويفوح . وبين حلقة الخنادق . وصفرة الرمال ، كانت عيني
نهفو إلى لون يزهو أو نور يضىء .
كانت بنا لهفة اذ نخوض المواقع على الأهل والأوطان ، وكان الحنين
يعاودنا بين الفنية والفنية ، يخبو بين جوانحنا برهة ثم يتأجج ، يخمد دوى
المدافع ، وزئير المعركة ، فإذا ما هداً الدوى وخفت الزئير استيقظ الشوق فى
الحنايا ، واستعر الحنين .

وسمحت الظروف بفترة راحة وحملتني الطائرة اليكم في أجازة قصيرة . وكنت أحس من فرط الشوق أن الطائرة تتلأأ في الجو وتتسكع بين السحب ، ووددت لو استطعت أن أضاعف سرعتها .

وأخيرا لاحت لى القاهرة من الجو ، وبنت لى المزارع القائمة على أطرافها منتظمة منمقة كأنها مرسومة بالمسطرة . والدور والطرق والعريبات كأنها لعب الأطفال .

كانت المرة الأولى التى أعود فيها منذ بدأت الحرب وكان بى احساس نهم يجلس الى مائدة حافلة ، فهو فى حيرة بين أنواع الصحاف الشهية . وكانت المدينة تبدو من حولى وكأن غيبتى عنها لم تكن شهورا معدودة ، بل أعواما . ومضى يوم ، ثم يومان وأنا بينكم فى نشوة الغريب العائد . ثم تبدل الحال فجأة فإذا بى قد أضحيبت وأنا بينكم غريبا من جديد !

لقد نقصت الهدنة وبدأ اليهود هجومهم الغادر متسللين الى خطوطنا ، وحاولوا قطع مواصلتنا . واستمر أوار المعركة من جديد . كيف يغمض لى جفن أو يهدأ لى مضجع وأنا بعيد عن جنودى وهم يقاتلون فى الميدان ؟ صدقتى يا أخى . لقد نسيت أضواءكم ، وعطوركم ، وضجيجكم ونسيت شوقى اليكم وحنينى لكم . وبنت أتوق الى رائحة البارود وحلقة الخنادق وصفرة الرمال .

بى حنين الى القتال والنوى والضرب . بى رغبة جارفة فى أن أشارك جنودى استبسالهم فى الهجوم ، وصلابتهم فى الدفاع . ان دراهم دارى ، ومضجعهم مضجعى . أنا يا أخى غريب بينكم ، فأهلى هناك فى حومة الوغى رابضين كالأسود أو واثبين كالغهود !

أى جنودى الأعزاء : انى قادم اليكم !

وهكذا مرة أخرى عادت بى الطائرة .. وبى نفس اللهفة ونفس الشوق بل أشد كثيرا .

كنت أريد أن أستبق الزمن . كنت أريد أن أصل اليكم واتخذ مكانى بينهم وأشد أزرهم وأعينهم فى قتالهم .

وهبطت الطائرة بنا ، وسارت العربى تحملنى الى مقر كنيينى فى المواقع الأمامية ، وأنا أستحث السائق لكى نصل فى أقصر وقت مستطاع .

وأسرع السائق جهده ، ولكننا مع ذلك لم نصل !

ان القدر فوق الجهد ، ولقد أبى علينا إلا أن نقف فى منتصف الطريق ، بعد أن علمنا أن الطريق الى الكتيبة قد قطع ، وأنها قد حوصرت مع بقية قوات الفالوجة وعراق المنشية .

وعدت أنراجى كسير النفس ، مهموم القلب ، واستقر بى المقام فى مقر الرئاسة ، وبدأت تتواتر علينا أنباء القوات المحاصرة ، فتثير فى نفوسنا حماسا واطمئنانا ونشوة ، وأدركت أن نسور الطير لا خوف عليها من بغائه !

كانت الروح المعنوية لجنودنا هناك فى الذروة حتى لقد أحسست بالدمع يترقرق فى عيني تأثيرا بعزمهم الحديدى واستبسالهم فى القتال والاحتفاظ بمواقعهم سليمة ، رغم توالى الهجمات عليهم من الأعداء ...

وكرهت لنفسى أن أبقي بعيدا عنهم وأن تحرمنى الظروف من مشاركة جنودى خوض غمار معاركهم .

ومرت الأيام .. وفى كل يوم يقوى العزم ويشد الايمان .. وتزداد بى اللهفة الى العودة الى مركز الأبطال ومأوى الصناديد .

كنت كالتائه الضال ، المنفى عن موطنه وأهله وخلانه . ولم يكن هناك

من وسيلة للعودة . حتى دعت الحاجة ذات يوم الى اتصالنا المباشر بهم واستقر رأى القيادة على أن يقوم بهذه المهمة ضابطان منا يخترقان نطاق الحصار ويصلان الى القوات الباسلة المستمينة في الدفاع .

ولم تكن المهمة بالسهلة الهينة ، بل كانت مجازفة خطيرة . وسئل الضباط : من منهم يريد التطوع للقيام بها ، فتطوعوا جميعا . فاضطر القائد الى أن يجرى قرعة بينهم لاختيار اثنين منهم .

وتظرت الى القائد قبل أن يبدأ الاقتراع وقلت له فى اصرار :

- لن اشترك فى الاقتراع .

ورفع حاجبيه فى دهشة وتساءل :

- ألا تريد الذهاب ؟

- بل أريد ، ولن ، أشترك فى الاقتراع .. لأنى لا أطيق أن أحرّم من الذهاب . لقد كان يجب أن أكون معهم لولا تلك الاجازة المنحوسة التى أبعدتني عنهم . انى أشعر بأنى غريب بينكم ، فذهابى اليهم لن يكون سوى عودة غريب الى نويه !

ونظر القائد الى من حوله مستشيرا ، ولكنى أردفت مؤكدا قبل أن ينبس أحدهم ببنت شفة :

- سيدى ، انى أريد الذهاب .

وضحك القائد ثم أجرى الاقتراع لاختيار ضابط يتولى القيام بتلك المهمة .

★ ★ ★

سكون سائد وصمت عميق ، وليل كموج البحر أرخى سدوله ، وسماء ترتجف فيها النجوم وجلة خائفة ، وصحراء امتدت فيها الربى والوهاد ، وبدأ

كل ما فيها قفرا فى قفر .. لا تسمع فيها لاغية ، ولا يمرى فيها من علامات الحياة الا بضعة أشباح تطوى الفلاة كأنها الذئاب .

كنت وصاحبى قد تسللنا من المعسكر تحت ستر الظلام وسرنا مطرقين . صامتين . تتبعنا دابتان تحملان الذخائر والمؤن وتطرقان الحصى بجوارها .

كنت فرحا بالعودة الى رفاقى ولكنها كانت فرحة كبنتها رهبة الليل والقفر والخطر المجهول الذى يمكن وراء كل ربوة ومن كل صوت وفى كل شبح .

كنت أدرك تماما المصير الذى سنتردى فيه لو وقعنا فى يد العدو .

وطال بنا السير ، وبدأ صقيع الليل ينفذ الى عظامنا ، وتوترت أعصابنا من طول الارهاق والانصات ، كنا نقوهم فى كل عشب كميننا ، ونختل خلف كل ربوة تلة من العدو تتأهب للانقضاض علينا . وكنا نبصر فى الأفق المظلم أشباحا تروح وتغدو .

وتبادلنا بضع كلمات نقطع بها ذلك الصمت الطويل وننفض بها عن أنفسنا تلك الرهبة الجاثمة .

ولكن الكلمات خرجت من فمينا ثقيلة فائرة ، فيدها السكون المحيط قبل أن تبدد هي السكون ! وسرعان ما غرقنا فى الصمت مرة أخرى . وفجأة مزق السكون صوت رصاصة تدوى وتتر . وأعقبها صيحة أنتت من قمة على بعد متسائلة .. ثم عاد السكون فطوى الدوى وأخمد الصياح .

وانطرحت وصاحبى أرضا مصوبين مدفعى التومى الى مصدر الصوت وكتمنا أنفاسنا منتظرين .

ولم تمض لحظة حتى عادت صيحة العدو تشق السكون مرة أخرى ..

ثم أعقبها بعد ذلك وأبل من الرصاص تناثر حولنا .

ولم نجد بدأ من أن نجابوب الطلقات للدفاع عن أنفسنا وأخذنا نرحف حتى وصلنا الى ثنية قريبة أخفينا الدابتين وراءها وأخذنا نطلق النيران من وراء حافتها .

واستمرت الطلقات تدوى وتتر ، تصوب في حلقة الليل من مجهول الى مجهول . ثم سمعنا صرخة تحملها الريح انينا خافئة مكتومة ، وسكت أحد المدافع التي كانت تصلينا بنيرانها .

ولم تمض فترة قصيرة .. حتى سقطت قذيفة على مقربة منى ، وأحسست بقلبي ينعصر فى جوفى ، وبأصابعى تجمد على مقبض المدفع .

لقد استشهد زميلى الوحيد !

وسرت فى جسدى رعدة وأنا أرى رأسه تنهوى على الرمال على أتى ما لبثت بحركة غير ارادية أن مددت يدي اليسرى فقبضت على مدفعه .. وعادوت اطلاقه ، حتى لا يدرك العدو أنه أصابنا بأية خسارة .

ووجدت ذهنى يفكر فى سرعة ماذا يحدث لو أصبت أنا الآخر ؟ ماذا أبغى من استمرارى فى القتال بعد أن أصيب صاحبى ؟

ان مهمتنا ليست الاشتباك مع العدو ، ولكن مهمتنا الاولى هى أن نصل الى قواتنا . ورفعت يدي عن مدفع صاحبى ومضيت أطلق مدفعى برهة . ثم صحت فجأة صيحة مدوية .. كأنما قد أصابتنى احدى طلقات العدو ، وكففت عن اطلاق النار .

ومضت فترة من الوقت .. ورصاص العدو يدوى من حولى نون أن يجد ما يجاوبه .. فاعتقد أنه قد قضى علينا وكف عن الضرب .

وكان أول ما فعلته أن فحصت صاحبى ، فوجدت الدماء تنزف من

جرح فى كتفه .. ولكن أنفاسه مازالت تتردد خافئة متقطعة .. لقد كان على قيد الحياة .

وسحبته جسده ببطء وسكون ، وأخذت أرحف به حتى تواريها وراء كومة من الأعشاب .. وانتظرت فترة أخرى حتى آمن شر العدو ثم رفعت جسده فوضعت على ظهر احدى الدواب وبدأت السير فى حذر ، حتى ابتعدت عن المنطقة التى حدث فيها القتال .

وهكذا عاودت السير وصاحبى الجريح ملقى على ظهر الدابة منهك القوى فاقد الوعي ، حتى وصلت أخيرا الى موافعنا ، وصلت وحدى ، فلم يبق من صاحبى الا حثة هامة .

ولم يكن بى وقتذاك من الأحاسيس ، سوى احساس واحد . لقد تبند من قلبي الفرج ، وتبددت الرهبة ، وكبت الحزن على صاحبى ، ولم يعد يصطخب فى نفسى سوى الرغبة فى الثأر !

كان جوفى يغل بالغضب ، وكنت أود أن أنطلق بين الأعداء فلا أتركهم سوى أشلاء مهشمة .

وتلقانى صوت حبيب الى نفسى يهتف بى :

قف ، من أنت ؟ .

وناديت الحارس باسمه ، وكررت له اسمى ، فهتف مرحبا فى دهشة وذهول ، وسألنى التقدم .

وأنزلت بينهم جثة صاحبى لأوسدها الثرى ورأيت وجهه تشبع فيه علامات الرضا والهدوء ، وأحسست أنى فعلت من أجله شيئا ، انه يستطيع أن يرقد بيننا ، وأن يوسد مثواه الأخير بأيدينا .

ووقفت بين رجالى وقد أحسست بالطمأنينة والأمن ، وشعرت بالثقة

ملاء نفسي ، وكأني قد ملكت أقوى أسلحة العالم وأشدّها فتكا .

وشاع بين الرجال نبأ مجيئي فسرت فيهم موجة فرح ، وكان الوقت حينئذ قبيل الفجر . وتوجهت الى رئاسة الكتيبة لأبلغ قائدها نبأ مجيئي ، ولأنّلقى منه التعليمات .

ووصلت اليه وقد انتهى من صلاة الفجر ، فتلقاني بترحيب تشوبه الدهشة واللهفة والشوق ، ورويت له ما حدث .. فأمرني بأن أذهب لأخذ نصيبي من النوم والراحة .

وغادرت القائد متجها الى مقر سريتي ، ولكنني لم أكد أقدم خطوة حتى سمعت دويّا شديداً وانهاال على مواقعنا سيل من قذائف الهاون المدفعية . ان العدو لا شك قد نوى هجوماً . وهو يمهّد له بقذائفه .

وتسمرت في مكاني برهة ، ثم وجدّنتي أضغط على أضراسي في غيظ شديد ، ثم عدوت الى موقع سريتي .

لا ضرورة الآن للنوم أو الراحة .

واتخذت موقعي بين الرجال في أحد الخنادق ، واستمرت القذائف تنهال من حولنا ، وأحسست في نفسي برغبة وحشية في القتال . تلك هي فرصة الثأر لصاحبي الذي لم يهدأ بعد في مرقده .

وأخذنا ننتظر . وأنا أدعو الله أن يكون العدو ينوي الهجوم فعلا ، وألا تكون قذائفه لمحض الازعاج .

وفجأة أحسست بفرحة شديدة تسري في جوانحي .
حمدا لله ، لقد بدأ الهجوم !

وكان أول ما فعلت . أن أعطيت أمرا للجنود ألا يطلق أحدهم طلقة

واحدة مهما اقترب العدو منهم . حتى أمرهم بذلك .

ثم بدأت أرقب وأنتظر .. أخذ العدو يقترب ، وجنوده يتسللون الى مانع الأسلاك الشائكة المحيط بمواقعنا . ثم أخذوا يعملون في أحداث ثغرة به لكي يتقدّوا من خلاله .

وأتم العدو فتح الثغرة وجنودنا رابضون في مواقعهم لا يتبدون منهم أقل حركة . وساد الرعب السكون كأنها خاوية على عروشها حتى خيل لي أنني أكاد أسمع صوت أنفاسهم .

وازدادت أعصابي توترا ، ووجدتني أقرأ الفاتحة وأدعو الله أن يلهم جنودي الصبر والثبات ، فقد كنت أعلم أن المسألة لم تكن هينة . بل تحتاج الى أعصاب من حديد ، اذ من العسير على الجندي أن يرى عدوه قد أضحي منه على مرمى حجر دون أن يحرك ساكنا وظهّرت دبابات العدو الثقيلة تتبّعها موجات من المشاة ، وأخذوا في الاقتراب من الثغرة ونحن جائمون في صمت عميق .

ولست أشك في أن العدو قد تملكته النشوة ، وظن أنه أخذنا على غرة واجتازت القوات الهاجمة الثغرة وأخذت في التدفق نحو مواقعنا محاولة تطويقنا والوصول الى الطريق الواقع خلفنا .

وزاد اقترابهم منا شيئا فشيئا . وأحسست أن أعصاب الأسود الرابضة تزداد توترا وأنهم ينظرون الى في قلق ، كأنما خشوا أن أكون قد نسيتهم ونسيت المعركة !

وأخيرا أضحت المسافة بيننا لا تزيد على خمسة وعشرين ياردة وقد تعرض لنا العدو بجانيبه وهو يحاول الالتفاف حولنا .

وهنا أصدرت الأمر بالضرب . وأخذت أرقب المعركة في هدوء .

نور منار

« وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله
يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى
الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف
يرضى » .
« قرآن كريم »

تعالى معى تتبع أحمد أفندى الصراف الى مقر عمله . لقد تناول الرجل
افطاره من بيضتين مقليتين وقطعة جبن وألقى تحية الصباح على أم أحمد
الخادمة ثم هبط بضع الدرجات التى تفصل طابقه عن أرض الطريق ، وتعمل
برهة أمام بائع الجرائد حتى ناوله الأهرام ثم حث الخطأ فى طريقه الى
المكتب .

ان المسافة بين البيت والمكتب قصيرة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق
سيراً على الأقدام ، كان البيت فى شارع والى كوبرى القبة ، وقد دلف أحمد
أفندى منه الى شارع ابن سندروسار بحذاء سور المترو حتى وصل الى
المثلث الصغير الذى تلتقى فيه الشوارع المنضوية الى القبة وكوبرى القبة
والخليفة المأمون وعبر أحمد أفندى الجزيرة وسط الميدان واتجه فى شارع

الله لا شماته ، ولو انى كنت وقتذاك نموذجاً للشماته .

ان الثأر لذيد ، ولا سيما اذا كان موجهاً الى من يستحق الثأر الى خائن
لثيم غدار ! انطلقت النيران منهالة كالغيث مندفعة كالسيل . تحصد العدو
حصداً ، ولم يكن الجنود فى حاجة الى نصويب فقد كانت أجساد العدو أمامهم ،
لا يمكن أن نخطئها الطلقات !

وتساقطت الجثث مكسبة بعضها فوق بعض ، فى حين دوت طلقات
المدافع المضادة للدبابات فكانت كل طلقة منها تسقط دبابة .

وتوالى موجات العدو . وهى تتكسر على مواقعنا كما تتكسر موجات
البحر على الشاطئ . فتصير الى العدم .

وأخيراً ارتكوا على أعقابهم مهزومين بعد أن فرشوا الأرض بجثثهم ،
وهم الذين لا يتركون وراءهم فتيلاً الا حملوه معهم ..

ولكن أنى لهم الوقت لكى يحملوا تلك الأجداث من القتلى ..

وساد الهدوء مرة أخرى ، ولكنه لم يطل فقد أعاد العدو الكرة . رغبة
منه فى مفاجأتنا لاعتقاده أننا قد أخذنا الى الراحة بعد المعركة ، ولكننا أذفناه
من الكأس نفسها !

★ ★ ★

وانتهت المعركة أخيراً وأحسست أن التعب قد أخذ منى مأخذه ، ولكنى
علمت أنه مازال على واجب يجب أن أؤديه قبل ان أستريح .

كان على أن أشبع صاحبى الراحل ، ثم أواريه التراب .

وذهبت الى الجسد المسجى . وأعجبا . لقد زاد وجهه هدوءاً وغيطة ،
وزابت علامات البهجة والرضا .. وأحسست وأنا أراه يثوى فى مقره أنه لا يدفن
فى الأرض بل يوضع على هام السحب .

سكة حديد السويس وبعد هنية توقف أمام باب يتوسط سوراً ضخماً كتب عليه
وزارة الأوقاف - تفتيش القبة .

لندع أحمد أفندى يحيى الخفير الواقف على الباب ثم يصعد إلى مكتبه
ولنتريت برهة لنجول حول البناء جولة عابرة .

عجيب هذا المكان ، إذ لا تكاد تبدو عليه سيماء المكاتب . فهو سراى
عتيقة ، أُنشئ عليها الذى أُنشئ على ليد ، أول ما يضالنا فيها سورها الحجرى
المرتفع وبابها الخشبي الضخم ، فإذا جاوزناه وجدنا الحديقة الواسعة جرداء
مهملة متربة مشعثة قد بذل فيها جهد ضائع لتشييدها وسقيها ورسم بعض
أحواض الزهور المتناثرة فيها ، ولكن الجهد قد أضال من أن يصل إلى
أطرافها الثابتة ويكشف غمة مجاهلها ويذيب عنها أكوام الأتربة والقمامة
المتراكمة غير أن الأشجار العتيقة القائمة هنا وهناك من نخيل وجازورينا
واستراكوليا والنافورة الحجرية المحطمة تعطى الدليل القاطع على الحديقة
كانت فيما مضى غناء فيحاء .

لنترك السلامك على يميننا فلا أظن سلمه بمفض إلا إلى حجرتين
عائيتين كانتا فيما مضى تستعملان للضيوف ولا شك أنهما يستعملان الآن
كحجرات للموظفين ، ولنتقدم إلى البناء الأصلي فتصعد درجة الرخامي
المستدير ذى الفرعين حتى نصل إلى الشرفة القائمة في صدر البناء والتي
تؤدي إلى صالة الدور الأول القائم فوق البندوم .

السقف عال ملئ بالزخارف والنقوش . والأبواب تعلوها شراعات
زجاجية كبيرة المساحة ، تشعر الناظر إليها بالكارثة التي يمكن أن تحل إذا
ما كسرت إحداها ، والواقف في الصالة لا يملك إلا أن يتساءل عن طول قامة
أهل الجيل الماضى ، وهل كانوا يسرون فرادى أما كانوا لا يسرون الا وقد
حمل أحدهم الآخر على كتفيه ، والا فعلام كان كل هذا الارتفاع في الأسقف .

فإذا عبرنا الصالة تاركين الحجرات التي على الأجناب مشغولة
بأصحابها من مأمور ووكيل وغيرهما واتجهنا إلى الباب المواجه لنا والمؤدي
إلى السلم الداخلى للبناء لم يصعب علينا بعد ذلك أن نعثر على حجرة أحمد
أفندى الصراف .

إنها الحجرة التي على اليسار في الطرفة القائمة على السلم الداخلى أو
بطريقة أوضح . دورة المياه في سالف الزمن عندما كانت السراى فى أوج
مجدها .

لنتقدم الحجرة ، أو دورة المياه السابقة ، لانتأفوا فالمكان نظيف
جاف ، لا مياه ولا روائح كريهة ، فقد كف عن استعماله منذ زمن ، والمكان
فى حد ذاته مكان ذو فخامة سابقة ومجد قديم .

أليكم فكرة عن حمامات البيوت القديمة . باب أول . وباب ثان هنا باب
أول يؤدي إلى حجرة مظلمة صغيرة ملاصقة للحمام الأصلي وتعمل فى
الراحة والاستجمام والهدوء بعد الحمام وقبل الخروج إلى الهواء الطلق ، أنها
الآن فارغة خاوية لا إيوان بها ولا أرائك غير صندوق خشبي عتيق مغلق ،
أغلب الظن أنه يحوى دوسيهات قديمة وأوراق بالية . ويصل الحجرة بالحمام
باب ونافذة صغيرة فإذا كنت تنوى التصرف وقفت أمام النافذة حيث يطل عليك
وجه أحمد أفندى وهو جالس فى الحمام أمام الخزانة ، وإذا كان بينك وبين
أحمد أفندى معرفة أم كنت من ذى المكانة فلتتفضل بالدخول من الباب لتتخذ
مكانك على أحد المقاعد أمام أحمد أفندى ، فقط ، كن حذراً ، واحرص على
الا تصطم رأسك بحافة الباب العليا فالباب منخفض وأرض الحمام عالية ،
إذ وضع عليها أحمد أفندى مصطبة خشبية نقيه رطوبة الحمام ، على أية
حال . سيجزرك أحمد أفندى عند الدخول ، ولكن عند الخروج ، متشج
رأسك ، لأنك ستسمى وسينسى أحمد أفندى .

نحن الآن ، فى الحمام باعتبار ما كان وفى حجرة خزانة وزارة الأوقاف قسم القبة باعتبار ما هو كائن .

الحجرة لطيفة ، ألطف ما بها سقفها المحذب الشبيه بالقباب والمقسم الى فجوات بكل منها طاقة صغيرة مغطاة بقطعة مستديرة من الزجاج الملون ، ولذا فقد ندهشك - اذا لم تكن لديك فكرة عن الحمامات القديمة - تلك الأضواء المنبعثة من السقف المختلفة ألوانها كأنها قوس قزح .

والمكان قد اختلط فيه عز نالد بذل حاضر ، فالى جانب السقف ذى الأضواء الملونة ترى الضوء الأبيض ينبعث من بضعة فتحات تحطم زجاجها ، يعلم الله ما يعانيه أحمد أفندى منها فى يوم مطير ، والى جانب رخام الأرض ترى الجدران وقد عثت بها فرشاة الجير وترى بقايا حوض ركبت عليه طرف ماسورة نزع عنها الصنبور وأغلقت بطابة حديدية .

أما محتويات المكان فلا تزيد عن الخزانة الحديدية التى لا ينسى أحمد أفندى أن يفلقها اذا خطا خارج الحجرة خطوة واحدة . ويجوارها دولا ب وضعت فيه زجاجات حبر وشمع أحمر وأوراق وسجلات ونماذج وأمام الخزانة مكتب أحمد أفندى ومقعد أحمد أفندى ، وأحمد أفندى نفسه .

لنتأمل أحمد أفندى برهة وهو مكب على رصد بعض الأرقام فى إحدى الاستثمارات ، ان عمره - من مظهره - يتراوح بين الأربعين والخمسين وان كان فعلا لم يتجاوز الأربعين وهو شديد تحول الجسد نحولا من درجة :

أن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت لو توكأت عليه لانهدم أو

كفى بجسم نحولا انتى رجل لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

بارز عظام الوجنتين . مطبق الأصداغ ، لايفتا بين آن وآخر بحرك

فكبه متحسسا طقم الأسنان الجديد ، وفوق عينيه ثبت منظاره السميك ذا الاطار الذهبى ، وهو أفخم ممتلكاته الظاهرة ، اذ تبدو الرثاثة والاهمال جليلة فى بقية ثيابه من أول طربوشه حتى حذائه رغم الياقة القطيفة التى وضعها لمعطفه والجتر الذى غطى به قدميه .

ولم يكن أحمد أفندى بالرجل الفقير . بل هو رجل ، ميسوط ، يستمد بسطته من ناحيتين أولاهما غنى النفس وقناعتها وزهدا وحدهما الدائم لنعمة الله وثانيها أن الفقر لا يقاس بضالة المرتب بل بالفارق بين الدخل والمنصرف ، وقد يكون دخله قليلا ضئيلا ولكن مصروفاته أقل وأصل ولذا فان ميزانيته دائمة التوازن ، لم تختل مرة واحدة بل ان لديه احتياطا منخرا مستمر الزيادة .. زيادة قد تكون مشيلة ولكنها ثابتة ومستمرة .

ان أبواب الصرف لديه لا تتعدى المأكل والممكن ، فليس لديه أسرة يعولها ، بل هو كما يقولون مقطوع من شجرة ، لم يقدم على الزواج ، لأنه لا يستطيع أن يقدم على شيء أبدا بل هو من نوع منتظر ، مستسلم ، يعتقد أن ما كتب سيكون .

واذا كان الله يريد له الزواج فسيرزقه بابنة الحلال وليس عليه سوى الصبر والانتظار وزيادة الاحتياطى الذى يخره لمهمة الزواج .

أما باب النزهة والشبقة - فقد كان ضمن الأبواب المجانية ، التى لم يرصد لها مليما واحدا فقد كانت نزهته الدائمة هى ، الشلة ، أو الجمعية . وهى رهط من أترابه يجتمعون كل يوم فى منزل أحدهم ليشربوا القهوة ويقرأوا بعض الكتب الدينية .

ووضع أحمد أفندى الريشة وجفف الحبر بالمنشفة الخشبية العتيقة ثم مد يده بالاستمارة الى الفراش وقال له :

- امضها من على أفندى ومن زكى بك وأحضرها ثانية . وغادر

انفراش الحجرة وأخذ هو يقلب بضع أوراق أمامه ويرصها بانتظام حتى وقع بصره على النتيجة المعقدة على الحائط ، فتوقف برهة ، وأخرج الساعة من صديريته ونظر فيها ، ثم أعادها وعاد يقلب الأوراق وقد بدأ عليه شيء من الاضطراب وشرود الذهن . بقى ربع الساعة ، فاللوم هو السادس والعشرون ، والساعة الثانية عشرة الا ربعا ، ان موعدها مضبوط لم يختلف مرة واحدة حتى ليستطيع أن يضبط عليها ساعته .

أمرها عجيب ! .. أم ترى أمره هو العجيب .. بل ان أمرها معا لعجيب .

أما عن أمرها ، فعجيب فيه ، تلك الدقة وتلك الانتظام ، الساعة الثانية عشرة في اليوم السادس والعشرين من كل شهر ، تدق الساعة مع دقائق قديمها ، ولكن أى عجب فى ذلك ؟

أى عجب فى أن تحضر لتقبض المبلغ الممنوح لها من خيرات الأوقاف فى موعد بذاته وأن تواظب على ذلك الموعد .

لا ، لا ، ليس هذا هو العجيب فى أمرها ، ولكن العجيب ، فيها نفسها وفى ذلك الجو الذى يحيط بها .

تلك القوام الطويل المبشج بالسواد من قمة رأسه الى أخمص قدميه والوجه المحجوب باليشمك الأبيض وقد بدأ منه الحاجبان الأسودان المقرونان والعينان اللتان مازالتا يشع منهما البريق رغم تلك الخيوط الحمراء الرفيعة التى جرت بها يد الزمن ورغم تلك الغضون التى خطها الكبر حول جفניה .

كانت تسفل الحجرة المتواضعة لتتخذ مكانها أمام النافذة الصغيرة حتى تتسلم بضعة جنديات - كأى فقير ألجأته الحاجة ودفعه العوز الى مد يده لتلقى بعض الاحسان - فاذا بالحجرة قد ملأها جو عجيب من العظمة والاستقرابية ، واذا بالسيدة السائلة تبدو وكأنها سلطنة كريمة تفرق على

من حولها من المعوزين البؤساء .

كانت تمد يدها من النافذة بالسركى ، فكان ينعم النظر فى يدها ويأخذ فى كل مرة بدقة تركيبها وجمال صنعها وصفاء بشرتها ، أنت اليد طويلة مسحوبة والأصابع دقيقة منتظمة .

وكان يتناول السركى ، فيمر عليه ببصره مرا مريعا ، ويتوقف برهة أمام اسم صاحب المرتب ، « نور مثال عصمت جمال الدين » .

ثم يرفع اليها عينيه فتحنى رأسها بتؤدة وتقول له فى صوت خفيض هادى :

- نهارك سعيد يا بك ،

- نهارك سعيد يا هانم .

اذا كانت قد منحته بك ، أكثر عليه أن يمنحها ، هانم ، وهى الجنيرة بلقب أميرة أو سلطنة .

ويسألها ثلاثة قروش ثم يمد يده بالأربعة جنيتها وبلاستماره حتى توقع عليها ، فلا تكاد توقع حتى تحيى وتنصرف .

ويظل ذهنه يتبعها بعد أن تختفى ، فيراها تهبط الدرج الرخامى ومن حولها الأتباع وتسير وسط الحديقة البانعة الباسقة وتتقدم الى الباب حيث العربية المطهمة قد وقفت فى الانتظار ، وتستقر مكانها وتطلق بها العربية يعصو أمامها الخواص .

أجل ، لا أقل من ذلك ، انه لا يستطيع أن يتصور الا كذلك .

انه لا يستطيع أن يتصورها تجر ساقها على الأرض وتثير الغبار بجذائها البالى وطرف ثوبها الممزق المرنوق ، وقد أخذت تتوكأ على مظلتها العتيقة .

وغاد احمد أفندى ينظر الى ساعته ، « بقى خمس دقائق ، لقد بات على مر الأيام ، ينتظر حضورها ، اذا أضحت تهبىء له نوعا من الاحساس ، يشبه الى حد كبير ذلك الاحساس الذى كان يتملكه عندما يجلس فى ليالى الزفاف وهو ما زال صغيرا فيرقب العرائس فى أبيهى حللهن وأكمل زينتهن . أو عندما كان يقف على قارعة الطريق فيرقب احدى عربات الأميرات تمر أمامه ولمح من وراء الزجاج الوجه المحجوب باليشمك

ودقت الثانية عشرة ، وانتظر أن يسمع وقع أقدامها ، ولكن الدقائق أخذت تمر حتى بلغت النصف بعد الثانية عشرة دون أن تحضر . وعاد الى داره ، وهو يحس بضيق لم يتعوده ، وأخذ يتناول الغداء بلا شهية ، ثم جلس على الأريكة يستريح وأخذ يرقب أم احمد ترفع بقايا الطعام ، وشعر برغبة شديدة فى أن يحدثها عن « نور مثال » فقد كان يود بطريقة ما أن يفرغ بعض ذلك القلق الذى يملأ صدره ولم يدر كيف يبدأ الحديث ، ولا سيما أنه يخشى أن تنظن المرأه به سواء ، أو أن تتوهمه يكن لهذه السيدة أحساسا خاصا .

ولكنه - رغم خشيته - لم يستطع الصمت ، فقال بطريقة عابرة :
- أتذكرين هذه السيدة التى حدثتك عنها ذات مرة .
- أية سيدة ؟
- التى قلت لك أنها تحضر دائما فى ساعة مخصوصة فى يوم

مفصوص

ما لها ؟

انها لم تأت فى موعدها اليوم .

- ربما عاقها عائق .

- مثل ؟

- المرض .

- مسكينة ، من نظنين يرعاها اذا مرضت ؟

- أهلها وأقاربها .
- لا أظنها بذات أهل أو اقارب .
- من ادراك .
- لو كان لها نما لجأت الى الأوقاف .
- لها ربنا يا أحمد أفندى ، لا تشغل نفسك بهموم الناس .

وانتهى الحديث عند هذا الحد ، وكان هذا أقصى ما استطاع أحمد أفندى أن يفعل لتخفيف قلقه على السيدة الغائبة ، وكل ما كان عليه أن يفعل بعد ذلك هو أن ينتظر شهرا آخر .

ومرة أخرى جلس ينتظر عقربى الساعة ليلتقيا عند الثانية عشرة ولكنه فى هذه المرة لم يخلد ، فقد وصل الى أذنيه وقع أقدامها ، بطيئا متناظلا ولكنه جميل فى أنثيه لا يخطئه قط .

وروقف أمام النافذة ومدت يدها بالمركبى فتأوله أحمد أفندى وقال بمنتهى الأدب .

- حمدا لله على السلامة ، انك إن تأخذى شهر يناير ، لقد اضطربنا الى أن نضعه فى الأمانات أظن أنك ستضطرين الى الانتظار بعض الوقت حتى تصرفه من الأمانات ، تفضلنى لخفضى رأسك قليلا حتى لا تصدم بالباب ، أجل هكذا ، اجلسى ، استريحى على هذا المقعد حتى أنهى لك المسألة ، لا تؤاخذينا على ضيق المكان ، انه كان فيما مضى حماما ، أتشرين قهوة .

- كتر خيرك . لا داعى للتعب .

- يا محمود ، محمود ، هات قهوة للهانم ، أهلا وسهلا .

وانهمك أحمد أفندى فى الكتابة حتى يجعل بصرف مبلغ الشهر السابق

وان كان انهماكه فى الكتابة لم يمنعه من أن يسترق النظر اليها من آن لآخر .

لقد كانت المرة الأولى التى يراها فى الضوء على مقربة ، واستطاع أن يكشف بسهولة عن رثانة ثوبها وأثار البلى والرتوق التى به وبمنظرة سفلية كشف حذاءها البالى العتيق ... واستطاع كذلك بسهولة أن يبصر غضون وجهها وعروق يديها .

ومع ذلك ، لم يقلل ما أبصره من قيمتها فى نفسه ، لقد ظلت كما هى الأميرة الكريمة ، والسلطانة العريقة الأصل الرفيعة الشأن .

وانتهى من إجراءاته ، ووقعت بامضائها على ما أراد وتسلمت النقود وهمت بالرحيل ، ولكنها قبل أن تغادر الحجرة ، ترددت برهة ، وبدا كأنها تود أن تقول شيئا .

ووقف أحمد أفندى ينتظر ما تريد ، وبعد برهة صمت قالت فى تردد مشوب بكثير من حياء :

- هل أستطيع أن أشاهد الدار . وأجول جولة فى الحديقة .

ونظر الرجل اليها فى دهشة ولكنه أجاب بلا تفكير :

- أجل ، أجل ، تستطيعين بالطبع ، وان كنت لا أرى شيئا بها يستحق الرؤية .

وخرجا الى الصالة فوقفت تتأملها برهة ثم أشار هو الى الحجرات قائلا : هذه حجرة المأمور ، وهذه حجرة الباشكاتب ، وهذه حجرة الكتبة ، هل ترغبين فى رؤيتها .

- لا ، لا ، لا داعى لازعاجهم ، انى أريد أن ألقى نظرة عابرة هل أستطيع الآن أن أجول فى الحديقة .

- الحديقة . انك ستلوئين نفسك بالقمامات والأتربة ويهبط معها فجالا وسط أكوام الأتربة والأخشاب والحجارة ثم ودعها الى الباب . ولم ير بالطبع الهربة المطهمة ولا الخيل الأصيل ومع ذلك فقد استمرت هى ، هى الأميرة العريقة .

وفى تلك الليلة ، رأى لأول مرة ذلك الحلم العجيب ، لقد وجد نفسه بباب البيت ذات صباح وهو يسير فى طريقه الى المكتب ، ولكنه لم يكذب يتعذ عن البيت حتى وجد نفسه لا يسير على قدميه بل يمتطى صهوة جواد أصيل ، يملأ المكان صهيلا ونهضة ، ووصل به الى شارع المترو ولكنه لم يجد هناك أثرا للمترو بل وجد فى المنحدر العميق الذى يجرى فيه المترو أسفل الكوبرى نهرا منبسطا عريضا تجرى فيه المياه هادئة صافية ، وسار كعادته بجوار النهر متجها الى الميدان ، ولكنه أحس بوطأة الشمس تشدد وأصابه العطش فهبط من فوق الجواد ليشرب من ماء النهر .

ووقف برهة يعجب من نفسه ، لقد كانت ملابسه ثقيل عليه ، كان يلبس حذاء طويلا ودرعا كفرسان العصور الوسطى وكان يضع على رأسه خوذة من الصلب .

وأخذ يهبط فوق المنحدر حتى وصل الى حافة الماء فانحنى فوقه وأخذ يعب بغمه حتى ارتوى . وهم بالصعود ولكنه تنكر أن هناك وعاء جلديا للماء مثبتا بسرج الجواد وخطر له أن يملأه بالماء ليستعين به وقت الحاجة . وملأ خوفه بالماء حتى يفرغها فى الوعاء الجلدي ولكنه لم يكذب يصعد الى الطريق حتى كان معظمه قد سكب ولم يكن قد بقى منه سوى قطرات ، ولم ييأس بل أعاد الكرة . واستمر يهبط ويصعد عائدا فى كل مرة ببضعة قطرات حتى ملأ الوعاء ثم ركب الجواد وواصل السير .

وطال به السير حتى وصل الى الميدان فإذا به قد اتسع حتى أضحي

صحراء واسعة مقفرة ولم يعد هناك أثر للنهر ، وأحس بالقيط يشتد ، وتلفت حوله فلم يجد شيئا يستظل به فأمعن في السير ، حتى لاحت له في الأفق واحة مليئة بالنخيل والأشجار . فاستحث الجواد إليها . وأحس بريقه يجف ويظمئه يشتد ، فهم بأن يبل ريقه من وعاء الماء ، ولكنه خشى أن يجد الواحة سرايا ، وصمم أن يحتفظ بالماء حتى يبين حقيقتها .

واستمر في السير ، ممسكا الوعاء بحرص ، وقد ضن على نفسه بقطرة ماء منه ، حتى يبلغ هدفه .

وفجأة وجد جواده يجفل ، وتلفت حوله فاذا بجسد امرأة يجثو فوق الرمال ، ولم تكد تحس اقترابه حتى رفعت إليه رأسا أشعث وعينين غائرتين ومدت إليه ذراعيها وهتفت به :

- ماء ، جرعة ماء .

وببساطة ، وبلا أقل تفكير ، مد يده إليها بالوعاء ، وأخذ ينظر إليها وهي ترفعه إلى شفيتها وتفرغه في جوفها ، وقد ملأه احساس بالسعادة والهناء ، وكأنه هو نفسه قد ارتوى .

ونظر إلى الأفق فاذا بالواحة قد اختفت ولم يعد هو يحس أنه في حاجة إليها ، لقد بلغ مأربه ووصل إلى هدفه وليس لديه من حاجة إلى السير أبعد من ذلك ؟

ومد يده إلى المرأة فرفعها بجواره على الجواد ، وضمها إليه برفق وحنان وأدار جواده وعاد من حيث أتى .

واستيقظ من نومه . ووجد نفسه ينكر الحلم بكل تفاصيله وحذافيره وقد تملكته منه دهشة شديدة ، وأخذ يقصه على أم أحمد في أثناء افطاره ، وهزت المرأة رأسها في استخفاف وقالت :

- أضغاث أحلام ، لا تعد بعد ذلك إلى أكل الممنس في العشاء انه هو الذى أثقل على معدتك .

ولم يعد فعلا إلى أكل الممنس في العشاء . ولكن الحلم عاد فلق عليه فرآه في الليلة التالية تماما كما رأى في الأولى .

واستمر يراه الليلة بعد الليلة حتى حل اليوم السادس والعشرين من الشهر ودقت الساعة الثانية عشر وأبصر ، نور مثال ، تقف أمامه وقفها في كل شهر ، ونظر إلى وجهها فوجد به بعض الشحوب والهزال وعندما سلمها النقود سأله :

- أستطيع أن آخذ بضعة شهور مقدما . انى أحس ببعض التعب وقد لا أتمكن من الحضور في الأشهر التالية . وأنا في حاجة إلى نقود . وبغير أن يفكر وجد نفسه يجيب :

- بالطبع . تستطيعين أن تأخذى مقدما ما تشائين .

كان أبله . عندما أجاب تلك الاجابة . فأى صراف مهما بلغ به الجهل يعرف أنه لا يملك أن يصرف مقدما مليما واحدا . ولكنه مع ذلك مد يده إلى الخزينة وسلمها عشرة شهور مقدما . أى سلمها كل ما كان بالخزينة وقتذاك .

وتناولت النقود وأحنت رأسها شاكرة . وقبل أن تنصرف وجدها تتوقف . ويعلو وجهها شحوب مفاجئ ثم سأله بصوت مبحوح :

- ماء . جرعة ماء .

وأحس بقشعريرة تسرى في جسده . ووجد نفسه دون أن يدرى ينظر إلى ملابسه ويدق بقدمه على الأرض .

لا ، لا ، انه مازال يرتدي البذلة ويجلس على المكتب ... بلا جواد ولا

صحراء . ومد يده الى كوب أمامه فناولها إياه ورفعته الى شفيتها وأفرغته في جوفها ثم نظرت شاكراً وأولته ظهرها وانصرفت ، ولم تكد تنصرف حتى أسرع بخلق الخزينة . وانطلق الى البيت . لقد كان عليه أن يرد المبلغ الذى أخذه . وبعد برهة رجع الى المكتب وأعاد الى الخزينة كل ما بملك من احتياطي كان يدخره لوقت الحاجة .

وغادر المكتب مرة أخرى ، وهو يحس أنه قد بات قريح النفس ناعم البال شيئاً واحداً كان يجب أن يرده الى السيدة . وهو المركب الذى نسيته في مكتبه . ولم يصعب عليه العثور على عنوانها . وقبل أن يتناول الغداء كان يطرق باب الغرفة التى تقطن بها فى حمامات القبة .

وفتحت له خادم صغيرة ، وفقت تسأله عن يكون ، فلما علمت أفسحت له الطريق وأنبأته أن السيدة أصابها اغماء عقب عودتها من الأوقاف فى الظهيرة ، وهى راقدة فى الفراش ولكنه مع ذلك يستطيع رؤيتها فهى تتوقع مجيئه ، وتقدم اليها وقد تملكته رهبة شديدة . فاذا بها مسجاة على فراشها شاحبة الوجه واهنة القوى ، ولم تكد تحس وقع أقدامه حتى فتحت عينيها وأشارت له بالجلوس .

وجلس بجوارها ، ومد يده اليها بالمركب فأشار له أن يضعه على المائدة وقالت فى صوت خافت ، لا أظن بى حاجة إليه بعد ذلك ، لقد تركته لكى تحضره ، ان لا بد لى من ذلك ، حتى أراك مرة أخرى قبل أن أرحل ، ولم ينبس ببنت شفة ، لقد بدأ له كأنه فى حلم ، نفس الحلم الذى يراه كل ليلة ، لقد استطاع الآن أن يميز ذلك الوجه الذى كان يسأله الماء ، وعادت المرأة الراقدة تهمس :

- انك تبدو غريباً فى هذه الثياب .. وفى هذا المنظار والطربوش . لقد تعودت أن أراك دائماً فوق جوادك بالخوذة والدرع كأنك أحد فرسان العصور

الوسطى ، كنت دائماً تأتى لانقاذى ، تبل حرارتي وتندى شفتي ثم ترفعنى اليك وتحملنى على جوادك وتضمننى الى صدرك ، ما أحسست قط فى حياتي بنعمة الاستقرار الا بين ذراعيك ، فقد قضيت كل هذه السنين الطوال فى البؤس والمسغبة . كنت أكاد أنصير جوعاً ، حتى من الله على ببضع جنينيات من الأوقاف ، من كان يصدق هذا ، من كان يصدق انى سأعود مرة أخرى الى قصرنا لأتسلم حسنة ، هل تعرف ان تلك المكاتب التى تجلسون فيها كانت مرتع صباى فى زمن مضى ، أتذكر عندما سألتك أن تمنحنى فيه جولة ، لقد كنت أبصر بعين الماضى ، ما وراء أكوام القمامة والحجارة والأثرية ، كنت أبصر الحديقة الغناء التى طالما لهوت فيها ، والنافورة التى طالما عشت بمياهها انى أحس بقرب النهاية ويبدو لى أن من الخير أن أعيد اليك النقود التى أخذتها منك . لقد كنت أتمنى أن أسدد بها بعض الديون ، وأن أهيبء لنفسى ميتة كريمة ، ولكنى أخشى أن أضعك فى مأزق وأسبب لك حرجاً ، فخذ النقود ، انها تحت الوسادة .

وأغمضت عينيها مرة ثانية ، فرفع يدها الى فمه ومسها بشفتيه وعادت تفتح عينيها ، فهمس فى رفق : لا عليك من بأس ، دعى الأمر لى .

وماتت نور مثال .. وبكاها الرجل بأحر ما بكى .. وهياً لها ميتة كريمة ، قدر ما استطاع .. ولم يكف عن زيارة قبرها .. ولا عاد ينتظر بعد ذلك زاجاً .

بين الحى والميت

﴿ أفأمن الذين مكروا الصيئات أن
يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم
العذاب من حيث لا يشعرون ﴾
قرآن كريم .

هل تسمعنى .

تسمعنى أو لا تسمعنى .. لا بد لى من الحديث اليك .. انه حديث
شعامة .. وليس أحب الى نفس من الشعامة فيك .

أى باعث على الشعامة أكثر من رقتك وأنت لا شيء .. ووقفتى
الموحشة بين الرمم البالية والعظام النخرة والجيف التنتنة بلا حراك ولا قوة
ولا حول ولا طول ولا جاه ولا سلطان .. ولا .. ولا .. شيء أبداً .

كيف يكون بك شيئا ، وأنت نفسك أصبحت لا شيء .

أى باعث على الشعامة أكثر من رقتك وأنت لا شيء .. ووقفتى وأنا
كل شيء .. أنا حى ، وأنت ميت .

وبين الحى والميت كثير ، كثير ، أكثر مما يمكن حصره .

أقف منك على قيد خطوات ، وبينى وبينك من المسافة شيء قليل ، أما من حيث الوقت ، ومن حيث القدرة ، فبيننا مالا يحصى ولا يقدر ، بينى وبينك ، حياة ، مديدة ، طويلة ، حافلة زاخرة ، مورقة ناضرة ، بينى وبينك ، ما بين العيش والفناء ، والخلق والعدم .

انك لا تستطيع حتى أن تتألم أو تتوجع ، انك لا تملك الا الرقود والاستسلام ، أريق عليك تقمى فلا تستطيع لها ردا ، وأصب عليك جام غضبي فلا تملك له دفعا ، أيها العاتى الجبار ، أية شماعة أحسن بها وأنا انظر اليك ، تتمرغ فى الذلة والعجز والمسكنة وترقد وكلاب الأرض سواء بسواء .

هل تسمعنى ؟ .. لا بد أن تسمعنى ، فلمت أريد أن يذهب حديثى بددا ، لن تتم شماتتى فيك وسخريتى منك الا اذا اطلعتك على خبيثة صدرى وأوصلت الى مسامعك حقيقة أمرك وأمرى ، كنت تتصامم فيما مضى عن أنينى وشكواى وأنت العلى القدير ، أما الآن فلتنصت الى شماتتى وأنت الدليل الحقيق .

إذا لم تكن تسمعنى وأنت حى ، فلتسمعنى وأنت ميت .

اسمعنى : أيها الجسد الفانى والزمة البالية .

اسمعنى : لا أسمعك الله صوت رحمته ، ولا أسمعك الا سفير جحيمه .

اسمعنى . فلطالما تأقت نفسى الى أن تقضى بما سوف أفضى به اليك .

اسمعنى : صاغرا مطيعا ، بلا احتجاج ولا شكوى .

اسمعنى : أنا الحاكم بأمرى فيك ، وفى كل سلطانك وجاهك ومالك الذى كدنت فى جمعه ، وشقيت فى تقديمه .

اسمعنى : أنا الأمر بطردك من الحياة .

اسمعنى : أنا قاتلك ، ومعذك ومفنيك .

★ ★ ★

أدهش أنت من قولى هذا ؟ ساخر أنت منه منك له ؟

يبدو لى أنك تود الاحتجاج والتكذيب وأنت تستكثر على ، أنا العاجز الأبله ، أن أضع بيدى هذه نهايتك وأن أنهى مصيرك وأقرر خاتمتك ، انك تستكثر من جريمة قتل ، وقتل من ؟ قتلك أنت ، سيد الأشرار ، وشيخ الفجار .

انها مذلة جديدة لك . وعار آخر يلحقك . ان تعلم أنك مت بيدى أنا . وانى أنا طاردك من الحياة . حارمك من نعيمها .

ولكن ألم يسبق لك طردى وحرمانى ؟ . لقد رددت لك الكيل على غير انتظار منك ولا توقع ، واحدة بواحدة ، والبادى أظلم ، والمنتهى أربح ، وأنت البادى وأنا المنتهى ، أنت أكثر ظلما ، وأنا أكثر ربحا .. ما رأيك يا أبتاه ؟ ..

أبتاه ؟ . ها .. ها .. ها ..

دعنى أضحك يا أبتاه ، فما أظن هناك نكتة أروع من أن تكون أنت أبتاه .

ها .. ها .. ها .. يا أبتاه .. يا أبتاه .

أنت أبتاه ؟ والله ما أظن قولى لك يا أبتاه ، الا من باب تسمية الشيء

بضده كما تقول على الزفت بياض وعلى الفارغ المليان .

أنت أبى من باب الزفت والفارغ ، بل إن قلبك لأشد من الزفت سوادا ، ومن الفارغ فراغا . كيف كنت ، وكانت حياتى معك ؟ كيف كانت أبوتك ؟ وكيف كان عطفك وحنانك ، دعنا نذاكرها سويا ، على سبيل التندر والتسلية .

الديك مانع ؟ لا أظن ، وحتى لو كان لديك ، فما أظنك تستطيع اعلانه فأنت هنا كما ترى ، سميع مطيع ، راضخ ذليل .

أما أنا فلتست بمنعجل فراذك . فالوقت أمامى فسيح والحياة طويلة ، ولا بأس من بضع لحظات تتسامر فيها سويا ، أنعم فيها بمنافستك الحساب ، وأنت الذى طالما ناقشتنى الحساب . وأبيت على الجواب ، انى لأنكرك منذ طفولتى ، ومنذ بدأت الوعي والادراك ، شبح مخيف وظل سمج ثقيل ، بينى وبينك حجاب كثيف من الخوف والرهبة ، اذا حلت بالدار لم أجرو على اللعب والحراك ، خشية ازعاجك ، واذا نمت فلا بد لى من الانطواء فى الفراش والتناوم حتى لا نقلقك حركتى ، وما أظننى أنكر انك حملتنى بين يديك مرة واحدة ، أو ربت على ، أو لاطفتنى بما يلاطف الآباء بنبيهم بل كنت تعتبرنى كقطعة من أثاث الدار .

ولو كانت لى أم ، لما أحسست بمبلغ جفائك وقسوتك ، ولعوضتنى عن اهمالك وهجرك ، ولما نشأت كما نشأت نفورا مستوحشا ، ولما أصبت بذلك الانطواء والخوف من الناس حتى أضحييت بينهم أبلها شادا .

أجل ، أجل ، انك السبب فى كل ما أصابنى ، وما جعلنى أبدو مخلوقا ، ناقص العقل ، أو نصف آدمى .

انك السبب فى علقى الأولى ، التى جعلتنى أنهم بالبله ، ذلك البله الذى يجعلنى لا أتحكم فى قضاء حاجتى .

أتذكر عندما كنت أرقد فى حجرتى فى الغرفة ذات الشرفة المطلة على الحديقة ، وكنت تأمرنى بأن أرقد وحدى وأنا طفل حتى لا أتعود الجبن ، ولقد تحملت النوم وحدى وفقدت ذلك رغم ما كنت أشعر به من خوف شديد ، ورغم ما كنت أنوهمه من سماع أصوات مخيفة تطرق أرض الشارع وتسير فوق السطوح .

كل هذا كنت أحتمله . ولكن الشيء الذى كنت أعجز عن احتماله هو أن أذهب وحدى الى دورة المياه الكائنة فى الركن الآخر من المنزل عندما أحس برغبة شديدة فى قضاء حاجتى خلال الليل ، ولذلك فقد كنت أذهب الى أم أحمد الخادمة فأوقظها لتصحبنى الى هناك . ولكن حدث ذات مرة أن أيقظك صوت ايقاظى لأم أحمد فهبيت من نومك وصحت نسأل عما هناك ، وعندما أنبأتك بجلية الأمر ثارت ثورتك ونهرتنى نهرا شديدا وأمرت أم أحمد بالألا تذهب معى وأنبأتنى بأنه يجب على أن أذهب وحدى حتى لا أكون جيانا .. ولم أذهب وحدى بالطبع ، فقد كان هذا فوق استطاعتي ، وفضلت أن أبقى فى الفراش ، وفى الصباح وجدت الفراش مبعثلا .

وتعودتها ليلة بعد ليلة ، أكبت حاجتى ليلا ، حتى أفقد السيطرة على نفسى ولم أستطع التخلص من العادة أو قل الداء . حتى نموت ونمت العلة معى واتهمت بالبله .

ذلك وغيره من سوء معاملة وزجر واتهام بالغباء والبله هو بداية ما أنزلت بى فى الصغر وما أهلى لان أكون بين الصبية ناقصا شادا ، فلما بلغت سن المراهقة ، وبدأت أدخل فى دور الرجال .. مددت الى ضربة لو أن أشد أعداء صبي مرأوق فى مثل سننى رغب فى القضاء عليه لما سددها اليها مثلها .

لقد بدأتها بزواجك ..

وحاشاى أن أنكر حقلك فى الزواج .. وحاشاى أيضا أن أزعم انى كنت

أتوقع من امرأتك عطفًا أو حنانًا أو حسن معاملة .. حاشاى أن أكون حسن الظن الى هذا الحد .. لقد تقبلت زواجك كضرب لآبد منه .. واعتبرته حلقة من سلسلة حياتى المثقلة بالهموم .

ولكنى لم أكد أتوقع قط .. أن يكون ضربة قاصمة لى .. أو أن تكون الضربة من مثل هذا النوع السخيف المثلين .

نرى بأى شيء أعلل تصرفك .. أو تصرفكما أنت وزوجتك معى ؟

أكنت مجنونًا .. أم جاهلًا .. أم لأحق .. أم خبيثًا .. أم شيطانًا رجيما ؟

أن كل سوء ارتكبته معى يمكن تعليله وارجاعه الى ناحية معينة من سوء خلقك .. فحرماتك لى وأنت الغنى المقنن .. يرجع الى بخلك .. وقسوتك على وزجرك لى .. قد يمكن تعليله بصرامة طبيعتك وشدة قسوتك .. واهانتك وضربك اباى قد يعلل برغبتك فى اصلاحى وسوء فهمك لأصول التربية والاصلاح .. وكل شيء .. كل شيء .. يمكن ارجاعه الى علة معينة .. مهما كانت خاطئة .. ولكن أية علة يمكنك أن ترجع اليها .. اغرائى بزواجك .. واغرائها لى ..

ألم يكفك ذلك الاغراء الصارخ .. فى جسدها .. حتى تفعل معها أوضاع الاغراء .. وأنت الرجل الجاد الصارم .

ألم يكفك انك تزوجتها هى بالذات .. وهى أبعد ما تكون عن ملاءمتك سنا وطبعًا . أنت الكهل الصارم الجاد .. وهى الشابة المتعطشة الفاترة التى تنفجر أنوثة ورغبة ..

ألم يكفك أن تسلط على مسطرة اغرائها الطبيعى .. حتى تتعاون معها على الايقاع بى وتحطيمى ، انى عندما أفكر فى هدوء .. يبدو لى أنك كنت أعبوة فى يدها .. ولكن أين عقلك .. وكيف يصل بك البله الى الحد الذى

تفمض عينيك عن تأثير ذلك الاغراء فى .. فتساق معها وتجارىها ؟

لقد كانت خطة محكمة موضوعة لاثارتى واغرائى وتمزيق أعصابى وتحطيم قواى واطاشة صوابى ، وقيادتى الى الجنون ، ولقد أفلحت الخطة ، أو كانت ، لولا أن أنقذت نفسى وأوديت بك .

بدأت الخطة .. بعرض منها لفئة جسدها .. عرضا يبدو غير مقصود .. وان كنت أقسم أنها كانت تعنى منه كل حركة .

كان لا يحلونها الانحناء الا أمامى .. وهى ترتدى قميصا متسع فتحة الصدر .. وأنت تعرف صدرها المكتر وثنيها الممثلين .. فلا تكاد تتحنى حتى تتسع فتحة القميص ويسقط ثدياها الثقيلان ككرائتين من العجين . وأحس بريقى يجف وبالم يتصاعد الى وجهى ولا أملك الا الفرار وأنا ألهث اضطرابا ونشوة .

أما جلسنها فقد كانت تحكمها فوق الأريكة ، ثانية احدى ساقها تحت ردفها ، ثانية الساق الأخرى وركبتها الى أعلى بحيث أستطيع أن أبصر بسهولة باطن فخذيها حتى حافة السروال المشغول بالتنتنة .

وهكذا بدأ الهجوم بعرض الأوضاع .. الفاتنة الفاتكة .. ثم أخذ يتدرج .. باشتراكك معها .. فى فتنى واغرائى ..

كنت أستيقظ فى الصباح فأسمعك تنادىنى من حجرتك طالبا كوب ماء .. تنادىنى أنا وحدى .. نون سائر الخدم .. فلا أكاد أدخل عليك بالكوب حتى أفلجأ بك فى الفراش وهى فى أحضانك وقد تبعثرت ثيابها الداخلية على الأرض .. مفسرة قطعة قطعة ، فلا أكاد أغادر الحجرة .. حتى أخذ فى تصور كل شيء . أكنت تظننى طفلا .. أم أبله .. أم كنت تعنى تميمى ؟

لقد كانت تدخل الحمام لتستحم .. فلا تكاد تمضى بضع دقائق حتى

تصفق بيديها فى طلب حاجة .. لوفة .. أو صابونة أو قطعة من الملابس ..
فإذا لم تجبها الخادمة .. أمرتنى زجرا بأن أذهب لأعطيها ما تطلب . وأقف
على باب الحمام أطرقه وجلا ، فإذا بها تأمرنى بالدخول ، فأدخل لأجدها
عارية تماما وقد جلست على كرسي الحمام وأخذت تصب الماء على جسدها
البض المتكزز ، وتمديدها فتأخذ الثياب ، وأخرج بعد ذلك ملوما محسورا ..

تلك هى سلسلة التعذيب التى كانت تحطم أعصابى وتطيش لبنى ..

ولم يكن أمامى سوى مسلك واحد أندفع فيه .. وهو المسلك الذى يندفع
إليه الصبية فى دور المرافقة .. وكان اندفاعا جنونيا ، لا يخطر على عقل
بشر .. حتى صرت كما أنا الآن .. حطام ذهن وبقايا جسد ..

وكان الشيطان كثيرا ما يهيئ لى أن أقدم عليها .. وأن أندفع فأقضى
منها بغيتى .. ولم يكن يبدو لى أن ذلك يغضبها أو أنها تمنع فى ذلك .. ولكننى
كنت أخشاك .. كنت أخافك جدا .. فقد كنت أراك عاتيا جبارا .

وهكذا وجدتك حائلا بينى وبينها ، بل بينى وبين كل شيء ، وكلما ازداد
الاغراء ، ازدادت الرغبة ، وازداد كرهى لك ، حتى استقر بى ذهنى المجنون
على أن أزيحك من طريقى ..

ولم أكن أعرف كيف أدبر الأمر .. بحيث لا تحوم حولى شبهة وبحيث
أستطيع أن أتمتع بحياتى وحريتى وبمالك وامراتك .

ومر بذهنى خاطر خيل الى أنه قد ينيلنى بغيتى وصممت على أن
أجربه .. وكنت فى حاجة الى مساعدة الأقدار .. فثمنت الى المساعدة وليس
أسهل على الأقدار من المساعدة فى الشر والجرم .

كانت الخطة غاية البساطة ، فقد كنت تعود الى المنزل ليلا وكان عليك
دائما أن تعبر الممر الكائن بين باب الحديقة وباب المنزل . وكان يتوسط هذا

الممر فتحة ، بكابورت ، ولم يكن على الا أن ارفع غطاء الفتحة وأنزل
المصباح الكهربائى الذى بضئ العمر ، وأترك الباقي للأقدار .. فقد
تساعدنى .. على التخلص منك .

وأنت أدرى بما حدث .. أدرى بعودتك ومحاولتك اضاعة المصباح
وبسبرك وسقوطك فى الفتحة ومساعدة الأقدار لى بتهشيم رأسك وموتك فى
التو والحين ..

أدري بحملك وتغسيلك وتكفينك ..

أدري بوضعك فى النعش والصلاة عليك ..

أدري بوقوفى مطلق السراح أتقبل عزاء الناس فيك .

وسرت وراء النعش حتى المقبرة ورأيت للحداد يزيح الأتربة ويرفع
الحجارة عن مدخل القبر وأخذ يرش المياه حوله بقربة وراء ظهره .. ووقفت
أرقب المقرنين يهتزون بمنة وبسره وهم يستمطرون عليك شأبيب الرحمة .

وأخيرا .. انتهى كل هذا .. وهبطوا بجسدك الى قرار القبر ورصوا
على فتحة الحجارة المستطيلة وهالوا عليها الثرى .

ورحل الجميع ورحلت معهم .. ولكنى تسلفت من بينهم وعدت اليك ..
ووسط الظلمة وقفت أرفع الثرى وأزيح الحجارة ثم أدلى بجسدى فى المقبرة
وأهبط اليك .. لأقضى اليك بخبيثة صدرى وأشرح لك ما خفى من أمرك
وأمرى .

أيها الجبار العاتى .. ما عاد جبروتك يخيفنى .. سأصعد الآن ..
وأذهب أمتنا مطمئنا .. أتدري الى من ؟

الى امرأتك .. الغضة البيضاء .. الطرية اللدنة .. انى أصبحت صاحب
العمال والحوال والطول .. صاحب كل ما تركت ..

سأنام معها فى نفس فراشك .. وسأتمتع بمنظر ثيابها الداخلية .. مبعثرة
فى أرض الحجره .. اتسمعنى .. انها قد أضحت ملكى ..
لتذهب الى الجحيم .. أما أنا فانى صاعد الى ظهر الأرض صاعد الى
الحياة والنعيم .

ولكن ما هذه الظلمة التى تحيط بى .. انى لا أستطيع أن أتلمس
طريقى .. لقد كان ثمة ضوء ينفذ الى من الفتحة التى دخلت منها .
ويحى .. انى لا أجد الفتحة .. لقد كانت هنا .. كنت أرى منها السماء
وضوء النجوم .

أين ذهبت .. لقد سدت ..

أجل سدت .. لقد عادت الحجارة الى مكانها وانهاى عليها الزراب ..
افتحوا .. أيها المسفلة .. المجرمين .. افتحوا انى أريد أن أذهب الى الحياة ..
والى النعيم .

آه .. أيها الشرير .. انك أنت الذى أغلقت القبر على لأشارك
نومتك .. ولكن لا .. لا .. لا بد أن أصعد .. والا لأمزق جسدك شر ممزق .
أجل .. انك عاجز .. وأنا صاحب قدرة ان بيننا فارقا كبيرا .. بيننا حياة
طويلة مديدة . انك تحت رحمتى وتحت سطوتى .

افتحوا هذا القبر .. افتحوا فأنا حى .. افتحوا .. افتحوا .. فبينى وبين
هذا الميت فرق شاسع من الوقت والقدرة ..

افتحوا .. افتحوا .. أيها المجانين .. أنا حى .. أنا حى .. لا تتركونى
له .. أخرجونى .. أخرجونى ..

★ ★ ★

وفى تلك اللحظة .. كان اللحد يرفد على فراشه العتيق فى كوخه البالى
وسط المقابر .. وكان صبيه يرفد بجواره وهمس الفتى فى تكامل :

بخيل لى أنى أسمع صوت صراخ ألا تسمع شيئا .

- نم .. نم لست أسمع شيئا ؟

- لقد وجدت المقبرة التى وضعنا فيها الميت اليوم مفتوحة فأعدت
الحجر الذى نزع الى مكانه .

- قد يكون أحد اللصوص فتحها ليسرق الكفن .. نم .. نم .. كفى
ثرثرة .

وأغمض اللحد عينيه وأخذ الصوت يتضاءل شيئا فشيئا حتى خفت
تماما . وهكذا لحق الابن بأبيه .. وسوى العاجز مع القدير .. وصاحب الرمة
مع صاحب العمر الطويل .

ياللوقت ويا للقدر ..

ياللوقت الذاهب فى غمضة عين .. وبالقدر الضائعة بين عظام نخرة
فى قبر بقرة .

بِلا عِشْرَة

﴿الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم
وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما
رزقناهم سرا وعلانية ويذرون
بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى
الدار﴾ .

« قرآن كريم »

هذه قصة حياة امرأة وقعت خاتمتها فى أيامنا هذه ، أما البداية فحدثت
فى زمن غير وعهد مضى .

ولشد ما أنا حائر فى سرد قصتها ، كيف أحشرها فى بضع صفحات ،
وهى تاريخ كامل لجيل بأسره ؟

لنبدأ من البداية الأولى . منذ مولدها فى عام ١٨٨٠ ، نعود القهقرى
سبعين عاما الى حى المغربلين حيث كانت تقوم قصور الأعيان والتجار
وأثرياء الأتراك ، فنذلف فى أحد القصور لنشهد مولدها من أب مصرى وأم
تركية ..

كان أبوها الحاج محمود العطار ، رجلا من كبار تجار العطاراة ،

وكانت أمها امرأة جميلة من عائلة تركية عريقة النسب .

ولدت أميرة .. لتجد نفسها محاطة بكل مظاهر العز والثراء ، وريثة جاء عريض ومال وفير من الأب ووريثة جمال وكبرياء ودم أرستقراطي وأصل عريق من الأم .

ولا أظن الوقت يتسع لكى نتتبع طفولتها ومبائها ، على مقل ولكى نخوض فى تفاصيل حياتها ، ولكن كل ما يمهنا ذكره هو وفاة أبيها بعد بضعة سنوات من ولادتها وقبل أن تفهم هى ماهو الموت وما هو الحزن ..

وشبت الفتاة وتتطلع الى المستقبل وملء نفسها الثقة والأمل ، وقد زودتها الحياة بأقصى أسلحتها : الفطنة والجمال والثراء الوفير .

ولاح فى الأفق الزوج المنشود ، وتوأم النفس وشريك الحياة ، توأم مثالى ، وشريك تمولجى ، يلائم ما حف بالفتاة من جمال وامارة وسلطان ، وما حبتها به الدنيا من حظ سعيد .

وتقدم لخطبتها السيد محمود صديق ابن المرحوم صديق باشا صاحب أبيها الوفى وصديقه الحميم ، ولم يكن الفتى ليقبل عنها حظا من الحياة ، فقد كان وحيد أبيه الراحل ، ووارث جاهه وماله وطيب أصله وكرم محتده ، وكان الفتى نبيل الخلق جميل المظهر فطنا ذكيا ، وكان - بخير مال أبيه - شخصية لها مكانتها واحترامها فى المجتمع المحيط . وتمت الخطبة وتوثقت عرى الحب بين العروسين وأخذتا يستعدان للزفاف .. وسار الزورق بنسب فى هدوء واسترسال بلا أنواء ولا موج ولا رياح هوج ، ولا يشتم فى الجو رائحة غبار ولا يبدو فى الأفق أثر سحب .. بل كان ما هنالك صحو فى صحو وصفاء فى صفاء ..

كانت الطفلة أميرة ، أميرة بحق ، فى مشيتها ، وفى حديثها مع الناس ، وفى أوامرها للخدم وفى اصرارها على رأيها ، ولم تكن تغفر لأحد أن يتصرف معها تصرفا غير لائق بشخصها .

حدث ذات مرة فى خلال حديث لأمها مع أحد أقاربها - وهو رجل كبير محترم - أن قال الرجل عنها - البنت - فلم يكن من الطفلة الصغيرة إلا أن قاطعته غاضبة :

- يجب أن تتعلم كيف تتحدث عن سادة القوم .

وهكذا كانت تحس دائما أنها من السادة ، وأن لها كرامتها التى يجب ألا تمس ، وكبريائها التى يجب ألا تخدش .

وتعدو مع الزمن عشرين عاما ، لتجد أميرة فى نهايتها وقد أضحت شابة فى أوج جمالها ونضرتها .. جمال هو خليط من الجمال المصرى والتركي .. شعر أسود كحلقة الليل ينساب على كتفها وينبسط على ظهرها ، ووجه أبيض ناصع دقيق التقاطيع حلو الملامح ، وعينان زرقاوان صافيتان ، تكونان مع سواد شعرها مفارقة ينبعث منها سحر عجيب ، وأنف دقيق مرفوع الطرف . وجسد أهيئ وقد معشوق يبدو عليه القوة والتماسك .

ووقفت الفتاة تتطلع الى المستقبل وملء نفسها الثقة والأمل ، وقد زودتها الحياة بأقصى أسلحتها : الفطنة والجمال والثراء الوفير .

ولاح فى الأفق الزوج المنشود ، وتوأم النفس وشريك الحياة ، توأم مثالى ، وشريك تمولجى ، يلائم ما حف بالفتاة من جمال وامارة وسلطان ، وما حبتها به الدنيا من حظ سعيد .

وتقدم لخطبتها السيد محمود صديق ابن المرحوم صديق باشا صاحب أبيها الوفى وصديقه الحميم ، ولم يكن الفتى ليقبل عنها حظا من الحياة ، فقد كان وحيد أبيه الراحل ، ووارث جاهه وماله وطيب أصله وكرم محتده ، وكان الفتى نبيل الخلق جميل المظهر فطنا ذكيا ، وكان - بخير مال أبيه - شخصية لها مكانتها واحترامها فى المجتمع المحيط . وتمت الخطبة وتوثقت عرى الحب بين العروسين وأخذتا يستعدان للزفاف .. وسار الزورق بنسب فى هدوء واسترسال بلا أنواء ولا موج ولا رياح هوج ، ولا يشتم فى الجو رائحة غبار ولا يبدو فى الأفق أثر سحب .. بل كان ما هنالك صحو فى صحو وصفاء فى صفاء ..

وحدد موعد الزفاف .. وكان القدر أوشك أن يفرغ من نقش أبدع لوحاته ، وينتهى من تسطير أنها أقاصيصه ، ويختمها أسعد خاتمة .. ووقفت أميرة (هانم) فى غرفة نومها وسط الحائكات تقيس ثوب الزفاف الدانتلا

الأبيض وتدور بكبرياء أمام المرأة ، وعلى أحد الأرائك جلست أمها ترقبها في عطف وحنان وأغرورقت عيناها وهي تقول لها .. مبروك يا أميرة .

وتتمنى بينها وبين نفسها لو كان أبوها حيا لير أميرته الرائعة .

ولا تكاد الفتاة ترد تهنئة أمها حتى يسمع صوت وقوف عربة وصهيل جياذ وطرق على الباب الخارجى ..

وتتحرك أميرة وعليها ثوب الزفاف فتقف وراء المشربية لترقب الطارق من خلال الثقوب الخشبية ، ثم تقول وهي تتجه الى باب الغرفة .. انه « عم على ، خادم محمود ، ماذا أتى به يا نرى ؟

وأقبلت إحدى الخادومات لتقول ان « عم على ، يريد رؤية الست الكبيرة ، فتصيح بها أميرة فى لهجتها الأمرة .. دعيه يصعد .

ويصعد عم على بجسده المنحنى وذقنه البيضاء المسترسنة ، وقد تناقلت خطواته وتلاحقت أنفاسه ..

ووقف أمام السيدتين كأنه كلب يلهث ثم همس بصوت مبحوح :

أريد أن أقول شيئا للسيدة الكبيرة .

ويلوح فى عينيه احمرار وارغوراق ، ويسود الجو سكون مخيف يقطعه صوت أميرة حادا قاطعا :

- قل ما تريد قوله ، انى لا أخشى سماعه ، ماذا حدث لمسيدك ؟ وينطق الرجل :

سيدى محمود بك .. الله يرحمه ..

ثم يخر متهاويا على الأرض وهكذا ينهى القدر لوحته فجأة .. فيجرى عليها بفرشاته فى عبث الأطفال .. مفسدا كل ما رسم ، ويختم أقصوصه

ساكبا المحبرة على كل ما كتب .

ويندفع القوم فى بكاء ونحيب وولولة ، الا مخلوقة واحدة لم تجد عينها بدمعة واحدة ولم يختلج وجهها ببادرة حزن .. وهي أميرة فقد وقفت شاحبة الوجه جامدة العينين شاردة البصر ، كأن الأمر لا يعينها ، لم تقبل أميرة تعزية ولا رثاء ، وصرفت عنها القلوب الواجفة والنفوس المليئة بالحزن الفياضة بالعطف والحنان وأمرتهم أن ينصرفوا الى أعمالهم ، وأن يدعوها وشأنها ، حتى أمها أثبت أن تتلقى منها كلمة عزاء وانصرف الجميع ولم يبق فى الحجرة الا هى والخادم المعجوز الذى حطمته المفاجعة ، ووقفت تسأله فى لهجة هادئة عن التفاصيل .

ولم يكن هناك تفاصيل ، فقد حدث كل شيء بغنة على غير ترقب ولا انتظار ، كما قال الخادم بصوته المنهدج المنقطع :

- لقد عاد قبل الظهر وكانت تبدو عليه آيات الصحة والهناء وأنبأنى أن الليلة هى ليلة الزفاف وأنه أعد كل شيء حتى تذكرتى السفر الى الأقصر - حيث تنويان أن تقضيا شهر العسل - قد ابتاعهما وحجز ديوانا خاصا ، وطلب منى أن أشرف على الاصلاحات التى تجرى بقصر الحلمية ، الذى ستقطنان به بعد عودتكما من الأقصر وقال لى انه يريد أن يجد القصر معدا عند عودته ، وأنتى مسئول أمامه عن أى تقصير ، ثم ذهب الى حجرة نومه ليسيرى وفى الساعة الرابعة سمعت تأوها يصل الى أذنى من حجرته ، وتملكنى العجب ! وأسرعت الى الحجرة فوجدته مخطبعا على احدى الأرائك وقد شحب وجهه وبردت أطرافه ، وتلاحقت أنفاسه ، كأنه مكروب الصدر أو كأن هناك من يطبق على عنقه .. وسألته عما به .. وهممت بالخروج كى استدعى طبيبا ، ولكنه أمرنى بصوته الخافت أن أبقى ، وهز رأسه قائلا : « لا فائدة » . ثم طلب منى أن أحمل اليك هذا الخاتم وهاتين التذكريتين اللتين ابتاعتهما للذهاب الى الأقصر ، وأنبأنى أن أستمتر فى اعداد بيت الحلمية لأنه سيمتلكه لك بكل ما

فيه .. لقد كان يعده لك .. وسيظل لك وبعد لحظات أسلم الروح بين يدي ، وانتهى كل شيء .

وانصرف الخادم ، وآوت العروس الى حجرتها أخيرا .

لقد كانت الضربة قاصمة ، والمصائب فادحا أليما ، وبدا لها أن الأمر كله لا يعدو حلما مروعا ، أو وهما مخيفا .

لقد هزأ بها القدر وسخر منها ، وجعلها تأمن له ثم طعنها طعنة نجلاء لكي يذل كبرياءها ، ويمرغ أنفها في الثرى .

ولكنها لن ترضخ ولن تذلل ولن تهون ..

لقد جلست في حجرتها وأخرجت من قمطر بها صورة لعريسها الراحل ، وأخذت تتأملها في صمت .

لقد كانت في طفولتها تخجل من البكاء أمام الناس ، وكانت تعدو الى حجرتها وتخلو الى نفسها ثم تندفع في البكاء منفسه عن كriebها .. والآن وقد أصيبت في الصميم ، وحرمت من رفيق العمر وتوأم النفس . وبعد أن حاولت جهدها أن تتماسك أمام الناس وتتجدد ، ألا تبيح لنفسها فترة بكاء تطفئ بها حرقة الفؤاد وتهديء بها لوعة النفس ، وهي وحيدة في غرقتها ، لا يرقبها أحد .

أم أن القدر ، الشامت الساخر ، يرقبها مثلها ليرى كبرياءها تذلل ، ويراهما تترنح كالذبيحة .

لا ، لا .. يجب ألا تستسلم أو تخفض الرأس يجب أن تقاوم وتظل مرفوعة الهامة ، ولا تدع شيئا يحطم كبرياءها .

وأمسكت بالصورة تحديق فيها وقد شرد بها الذهن وأخذت تهمس ..

سأتصبر على فراقك وأتجدد ، لا أظننى سأجد صعوبة في ذلك ، فأننى لا أشعر قط أن هناك من يستطيع التفرقة بيننا ، حتى ولا الموت ، انى لن أشعر بفقدك أو غيابك ، فأنت دائما معى ، فى قلبي وفى ذهنى .. ستبقى أنت كما أنت ، لن تغيب عني لحظة واحدة ، ولكنى أحس بالحزن يفتت قلبي من أجلك أنت ، لا من أجلى .. من أجل هذا الشباب النضير والحياة المتدفقة .. من أجل آمالك الحلوة ، وأمانيك التى لا حد لها .. كيف يطوى كل هذا فى حفرة مظلمة ؟ كيف يغلق القبر على ضحكائك الرنانة وصوتك المرح ؟ كيف تحرم من الحياة ومن النعيم ؟ كيف تصم أذنك عن الألحان العذبة والأنغام الجميلة ؟ وكيف تغلق عينيك عن خضرة الروض ونضرة الزهر وصفو السماء وضوء القمر ؟ ما قيمة كل هذا ان لم تسمعه أذنك وتبصره عينك ؟ ذلك هو ما روعنى ، وحطم قلبي ، ذلك هو ما ملأ نفسى لوعة وأسى ، من أجلك أنت ، لا من أجل نفسى .. أود أن أبكى ، ولكنى لن أبكى ، لن أذرف دموعا واحدة .. سأتجدد على فراقك حتى نلتقى ثانية .

وكانت الفتاة عن وعدها ، فما صاحبت وما ناحت ، وما ابتلت مآقيها ، بل كانت كهود يابس أو جلمود صخر .

ودهش أهل الدار عندما أتياهم بعد بضعة أيام برغبتها فى الانتقال - وحدها - الى بيت الحلمية ، الذى خلفه لها زوجها الراحل .. وذهلت أمها ، وقالت لها وكأنها تخاطب انسانا به جنة :

- كيف تفعلين هذا ؟ ما ا يقول الناس عنك ؟ فتاة مثلك تعيش وحدها فى قصر متسع كهذا ، وقصر من .. ؟ قصر زوجك الذى ما زال جسده دافئا فى قبره ، كيف تحتملين البقاء فيه ؟

ومع ذلك فلم يجد معها نقاش ولم يفد معها نصيح .. فقد انتقلت الى البيت الذى كان مفروضا أن تعيش فيه مع زوجها ، وجعلت كل شيء فيه كما كان

يجب أن يكون ، كأن صاحبه وصاحبها لم يفارق الحياة ولم يطوئه باطن الأرض .

وفتح البيت على مصراعيه وهىء بما يلزمه من خدم وحشم وعربات وسياس ، ولم تنطو أميرة فى داخله ، بل ملأته بالحركة والحياة ، والولائم والاجتماعات والدعوات .. وأخذت تصرف عن بذخ .. وتبرز فى المجتمع .

وأحاطتها الاشاعات والتقولات .. ولدغتها السنة السوء .. فمن قائل أنها تستغل القصر والمظاهر للحصول على زوج من الأمراء ، ومن قائل أنها تهدف الى مطامع سياسية ، ومن قائل أن بينها وبين فلان أو علان علاقات خفية ، الى غير ذلك مما كان لابد أن تتعرض له وقد فعلت ما فعلت .

ومع ذلك ما لبثت الاشاعات أن تأكلت وانقرضت عندما قرعتها الحفانق الجليلة ، وعندما تقدم لخطبتها بعض الراغبين فى ثراء جاهز ، وقصر معد ، وحياة هيئة ليثة ، ولكنها صنتهم الواحد بعد الآخر ، وأفهمتهم أنها لن تتزوج أبدا .

وخربت أسنة السوء ، عندما وجدوا أن نشاط المرأة قد بدأ يغزو نواحي الخير والاصلاح ، وأنها أخذت تكرر جهودها وأموالها وتستغل اجتماعاتها وولائتها وصلاتها بكبار القوم فى انشاء العلاجيء وعمل المنشآت الخيرية لمعاونة الفقراء .

وأخذت بعد ذلك تصدر مجلة تطالب فيها بحق المرأة ورفع الحجاب ، وأخذت جهودها تبرز فى المجتمع .

وهكذا شغلت المرأة بحياتها العامة الحاقنة . ولكن اندماجها بين الناس ونزولها الى ميدان الكفاح والجهاد لم يستطيعا أن يخفنا من حدة كبريائها وأنفها وميلها الى مظاهر الارستقراطية والميطرة والعظمة ، واستمرت فى حياتها فى البيت أميرة ، تحافظ على المظاهر والتقاليد ، وتجبر الخدم على خفض

الرؤوس وحنى الظهور والنقهر أمامها بوجوههم .

ومرت السنون ، وأميرة هانم ممعنة فى حياتها المجاهدة ، ولست أنرى أن أسرد تاريخها الحافل فى خمسين عاما ، فهو تاريخ أمة ، ومن العيب أن أحاول - كما سبق القول - حشره فى بضعة صفحات .

لندعها تحيا حياتها ، بين الجمعيات الخيرية ومشروعات البز وعمل المستشفيات والعلاجيى ، ولندعها تخوض غمار الثورة المصرية وتشترك فى كل جهاد ، ولندع السنين تعدو حثيثات سراعا بحروبها وسلامها ، وثوراتها وتقلباتها ، حتى نقف أخيرا فى عام خلا لنبحث فيه عن أميرة هانم ..

انها الآن فى العام السبعين ، مازالت تقطن فى قصرها فى حى الحلمية .. حياتها كما هى ، كأن الزمن ما مر بها وكأن السنين ما ولت . تعيش فى قصرها القديم كأنها من أهل الكهف ، لم تحس بتغير الدنيا بل يخيّل لها أنها لم تلبث بها سوى يوم أو بعض يوم ..

« وكلبها باسط ذراعيه بالوصيد ، ولم يكن كلبها سوى عم على خادم محمود العتيد وقد بلغ نيفا ومائة عام ، وما زال يتخذ مجلسه بجوار الباب كالكلب الأمين .

أما بقية الخدم فهم هم . لم يتغير منهم واحد ، تقدم بهم الزمن وهم فى الدار كأنهم أشجار فى الحديقة ، وقد أحبوا سيبتهم رغم أمارتها وقسوة كلامها .. لم يشذ منهم أحد ، كانوا كلهم سواسية من أهل الكهف نموا معا دون أن يشعروا بالزمن ، ودون أن يشعر أحد منهم بتغير صاحبه .

عم بخيت الطامى ، وجرمون سائق الحنطور ، وبخيت السانس ومعيد البستانى ، وهانم وأم نجية وزهرة والجارية وعديلة هؤلاء كانوا طقم الخدم الذى يتولى العناية بربة الكهف ، وأضحى القصر بأهله الارستقراطيين نشازا فى حى الحلمية الذى انحدر به الزمن فلم يعد أهلا لتلك الارستقراطية .. وقام

بجوار القصر ببوت متواضعة وحوانيت كان بينها مبيض النحاس والطمعجي
وبائع اللب وعصير القصب ، التي لم تكن تتناسب قط مع أميرة هانم وعربتها
المطهمة وجرمون وثيابه الأثرية المزركشة .

وخف نشاط السيدة في المجتمع ، فقد تبدد مالها وضاع جهدها ، ولم
تعد تقوى على الخروج الا لعماما ، وقصرت نشاطها داخل الدار .

وشكت أم نجية ، وهي خادمتها الخاصة من ألم في الظهر فأمرتها
السيدة بأن ترفد في فراشها ، ولكن أم نجية التي لم تتخلف قط عن سيدتها
منذ خمسين عاما آيت الرقاد .. فصاحت بها السيدة غاضبة ان أوامرها يجب
أن تنفذ .. رقدت أم نجية . وعلم الخدم في الصباح أنها هي التي سهرت على
خدمة أم نجية في تلك الليلة .

وأبليت الخادم بعد بضعة أيام ، ولاحظ الخدم شحوبا على وجه السيدة ،
وأخذ يقلقهم منها نوبات سعال شديد تصيبها بين أونة وأخرى .

واستمرت السيدة في حركتها الدائبة داخل الدار وخارجها ، واستمر
الشحوب والسعال في الازدياد حتى تشاور الخدم فيما بينهم وصمموا على أن
يطلبوا من السيدة الرقاد .. ويعلموها بعزمهم على احضار طبيب ..

وتطوعت أم نجية لتبليغ القرار ، وقالت لسيدتها وقد انهمكت في عمل
بعض صديريات من الصوف لاحدى المبرات :

- يجب أن ترقدي ياسيدتي ، فأنت في حاجة الى الراحة ..

- من قال هذا ؟ اني في تمام صحتي .

- ولكن ..

- ليس هناك ، لكن اذهبي لعملك .

- ولكن رقدت في الفراش عندما امرتني بالرقاد ..

- لأن الخادمة يجب أن تستمع لأمر سيدتها .

وانصرفت أم نجية بخيبة رجائها ، وأخذ الخدم يهزون رؤوسهم اسفا
ويأسا .

وفي المساء دخلت السيدة الى حجرتها ، وقبل أن تأوى الى فراشها
فتحت قمترا ، وأخرجت منه صورة عتيقة صفراء وأخذت تحديق فيها برهة
ثم نظرت الى المرأة ، وأخذت تقلب البصر بين الصورتين ، صورة الشاب
الملئ بالقوة والحياة ، وصورتها التي تبدو في المرأة بيضاء الشعر مجمدة
الوجه معروفته ، وقد أودى الزمن بكل ما كان بها من نضارة وازدهار فبدت
كالورق الجاف . وهمست المرأة قائلة :

- آه لو كنت أعلم ، ما حزننت من أجلك قط ، لقد نجوت بنفسك من
سلطان الزمن ، وخرجت عن دائرة نفوذه ، انه لم يعد له عليك سيطرة ولا
تأثير .

ما أجهلني وقد ظننت انك حرمت متع الحياة .. أفي الحياة متع أم ، تعب
كلها الحياة ، وشقاء ونعاسة وجهد ضائع ؟

انك ما حرمت الا من التعب ، لقد وفرت على نفسك مشقة عدو السنين
وعدوها وراءك ، بعد حين سأخرج كما خرجت ، سنتساوى في النهاية ، وان
لم نتساو في طريقة الوصول . لقد خرجت سليما معافى .. وسأخرج محطمة
مهدمة مكدودة منهوكة .. آه لو علمت لحسنتك على الموت .

ورضعت شفتيها على الصورة ثم همست :

- أسمع لشفتي الجافتين أن تمسا شفتيك اللصصتين ، أيمكن ان تحتمل

تجاعيد وجهي ، أيمكن أن تغفر لي ما فعل بي الزمن وما جلبته السنون . ثم

أعادت الصورة الى القمطر وآوت الى فراشها .

وفي الصباح ذهل الخدم عندما أنبأتهم سيدتهم بأنها مسافرة ، وطلبت

من أم نجية أن نعد لها الحقائب لسفر طويل .

وانهمر الدمع من عيني أم نجية وقالت متوسلة :
- انك لا تستطيعين السفر يجب أن ترقدى ياسيدتى .

وصاحت بها السيدة فى لهجة أمرة :

- عجباً ، منذ متى ترفضين اطاعة الأمر ؟ انبئى جرمون بأن يعد
العربة للذهاب ، وأن يسأل لى عن موعد القطار الذاهب الى الصعيد ولم تجد
الخادمة بدا من تنفيذ الأمر ، وعادت تسألها عن تريد أن يسافر معها من الخدم
فأجابت باقتضاب :

- سأسافر وحدى .

ولم يكن هناك فائدة فى المناقشة ، وفى الساعة الثالثة شاهد أهل
الحوانيت المجاورة للقصر ، جرمون يرتدى حلته الرسمية ، وتحركت العربة
تحمل السيدة العجوز ووراءها عربة أخرى تحمل الحقائب وبعض الخدم .
ووصل الموكب الى المحطة ، وكان منظره غريباً على روادها ، وأخذ الناس
يحملقون فى السيدة العجوز العديدة القائمة المرفوعة الرأس ووراءها السائق
العجوز بحلته المزركشة بالقصب وبضعة خدم عجائز يهرولون حولها
ويفسحون لها الطريق .

ونلت السيدة من الباب الحديدى المؤدى الى القطار وحولها الموكب
العجيب والحارس الذى يرى التذاكر مأخوذة مشدوه ، وعنما ابتعدوا عن الباب
التفت اليه جرمون ثم همس فى أذن السيدة منكرًا .

- سيدتى : انك لم تتباعدى تذكره .

ونظرت اليه السيدة نظرة زجر وتأنيب جعلته يطرق برأسه ويخلد الى

الصمت .. واقتربت من عربة الدرجة الأولى ، ورفعت قدمها لتضعها على
درج الباب .

وفجأة ترتحت السيدة ثم تهاوت على الأرض جثة لا حراك بها . واندفع
اليها الخدم باكين مولولين ، وحمل أحدهم حقيبة يدها التى سقطت منها ، وقد
فتحت وتناثرت محتوياتها . وأخذ فى جمعها لاعادتها الى الحقيبة وكان يضعها
صورة لشاب فى مقتبل العمر ، وخاتم ، وتذكرتين للذهاب الى الأقصر بتاريخ
١٠ فبراير سنة ١٩٠٥ .

لقد دفع السيدة الى الرحيل حنين لا يقاوم .. وهى لم تنس التذاكر ، وان
كانت رحلتها تعدت الأقصر ، الى السماء ، رحلة ذهاب بلا إياب ، حيث لقاء
القوام الراحل مؤكد مضمون - ترى كيف يكون اللقاء أترى الزمن ميمحو
عنها آثاره فيلتقيان على قدم المساواة . أم أن الكاسب هو السابق الى
الرحيل .. ؟

جرّيمة

« أنا من المجرمين منتقمون »
« قرآن كريم »

كانت لى به صلة وثيقة فقد كان تسلّيتى الوحيدة فى البلدة المقفرة ..
وعندما كانت تجبرنى دواعى العمل على قضاء بضع ليال فيها أنجز خلالها
ما أود أنجازه .. كنت أنجأ إليه كلما وجدت من وقتى فسحة فنقضى هزيعا
من الليل نسمر أمام الركبة التى أشعلتها داخل كوخه المتواضع .

وكان محدثا ماهرا وقاصا ممتازا .. بلغ من العمر عتيا ، ومع ذلك فما
زال محتفظا بمثانة بنيانه ، ومازال يقوم بعمله كشيخ للخبراء على أتم وجه .

وعندما ذهبت الى البلدة آخر مرة بدا لى كأن هناك شيئا قد تبدل فيها ..
ولم يكن لى فى بادئ الأمر فرصة للتفكير فى كنه ذلك الشيء المتبدل ..
أو الذى أحسست بنقصه من البلدة .. حتى ضمنى المجلس المعتاد بالشيخ
ابراهيم .. وهنا تنكرت فجأة ذلك الشيء الذى افقدته فتساءلت فى دهش :

- أين « لهلوبة » ياعم ابراهيم ، لعلها تكون قد هربت كعاندتها .

- لهلوبة .. تعيش أنت يا سيدنا البيه .. حياتك الباقية .

- ماتت ؟ عجيبة ، كيف ؟

- محروقة ، حرق نفسها الله يرحمها ويرحمنا جميعا . الفاتحة على أمواتنا .

ومضت ثوان ونحن ننتم بمهمات خائفة ثم رفع الرجل كفيه ومسح بهما وجهه ، ثم أطرق محدقا في النيران التي انبعث ضوءها من أسفل فغمر لحيقه المسنرسة وأبرز تجاعيد وجهه . ثم انطلقت من صدره زفرة طويلة وقال بصوت عميق خافت : دنيا ؟

ووجدتني أحنق أنا الآخر في النيران ، فأتصور لهلوبة بعينيهما الزائغتين ونظراتها الشاردة ، وشعرها الأشعث المتطاير ووجهها الدائم الفزع وقسماتها المرئعة الوجلة وثيابها المتهدلة الممزقة التي تكشف عن صدرها وكنتفيعها وقد تكأكا حولها الصبية يسخرون منها ويهزؤون بها ، متخذين منها أضحوكة وتسليه مستثيرين غضبها بكل ما لديهم من وسائل المسخرية والسباب فلا تكاد تنهجم عليهم حتى يصيحوا بها في صوت واحد .

« اوعى النار يا لهلوبة ، فلا تكاد تسمع هذه الكلمة حتى تصرخ صرخة مدوية وتبدو فرعة كأنما توشك حقا أن تقذف الى جحيم مستعر ، ثم تولى الصبية ظهرها وتنطلق تسابق الريح ، كأن الجن في أثرها .

ويصفق الصبية طربا ، ينطلقون في أثرها صائحين مهللين حتى تختفى عن أعينهم هاربة بين المزارع وهي تعود ككلب مذعور .

وكننت أعلم أن الشيخ إبراهيم من أكثر أهل البلدة عطفًا عليها وبرًا بها ، وأنه كان يهيء لها المأوى ويطعمها من جوع ويؤمنها من خوف في الفترات المنقطعة التي تظهر خلالها في البلدة عائدة من المزارع بعد أن تحس قارصة الجوع ويزول عنها أثر الذعر الذي سبب لها الصبية العابثون .

وهزئت رأسي في أسى وقلت :

- مسكينة .. أبعد كل هذا الذعر من النار والهرب من الحريق .. تموت محروقة .. يبدو لي أن حياتها لها قصة فهل تعرف عن ماضيها شيئا يا شيخ إبراهيم ؟

- لقد كانت امرأة مجنونة .

- أعنى قبل أن تجن .. أما كنت تعرفها قبل ذلك ؟

ومضت فترة صمت تملك الرجل خلالها شرود شديد ، ثم سمعته يقول بصوت خافت كأنما يحدث نفسه :

- أعرفها ؟ أعرفها تماما ، عندما كانت أرجح النساء عقلا وقلقا وعندما كانت أسعد أهل الأرض طرا .

كانت زوجة هائلة قريرة النفس ناعمة البال .. ليس هناك ما ينغص حياتها الا أمر واحدة .. هو ، ضررتها ، أو زوجة زوجها الأولى فقد كانت زهرة .. الزوجة القديمة امرأة سليطة اللسان خبيثة النفس ، وكانت تبغض حسنية (وهو الاسم الحقيقي للهلوبة) بغضا شديدا ، رغم أن الأخيرة لم تتسبب في ايذاءها قط ، بل ان الرجل قد هجرها من فرط مرارتها ، ولأنه وجد أن حياته معها قد أصبحت جحيما لا يطلق .

وهكذا لم يكن هناك ما اقترفته حسنية سوى أنها أعجبت الزوج فأقحم على زواجها ، ورأى فيها طيبة نفس وجمال خلق ، فاستراح اليها ، وهذأت نفسه الى جوارها ، ولم يعد يرى الا راضيا هائلا مسرورا .

ونهبشت الغيرة قلب زهرة الأسود ، وبانت تفيض بالحقد والموجدة ، وأخذت تنتهز الفرصة لتوقع بها وتكيد لها ، وكانت حسنية تصبر على أذاها ، ولا ترد لها الكيد ، متوهمة أنها تستطيع كسبها بالحسن والمعروف .

ومرت الأيام والزواج يزداد من زهرة نفورا ، ولم يعد يذهب الى داره

القديمة الا لماماً ، فقد وجد الراحة والاستقرار فى داره الجديدة ، وزاد من ميله اليها وحبه فيها أن وضعت له الزوجة الجديدة ولدا ، ووجدت زهرة أن الأيام تمنع فى التكيل بها فترزق ضررتها البنين ونصيبيها بالمعم . فزادت من حقدھا على الحياة ، وكرهھا للناس ، وبانت نفسها تجيش بالثورة وأضحت كالجمرة الكاوية ، وضاق بها الرجل ، وبمرارتها وسونها ، حتى كان ذات يوم بلغ يوم السيل الزبى ، فطلقها ثلاثا .

ولست أدري كيف كان وقع الطلاق فى نفس حسنية ، ولكنها كانت امرأة هادئة عاقلة ، فلم تبد عليها شماته ولا فرحة ، بل على النقيض حاولت أن تهدئ من ثائرة زوجها أو تنبيه عن فعلته ، ولكن الرجل أمرها بالألا تتدخل فيما لا يعنيتها .

وكانت حسنية توجس فى نفسها خيفة ، وتخشى انتقام المرأة الجريحة المكلومة ، وتتمنى لو استطاعت أن تهرب بولدها وزوجها من البلدة ، حتى لا يصيبها منها أذى ، فقد كانت تعلم أنها قادرة على الشر لا تتورع عن أى منكر أو جرم ..

والنقت المراتان ذات يوم عقب الطلاق ، وتصدت لها المرأة المطلقة ، وقالت لها والحدق يأكل قلبها :

- لقد خلا لك الجو الآن ، فاهنئى وافرحى .

- أنا ما تمنيت لك الا كل خير .

- أنت ، سأعرف كيف أريك ، الأيام نبينا ، سأحرمك منه كما حرمتنى منه ، وسأحرمه من حياته كما حرمتنى من هنائى وسود عيشى ، سأشرب من دمه وأمزق لحمه وأفرى عظامه ، سأريه من منا أقدر من الآخر ، سأيتم ابنك ، وأجعلك تبكين بدل الدمع بما ، أنا وأنت يا حسنية والزمان طويل .

وعادت حسنية الى دارها وقد أفعم الخوف قلبها . وتملكها من تهديد

المرأة وهم شديد . وأحست بجوفها يغنى بمزيج من الفزع والحزن والتحفز والانتقام .

وسقطت الشمس وانلهم الليل . وحل موعد عودة الزوج وبدأت تعد الدقائق والثواني . وترهف السمع لكل أقدام تطرق قارعة الطريق وكل أصوات تقترب من الباب .

وتسلط الوهم عليها ، وبدأ يراود ذهنها خليط من التخيلات المنكرة ، فتصورت زوجها أعضاء محطمة وأشلاء مهشمة .

وانتصف الليل ، ولما لم يعد زوجها ، فأحست أنها توشك أن تجن . وتركت ولدها فى الدار وخرجت تهيم على وجهها ، تسأل الناس منهجة الصوت متحشجة الأنفاس ، حتى عادت الى الدار قبيل الفجر دون أن تشعر له على أثر .

وارتمت على الأرض تنشج باكية .

أين غاب زوجها ؟ وهو الذى لم يعودها الغيبة ؟ ولا سيما بعد أن طلق امرأته القديمة ؟

أيحتمل أن تكون المرأة الشريرة قد نفنت وعيدها ؟

أيمكن أن تقدم على هذا الفعل المنكر ؟

لم لا ؟ انها هى نفسها تشعر أنها تستطيع أن تقدم عليه .

أجل ، ان الحدق والكراهية والرغبة فى الثأر تهون كل شر ، انها قد باتت تتلف على أن تطبق على المرأة المجرمة ، القاتلة ، فتنقض زورها بأسنانها وتنهش قلبها ، بل أنه ليس هناك ما يرضيها ويهدئ ثائرتها ويبل حرارتها أقل من هذا الفعل .

ومضى اليوم أغبر منلهما ، وهى جالسة تمسك قلبها بيديها ، انها ما

زالت ترجو ، ما زال لديها بقية أمل فى عودة زوجها ، وفى أنه مازال على قيد الحياة .

وانتهى اليوم أو كاد ، وقبل الفسق سمعت على الباب دقات فقفزت من مكانها ، وقلبا بكاد يثب من بين ضلوعها .

ترى من يكون الطارق ؟ لعله هو ! أو لعله .. ولم تجسر على التفكير .. وفتحت الباب فإذا بأحد الخفراء يقف بالباب وقد بدا فى وجهه ما روعها ، وافقدها القدرة على النطق ..

وتحدث الطارق قائباها أنهم عثروا على جثة طافية على سطح النهر ، وأنهم لم يستطيعوا تبيين حقيقة صاحبها فقد كانت ممزقة الأوصال مشوهة الوجه ، وإن كانوا يرجحون كثيرا أنها جثة زوجها .. ولم تتبين المرأة بينت شفة ، ولم تصرخ ولم تولول ، بل علت وجهها ظلمة قاتمة وهزت رأسها ببطء وأنبأت الرجل أنها كانت تعلم ثم أطرقت ببصرها الزائغ الى الأرض ، وغمغمت قائلة :

- لقد عملتها ، سأعرف كيف أريها ..

ثم أغلقت الباب عليها وجلست برهة ذاهلة شاردة ، ثم نهضت وكأنها اعتزمت أمرا .

وأقبلت على طفلها فأمرته الا يترك الدار حتى تعود ، وأنبأته أنها لن تغيب ، فستذهب الى بيت خالته زهرة وستعود بعد دقائق .

وغادرت المرأة البيت تدب فى الظلام كالشبح ، وقد جمعت قساماتها وجعلت عيناها ولم تتجه الى بيت زهرة بل اتجهت الى الناحية المضادة ، ناحية الدكاكين والبوق ، وتوقفت أمام الببدال فابتاعت صفيحة جاز وعلبة ثقاب ثم يعمت وجهها صوب الناحية الأخرى من البلدة ، ساعية الى بيت زهرة .

وكان البيت يقوم فى ناحية منعزلة ، لا يكاد يحيط به سوى بضعة عيدان من الغاب وجنوع النخل ، وكانت الظلمة سائدة وانجو قد سكنت ربحه ، والدار قد بدت صامتة ساكنة وتلفتت المرأة حولها ثم أنزلت الصفيحة من على كتفها ووضعتها فى وسط الغاب وأخذت تجوس حول الدار موزعة الحطب والغاب وجنوع النخل ، ثم عادت الى الصفيحة ، وبدأت تسكب ما فيها خارج الدار على الجدر والأعشاب والحطب فلم تترك منفذا لهارب ، وأشعلت الثقاب وألقت به على الهشيم .

ولم تمض لحظة حتى سرت النار كلمح البرق ، وارتفع اللهب الى عنان السماء .. وأحاطت النار بالبيت ، ثم انتقلت اليه ووقفت المرأة تبتسم راضية ، وأحسّت أن قلبها قد ردتته النار ، وهذا اللهب ، وعادت الى البيت مسرعة لتطمئن على ولدها .

★ ★ ★

وصمت الرجل ووجدته يمد يده بماشة يقلب بها نار الركبة ، فعلا لهيبها ، وهبت الريح من الخارج تصفر وتعول ، وطال ضمته حتى عدت أستعته : وبعد ذلك ؟

ورفع كتفيه وهز رأسه وقلب شفته السفلى ، وبدأ لى أن صوته قد تحشرج وأنه لا يستطيع الكلام ، وكأنه يعانى ألما دافينا ، ولكن زفرة من صدره أعادته الى حالته الأولى ، وسمعته يتمتم :

- لا شيء هناك أكثر من هذا .

- كيف ؟ انك لم تقل لى بعد كيف جنت ..؟

- آه .. لقد عادت لتطمئن على ولدها ، فلم تجده .

- لم تجده ! وأين ذهب ؟

- لقد خشى البقاء وحده فى الدار ، فلحق بها عند خالته زهرة لقد كان

قَوِيلُ الرِّيَاءِ

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا
مَا شَاءَ اللَّهُ تَكُلْ أَمَةً أَجَلَ إِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴾
« قرآن كريم »

- لا ، لا . أنا لست مجنوناً . حتى اضيع يوماً بأكمله من أجل
« غدوة » .
- ليست المسألة مسألة « غدوة » ، انه واجب لا بد أن تؤديه ، انه
عمك و ..
- ليس بعمى
- عم أبيك
- ابن عم عم أبي
- ليكن ما يكون .. عمل أو عم أمك أو عم أبيك . انه قريبك وليس
له غيرك ، ولا أظن زيارته كل بضعة أعوام بالشئ الذى يشق عليك .. لا
سيما أن الرجل قد أرسل بدعونا لزيارته .. وليس من الخوف أن نخيب رجاءه .

- داخل الدار ، عندما اشتعلت النار ، لقد احرقته أمه ، هل عرفت كيف جنت ؟
- وتملكنى ذهول شديد ، وأخذت أهدق فى الكهل وهو يحدق فى النيران
وبنت لى تجاعيد وجهه رهيبه مخيفه ورأيت عبارات تنهال من مقلتيه الى
أخايد وجهه .. وعاد يتساءل بصوته المتحشرج :
- هل علمت كيف جنت ؟ ليس هناك فى جنونها أى عجب أما العجب
حقاً . فهو أننى الآن لم أجن ؟
- أنت ؟ أنت نجن ؟؟ وما شأنك أنت بها ؟
- انى زوجها ، أبو الطفل المحروق ، وزوج المرأة المجنونة ، غبت
عنهما يومين فعدت لأراه رماداً ، وأراها مخبولة هائمة ، لا تعرف من أكون .
- ولكن ، جثة من كانت اذن تلك التى عثروا عليها طافية فوق النهر ؟
- جثة قتيل آخر .
- وأنت ؟ أين كنت فى غيبتك ؟
- كنت أقتل القتل .. كنت أكبر الجريمة وأحكم صنعها واخفائها . غبت
بضعة أيام قتلت فيها غريم لى كنت أبغضه وأحقد عليه . لقد استدرجته الى
كمين ثم أطبقت عليه فأخمدت أنفاسه ونزعت روحه وتملت بجسده شر تمثيل
حتى شوهدت معالمه . ولم يعد أحد يستطيع تمييزه ثم ألقيت بجثته الى النهر ..
- ونفضت يدي من الجريمة والثقة تملأ نفسى فى أن احدا لن يكشف
أمرها . كانت جريمة محكمة عرفت كيف أخفى منها كل أثر وعرفت كيف
أحبك الأطراف وأحكم التدبير وأخفى المعالم . ولم يستطع احد من أهل البلدة
أن يعرف الجانى أو يدل على المجرم ولم يكتشف أحد جريمتى ، ولم ينزل
بى أحد أى عقاب ، إلا واحد يرمقنى من عال : اكتشف جريمتى وأنزل بى
العقاب وأى عقاب .

- أنت تعرفين رداءة الطريق وطوله وكثرة المطبات التي به ، قلت لك أنه يجب أن نعتبره واجبا . والواجب ليس دائما بالأمر الممتع السهل .

- ثم أن السماء مليدة بالغيوم والرياح تهب قبيلية باردة . ولا أظن النهار سينقضى دون أن تمطر السماء . فماذا تفعل اذا انهمرت علينا سيولا في الطريق وانقلبت أتربة الطريق أوحالا ، وأصبحت العودة ..

- أرجوك ، كفى تخميئا وتشاؤما . ان السماء لن تمطر والجو عاوى . ثم هب أنها أمطرت فلن تمطر الا بضع قطرات لن تغلق الطريق ولن تجعل السير مستحيلا . اننا لم نسمع من قبل في مصر عن السيول التي نتحدث عنها . أرجوك ، لا تكن مكسالا . انه عمك أنت وليس عمى أنا .. قم وارزد ملابسك حتى لا نتأخر .

- أمصرة أنت على الذهاب .

- قم ، قم . اننا سنستسلى بالسفر كثيرا .

وهكذا أقنعت ليلي زوجها محمود بالسفر لقضاء يوم الجمعة في عزبة عمه عبد الفتاح بك شلبي المستشار السابق .

والواقع أن كلمة « عزبة » بها شيء من التخميم والمبالغة ، فقد كانت الأرض كلها لا تتجاوز العشرين فدانا زرعت معظمها أشجارا للفاكهة وتوسطها البيت الذي يقطن فيه الرجل ، وهو يعتبر من أفخم البيوت الريفية . وقد ابتاع عبد الفتاح بك الأرض والبيت منذ بضع سنوات عقب حالته الى المعاش .

- وكان الرجل يرغب في تمضية ما تبقى من حياته في هدوء وسكينه .. لا سيما وأنه كان وحيدا عاش أعزب بلا زوج ولا بنين لا يؤنس وحدته غير أم أحمد الطباخة التي ظلت في خدمته منذ ما يقرب من الثلاثين عاما .

وانتهى محمود ويلي من ارتداء ملابسهما وبدما رحلتهما بالعربة في الطريق الزراعى . وفى الطريق تساءلت ليلي ضاحكة :

- ترى أما زال بيت عمك مسكونا ؟

- أتصدقين تلك الخرافات ؟

- ألم يقل لنا عندما ابتاعه أن الشائعات تجزم بأنه مسكون وأنه لهذا اشترى البيت والأرض التي حولها - كما قال - بالتراب ؟

- لعل العفاريت تساعد في العمل في الأرض .. ان أجر العامل اليوم مرتفع فلعله يستعيز بالعفاريت عن العمال .

قال محمود جملته ساخرا ثم استغرق الاثنان في الصمت مرة أخرى . وأخذت العربة تهب الطريق وهي تقفز بين آن وآخر اذا ما صادفها مطب .

لندع العربة في الطريق ولنسبقها الى البيت ، فتجد العجوز قد استلقى في أحد المقاعد المستطيلة المريحة وقد ارتدى جلبابا أبيض ووضع على كتفه عباءة ثقيلة من الصوف ، وغطى رأسه بطاقيية استقرت حافتها على أذنيه وأخفت كل جبينه وجزءا من حاجبيه ، وبدأ وجهه نحىلا مجددا قد تناثرت فيه الشعيرات البيضاء .. واستقر المنظر على مقدمة أنفه وتهدل شاربه الأشيب على شفتيه ، ومن أسفل الجلباب بدت ساقاه النحيلتان وقد غطتها ساقا الصروال الطويلتان .. ودست قدماء في البننوقلى الصوف ، وأمسك بيديه إحدى الصحف بقلب عينيه بين أعمدتها ثم أخذ ينظر الى الساعة المعلقة على الحائط بين آن وآخر . وبدت بباب الصالة التي استقرت فيها العجوز أم أحمد الطباخة بجسدها السمين ورأسها المربوط بالمنديل « أبو أوية » وقالت مقسالة :

- ألم يأت محمود بك ؟

- لم يأت بعد ، لعله فى الطريق .

- أو لعله لن يأت .

- لا أظن ، فلا بد أن يكون خطابى قد وصل اليه ، وقد تحدث عليه

فى الحضور ، فانى أريد أن أثبت فى هذه المسألة التى تشغل رأسى .

- أية مسألة ؟

- أنت تعلمين أنه وارثى الوحيد . ولا بد أن يؤول اليه البيت . وقد

يبدو البيت والأرض ارتا محترما يستحق أن يشكرنى عليه . ولكنى فى الواقع

عندما أدخلت الى نفسى أحس بشيء من تأنيب الضمير عندما أفكر أنى سأفرض

عليه هذا البيت المشؤم ، وأن هذه الشائعات التى تحيط به قد تصدق فيصيبه

شؤمه وتلحق به لعنته .

- إذا كنت تخشى عليه منه فلم لا تبيعه ؟

- اننى لا أريد أن أبيعته وأنا حى ، فأنا لا أخشى على نفسى منه ، بل

انى فى الواقع شغوف بأن أرى التجربة بنفسى .. وأرى ما اذا كان هذا الشؤم

المزعوم سيصيبنى ، أم هو لا يزيد عن حديث خرافة وشائعة مرجف ، انى

لأرى نفسى خير محل للتجربة فقد شارفت على السبعين ولا أظن نهايتى

ستأخر كثيرا . ولذا فلت أهنم كثيرا بالطريقة التى سأنهى بها ، ولا

يزعجنى بناتا أن أموت على الفراش فى هدوء وسكينة أو أموت - كما هو

مفروض على كل مالك لهذا البيت - موته عنيفة .. فسواء عندى الموت

العنيف أو الطبيعى ، كلها موته ستنتهى بنا الى نفس المآل ولست أخشى النهاية

لأنى قد شارفتها ولكن الذى أخشى عليه ، هو المسكين الذى سيؤول اليه هذا

البيت ، انه ما زال شابا .

- إذن فليبعه هو .

- لا أظنه سيرضى ، حتى لو صدقت الشائعة على .. وانتهيت الى

مصير أسلافى من ملاك البيت ، فالإنسان عندما يكون فى مثل شبابه وفى

مثل حيويته يصعب عليه أن يصدق هذه الظنون ، ولا يملك الا أن يسخر بكل

ما هو غير كائن ولا ملموس من أشباح وأرواح ولعنات وشؤم . ان تفكيره

الواقعى يدحر أمامه كل تلك الأوهام ، ولا أظن جمال البيت الا بمغزوة

بأسبقائه ، وأغلب الظن أنه حتى لو حاول بيعه فلن يجد له مشتريا بسهولة .

- على أية حال انه أدرك بنفسه ، وهو المسئول عما يملك ..

- ولذا قد دعوته حتى يكون على بينة من أمره .

★ ★ ★

فى تلك اللحظة كان محمود يقترب بعربته من قنطرة على احدى

الترع ، وعندما شارف حافة التربة وجد حبلا يصل بين حافى القنطرة ويشد

عليه الطريق ، وأنبأه أحد الفلاحين أن القنطرة بها خلل وأن المرور محول

الى طريق جانبى متفرع من الطريق الأصلي حيث وضعت قنطرة مؤقتة

تستعمل لعبور التربة حتى يتم اجراء الاصلاح بالقنطرة الأصلية ..

وأشار الرجل لمحمود على الطريق الذى يتبعه ، فأخذ محمود فى

تحويل اتجاه العربته ثم عاد أدراجه ليتبع الطريق الآخر .

وكان الطريق ضيقا شديدا الوعورة اذا لم يكن يستعمل لغير الدواب .

ولكن السير لم يطل به فيه حتى وصل الى حافة التربة ووقف أمام القنطرة

الثانية ..

وتردد محمود برهة قبل أن يعبر القنطرة ، فقد كان منظرها لا يشجع

كثيرا على عبورها بل كان عبورها يعد مغامرة كبرى ، ومع ذلك فلم يطل

تردده كثيرا ، وسرعان ما ضغط على محرك البنزين (الاكسلاتير) وسمع

قرقعة الألواح تحت عجلات السيارة وفى ثانية عبرت السيارة بسلام ..

وضحك محمود قائلا :

- ربنا يستر في السودة ..

ثم أخذ يخوض في الطريق الضيق مرة أخرى حتى وصل الى الطريق
الأصلى ..

ولم يطل بهما السير كثيرا حتى أشرفا على الدار ولاحت لهما الصفوف
المتكاثفة من أشجار الجازورينا التي تحيط بأشجار الفاكهة والتي تحدد الأرض
من الخارج وتشققها في صفوف متقاطعة لتحجب عنها الريح .. ودارت العربية
يمينا لتدخل في بوابة كتب عليها : طريق خاص ، وسارت بين أشجار
الجازورينا الكثيفة العالية .

وكانت السماء مليئة بالسحب السوداء الداكنة .. والريح تهب وقذاك
صرصرًا عاتية .. فتنفذ بين أوراق الجازورينا الرفيعة لتحديث بها صوتا عجيبا
أشبه بالنواح والأنين .

وأنتصت ليلى في دهش ونساءلت :

- محمود ، أسمع هذا ؟

- ماذا تقصدين ؟

- هذا الصوت العجيب الشبيه بصوت امرأة تولول وتنوح .

- أنتعنين صوت الرياح تنفذ خلال أشجار الجازورينا ؟

- أجل .. انى ما سمعت الريح تولول يمثل هذا الصوت الحزين .

وأخيرا وصلت العربية .. ووقفت أمام الباب الخشبي للحديقة التي تحيط
بالدار ، والتي تكاثفت فيها الأشجار حتى حجب كل ما حولها .. فاستقبلهما
بستانى كان يعمل بالحديقة وقادهما الى الباب الداخلى حيث وقف العم يحييهما
مرحبا .

وعند الانتهاء من الغداء والبدء في احتساء القهوة بدأ الحديث في

موضوع البيت والشائعات التي تحيط به .

قال العجوز مجيبا على سؤال وجهته ليلى :

- الواقع انه ليس مسكونا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة وأظننى أدرى
الناس بذلك . فانى أستطيع أن أؤكد إننى خلال كل هذه السنين التي قضيتها
فيه لم أر به شيئا يثير الوسواس أو يبعث على الشك . لا أصوات ولا أشباح
ولا أى شيء من هذا القبيل . وأستطيع أن أجزم أن كل ما يلصق به من هذا
القبيل لا يعدو الخرافات أو الاشاعات الكاذبة التي لا أصل لها والتي يتناقلها
الناس بعضهم عن بعض .

وصمت الرجل برهة حتى بدأ كأن حديثه قد انتهى .. ولكنه جذب من
سيجارته نفسا طويلا نفخه في الهواء ثم عاد يقول :

- ولكن ذلك لا يمنع من أن ثمة شيء آخر يلصق بالبيت . قد يكون
حقيقة أو مصادفة .. وهو أنه بيت مشؤوم ما من انسان تملكه الا وانتهى
بفاجعة ومات قتيلا .

وتساءلت ليلى في دهشة :

- أو حدث ذلك حقا ؟

- الى حد ما أعلم ، نعم ، فأنا أعرف ثلاث فواجع حدثت لثلاثة من
ملاكه .

- أمر عجيب !

- الأول على بك هاشم .. والثانى رجل ثرى ايطالى يدعى مسيو
سكارابى ، أما الثالث فكان رشاد بك زكى .. ولقد كانت الاصابة - اصابة
الشؤم - فى ولديه وليس فيه .

وعادت ليلى تسأل في صوت خائف ولهجة وجلة :

- كل هؤلاء تظهر عفاريتهم فى البيت ؟
- لم أقل ذلك ، ان ذكر العفاريت لم يجر على لسانى . كل ما قتله هو
أنهم قتلوا !

وهز محمود رأسه متسائلا :
- وكيف قتلوا ؟

ووضع الرجل كفه على جبينه كأنما يعتصر ذهنه أو كأنه يجمع شتات
ليقص القصة . وبعد فترة من الصمت بدأ حديثه قائلا :

- الأول ، على بك هاشم ، هو الذى شيد البيت وزرع كل هذه الأشجار
المتكاثفة حوله . ويبدو لى أنه كان مخلوقا مقننرا وأنه لم يكن يبنى من هذه
الأرض ربحا وأنه شيد البيت لمزاجه الخاص فقد أنفق عليه مبلغا طائلا ، حتى
لم يعد البيت بيتا ريفيا بل قصرا منيفا . كما نقتن فى عمل حديثه .

وكان الرجل يعيش مع زوجته وحدهما ، ولم يكونا قد أنجبا أبناء ، وكانا
يقضيان معظم وقتهما فى هذا البيت رغم أنهما كانا يملكان بيتا فى القاهرة ،
وقد تعود الرجل خلال نزوله فى البيت أن يدعو الكثير من الأصدقاء والأقارب
لزيارته ، وكان كثيرا ما يقيم الولائم والحفلات ، فقد كان مخلوقا كريما
محبويا .

وفى ذات يوم دعا أحد أصدقائه وزوجته لقضاء بضعة أيام فى البيت
ليتمتعوا بالمناظر الريفية ، وعندما جلس الأربعة للغذاء فى أول يوم وجدوا
الطباخ قد أعد لهم مائدة حافلة بأشهى الأطعمة ، وكان أهمها قارب طويل به
سمكة أعدت بالمايونيز .

وقبل أن يبدأ الطعام قال الصديق ضاحكا وهو يشير الى السمكة :

- يقولون ان المايونيز كثيرا ما يسبب التسمم ولكن منظر السمكة - مع
ذلك - يغرينى بالانتحار .

ثم دفع ملعقته فى السمكة وهو يقهقه قائلا :

- آل يا روحى ما بعدك روح ، افرأ المفاتحة على روحى يا هاشم بك
واكتب على قبرى ، مات شهيد المايونيز .

وجاوبه هاشم على قهقهته يقهقهة أعلى منها وقال وهو يغترف من
المايونيز فى طبقه . والله لن أعيش بعدك ثانية .

وصمت عبد الفتاح بك برهة ثم أطلق من صدره تنهيدة حارة وأردف
قائلا :

- وفعلا لم يعيش بعده ثانية ، لقد مات الأربعة ، الرجلان وزوجتهما
ماتوا جميعا متسممين من طبق المايونيز .

وقد تبدو لنا الحادثة طبيعية ولكن أهل الناحية أبوا الا أن يلصقوا النحس
بالبيت فقد استكثروا على طبق المايونيز أن يصرع أربعة . ولو كان التسمم
قد اقتصر على صاحب البيت وزوجته لكان أمرا معقولا ، اما أن يصرع
الأربعة مرة واحدة فهذا لم يكن فى نظرهم بالأمر الطبيعى .

ومرت الأيام بعد ذلك والدار خاوية على عروشها ، اذ لم يجسر أحد
من الورثة على أن يغامر بسكنائها ، حتى هيا الله لها مالكا جديدا ، هو مسير
سكاربى ، أقدم على شرائها ساخرا من تلك الشائعات التى يثيرونها حولها ،
فأقسم أن أول أكلة يتناولها فى البيت لابد وأن تكون طبقا من المايونيز .

وفعلا افتتح البيت بأكلة مايونيز ، ولم يمت بالطبع ، رغم أن أهل
الناحية ظلوا يتوقعون موته بين آونة وأخرى .

لم يمت الرجل بالمايونيز ، اذ لم يكن الشؤم يحل بنفس الطريقة ومع

ذلك فان نهايته سرعان ما حانت ولقى الرجل مصرعه بطريقة جديدة .

كان مسيو سكارابي من أثرياء الأجانب الذين يقطنون مصر ، وأظنه كان يمتلك مصنعا للسيارات ، وكانت هوايته المحببة هي ركوب الخيل ، وقد تنوهمون من مجرد قولى انه كان يهوى ركوب الخيل ، انه لابد قد سقط من فوق جواده وبق عنقه ، وهذا ما كان يتوقعه فعلا كل من حوله ، ولكنه مع ذلك لقي مصرعه بطريقة مبتكرة لا تخطر على بال .

كان الرجل يخرج لتدريب جواده على القفز ، وقد رغب في أن يهوى في الحديقة ساحة للتدريب يقيم فيها بضعة حواجز . وكانت توجد في ركن الحديقة ، الساحة التي ينشدها ولكن احدى شجيرات الكافور الضخمة كانت تقف عقبة في سبيل اعدادها ، فأمر رجاله من الفلاحين بآزالة الشجرة .

وقد تكون لديكم فكرة عن كيفية قطع الشجرة . ان أول ما يفعلونه هو ازالة الفروع العالية حتى يبقى الجذع وحده ثم يحفرون حول الجذع ويقطعونه من جانب واحد ويربطونه من أعلاه بالحبال ثم يجذبونه تجاه الجانب المقطوع فيهوى الى الأرض .

ولقد قام الرجال بقطع الفروع كلها تقريبا فلم يبق سوى فرع كبير لم يكس يضربه الرجال بضع ضربات حتى هوى ، ولكنه لم يسقط الى الأرض بل ظل طرفه الأعلى مسندا الى شجرة مجاورة وظل الفرع معلقا بين جذعه الأصلي والشجرة الأخرى ، وترك الرجال الفرع المعلق ، فقد كان من العسير أن يقطعونه للنهية حتى يهوى ، وأخذوا بضربون الجذع الأصلي من أسفله .

ولكن سكارابي كان من نوع عجول حامى الطبع لا يعرف الصبر ، وساءه أن يظل الفرع معلقا ، فسرعان ما أخذ من أحد الرجال الفرع المعلق ، فقد كان من العسير أن يقطعونه للنهية .

وكان الرجل خفيف الحركة مفتول العضل ، وسرعان ما كان يقف عند

أول الفرع وأخذ يضرب ببطلته الجزء الذى لم يتم قطعه وبعد بضع ضربات أوشك الجزع أن يهوى ، ورفع سكارابي يده بالضربة الأخيرة ولكن توازنه اختل فهوى الى الأرض .

ولكى يتم المنظر ، هوى الفرع المعلق فوقه ، فهشمه تهشيمًا ومزق جسده أربا .

وأخذ العجوز الى الصمت برهة ريثما يتمالك أنفاسه ويستعيد فى ذهنه الجزء الثالث من القصة .

وبدأ على ليلى القلق والخوف مما يوشك أن يقص ، فقد كانت تعرف أنه سيقص مصرع الطفلين ، وليس أشق على النفس من حواث الأطفال .

وأخيرا عاود الرجل حديثه قائلا :

- أما رشاد بك زكى وهو المالك الثالث فقد كان من كبار التجار ، ويبدو لى أنه لم تكن لديه فكرة عن الشؤم الذى يلزم البيت ، فقد تمت الصفقة بمسرعة ، وكانت قد مضت مدة طويلة على الحادثة الأخيرة ، وظل البيت خاليا حتى نسى الناس أمره .

وكان رشاد بك من كبار تجار القطن ، رجلا مقتدرا ثريا ، وقد ابتاع البيت لزوجته وأولاده ، وأخذ فى تهذيب الحديقة وتقليم الأشجار ، وسرعان ما عاد الى البيت منظره ورونقه وبهجته .

وكان أول تجديد قام به هو بناء حوض للسباحة لولديه خالد وإبراهيم اللذان لم يتجاوزا التاسعة .

وكان حوض السباحة هو السبب فى هذه المرة .

لم يغرق الطفلان ، لان الغرق مينة معقولة . فضلا عن أنه لم يكن هناك

مبرر للفرق والطفلان يجيدان السباحة .

ولكنهما مع ذلك ماتا فى حمام السباحة .

وقعت الحادثة فى احدى الليالى ، وقد خطر لأحد الطفلين أن يذهب للمسباحة ليلا ، فمرض على أخيه الفكرة وتسلا الاثنين من البيت دون أن يشعر بهما أحد ، وذهبا الى الحوض فى الظلمة المذلمة ووقفا على سلم القفز ، وقفزا .

وكان الحمام فارغا ، وهبط الطفلان على رأسيهما الى أرض الحمام ، ولم يكتشف أحد الحادث حتى الصباح عندما ذهبت الأمم تبحث عن طفلها فلم تجد سوى الجثتين ويقع الدماء وفئات المخ المتطاير .

ولم يكد الرجل ينتهى من حديثه حتى اندفع الباب المؤدى الى الحديقة والذى لم يكن قد أغلق جيدا تحت وطأة الريح وهبت الريح عاتية تعصف بالمسائر وأعطية الأثاث ، وتدفع أمامها أوراق الصحف الملقاة على الأرض .

أرهفت ليلى أنذيتها وأخذت تنصت فى عجب مشوب بالخوف وقالت فى صوت خافت :

- أسمع ؟

وتساءل عبد الفتاح بك فى اهتمام : ماذا ؟

- هذا الصوت .

- أيو صوت ؟

- صوت العويل والنواح الذى يصاحب هبوب الريح .

- أسمعونه أنت أيضا ؟

- أجل ، أجل .

وكان محمود قد نهض فأغلق الباب وعاد يقول فى هدوء :

- انه صوت الرياح تعبت بالجازورينا .

وصدق العجوز على قوله وهو يهز رأسه فى تودة قائلا :

- أجل انه صوت الرياح ، انه لا يمكن أن يكون سوى ذلك وصمت برهة ثم أردف قائلا كأنه يتم بقية حديثه :

- هذه هى المأسى التى حدثت لاصحاب البيت ، لم تكن هناك أشباح ولا أرواح . ولكن الفلاحين يابون أن يصدقوا ذلك .

ولم يكن من المستطاع صد تيار الشائعات التى أخذت تنسج القصص المحكمة عن الجنية التى تطوف بالدار مولولة نائحة ، لاسيما وأن هذا الصوت الذى سمعتموه الآن كان يصاحب كل حادثة .

أجل ، ان هذا النواح والعويل الذى يصدر من عبث الريح بأشجار الجازورينا قد سمع فى كل حادثة ، لقد تحدثت عنه الخدم فى يوم أكلة المايونيز ورواه الرجال يوم حادثة الشجرة ، وجزم به الخفير ليلة سقوط الطفلين .

وضحك محمود واعترض قائلا :

- ان الصوت لايد أن يصدر كلما هبت الريح ، ولايد أن صادفت الحوادث الثلاث أياما ذات ريح .

- قولك معقول ، ولكن لا أحد يقبل تصديقه هنا . انهم يابون الا أن ينسبوه الى الجنية الباكبة المعولة ؟ على أية حال ليقل الناس ما يقولون ، لقد صممت أنا على أن القى التجربة بنفسى . انى لمت صغيرا ، وانى لأتوقع النهاية بين آونة وأخرى ، وسواء عندى مت فتيلة أو مت موتا طبيعيا ، ولكن الدور عليك أنت انك أنت الذى سترث البيت وانى أخاف عليك أن تبتلى به .

ولم يتسطع محمود أن يكتم ضحكته وقاطعه بقوله :

- لا نخش شيئا . ان شاء الله ستتمتع بعمر طويل وسأتمتع بعنك بعمر أطول ما بمننا لا نأكل المايونيز المسموم . ولا نتسلق فوق قمة شجرة ولا نقفز في أحواض السباحة الفارغة .

- أوافقك على كل ما تقول ، ولشد ما يسرنى منك شدة إيمانك وتفانك وعدم اعتقادك في هذه الخرافات .

وكانت الساعة الرابعة عندما بدأت العربية تتحرك بمحمود وزوجته عائدة بهما الى القاهرة وكان عصف الريح وكفهرار السماء يشتد . بل ان الرذاذ قد بدأ يتساقط فعلا .

وبعد برهة قال محمود وقد اقتربا من مفترق طريق يؤدي من اليسار الى طريق ضيق :

- أظن أن هذا هو الطريق الذى يوصل الى القنطرة الجديدة الذى عبرناه فى المجيء .

وأجابت ليلي دون تفكير وهى ترقب المطر الذى أخذ يشتد :

- أظن ذلك .

ونلف محمود فى الطريق الضيق ، وأخذت العربية تهبط فوق المطبات واشتد انهيار المطر . وتساءلت ليلي :

- لماذا لا تشغل مساحة الزجاجاة حتى تكشف الطريق أمامك .

- انها لا تعمل . والطريق واضح .

ومضت فترة طويلة دون أن تصل العربية الى القنطرة ، ودون أن يبدو أثر للترعة ، وقال محمود :

- أظن من الخير أن نقف لنمسح الزجاج فانى لا أكاد أبصر شيئا أمامى ..

وغادر محمود العربية وأخرج منديله ومسح الزجاج ثم عاد الى مقعده وواصل السير .

ومضت فترة أخرى دون أن يبدو للقنطرة أثر ، وقال محمود :

- الظاهر أننا قد أخطأنا الطريق .

- انى أرى طريقا على يميننا ، اتجه اليه .

- لا . لا ان من الخطر التخييط ، وانى أرى من الأفضل أن نعود من نفس الطريق الأصيلى ، ثم نأخذ الطريق الصحيح .

وأخذ محمود يغير اتجاه العربية ثم عاد القهقرى مرة أخرى .

وبدأ الظلام يسقط ، فلم نعد العربية الى الطريق الأصيلى الا والظلمة قد اشتدت والنهار قد ولى

وكان المطر مازال ينهمر فى قوة ، والريح تشتد والعويل يأتى من بعيد حتى يكاد لا يسمع .

وتمهل محمود فى السير ، وتساءلت ليلي :

- لماذا لا تضئ النور الكبير ؟

- الظاهر أنه يوم نحس . انه لا يضئ ، ربما قد حدث تماس أو ربما تكون المصابيح قد احترقت .

وبعد برهة توقف محمود وأخذ يمسح الزجاج مرة ثانية وقال ليلي :

- أظن هذا هو الطريق الصحيح ، انى أذكر أن شجرة الكافور هذه كانت على يمينه .

ومرة أخرى نخل محمود فى الطريق الضيق ، وسارت العربة الهويئا ،
وقال محمود فى ضيق :

- انى لا أكاد أبصر شيئا أمامى ، لقد عاد المطر يغطى الزجاج ما
العمل ؟

- سأفتح زجاج النافذة وأطل برأسى منها لأرشدك على الطريق وعليك
أن تسير بمنتهى البطء .

- ولكنك ستعرضين للبرد .

- ليس أمامنا سوى ذلك ، والبرد محتمل .

وبدأت ليلي الحملقة من النافذة وقد أطلت منها مائلة بجذعها مادة عنقها
الى الخارج وهى تقول بين آونة وأخرى : يمينك أو يسارك أو رويدا رويدا .
وفجأة صاحبت ليلي بصوت ملؤه الفرع :

- قف . قف . ان أمامك حفرة كبيرة توشك أن تهوى فيها وضغط
محمود الغرامل بعنف فتوقفت العربة مرة واحدة .

واضطجعت ليلي على مقعدها وقد تلاحقت أنفاسها واشتدت دقات
قلبها . وغادر محمود العربة وسار بضع خطوات أمامها ليستكشف الهاوية
التي كان يوشك أن يتردى فيها ، فلم يجد شيئا ، ووجد الطريق معبدا أمامه ..
فصاح بليلي :

- أين هى تلك الحفرة ؟

- لقد رأيته تفغر فاما وهى توشك أن تبثلنا يجب أن نعود يا محمود .

انى خائفة ، انى أرتجف .

- خائفة مم !

- خائفة من كل شيء .. من الظلمة والمطر ومن عويل الرياح ان من

الجنون أن نحاول العودة هذه الليلة . يجب أن نعود الى بيت عمك ونقضى
ليلتنا به ثم نرحل فى الصباح ، انى أخشى أن يكون شغوم الدار قد لحقنا ،
فان صوت العويل والنواح يطن فى أذننى طنينًا مفرعا .

- ما هذا الجنون الذى تهرفين به ؟ ما لنا وللدار ، والعويل والنواح ،
أخرجى من رأسك كل هذه الخرافات . لا تدعى قصص العجوز تؤثر على
أعصابك ، انك امرأة متعلمة وعيب عليك أن تفكرى هذا التفكير .

- أرجوك يا محمود أن تعود بنا . ان اليوم يبدو نحسا من أوله انهم
كلهم كانوا يسخرون من الشائعات كما تسخر أنت وكلهم راحوا ضحية
سخريتهم .

- ليلي ، أرجوك أن تكفى عن هذا الهذيان .

- أى هذيان ؟ ألم تسمع قول عمك ان كل حادث كان يصاحبه هذا
العويل والنواح الذى يسمع من هبوب الرياح ؟

- ولكن مالنا نحن وكل هذا ، حتى لو صدق كل ما تقولينه فاننا أبعد
ما نكون عن شغوم هذه الدار . انه لا ناقة لنا فيها ولا جمل . أنسييت أن
صاحبها مازال على قيد الحياة ؟ وانه اذا كان هناك شغوم واذا كان عويل الرياح
ينثر بحادث فانه هو الذى سيتعرض له لا نحن . اننا لم نرث الدار بعد . وما
دام عبد الفتاح بك مازال على قيد الحياة فيجب أن نضع فى بطنينا بطيخة
صيفى وألا نخشى من هذه الخرافات التى يزعمونها ، هيا أيتها البلهاء وأدع
للعلم العجوز بطول العمر حتى يقينا لعنة الدار . هيا ولا تكونى حمقاء .

واتخذ محمود مكانه أمام عجلة القيادة وهو يحاول التضاحك وعادت
السيارة من جديد متجهة صوب القنطرة التى يقضى اليها الطريق الضيق
وعادت ليلي تطل برأسها من باب العربة لترشد محمود فى سيره .

وبعد برهة قالت ليلي .. يبدو أننا نقترّب من التّرفة . حمدا لله اننا اهتدينا الى الطريق خذ حذرنا جيدا حتى نعبّر القنطرة بسلام . لا تتحرّف هكذا الى اليسار ، أمسك يمينك . أجل هكذا . يمينك ، يمينك . تمهل . تمهل اننا نقترّب من القنطرة .

واستموت العربية تتقدم . وعلى حين غرة صرخت ليلي صرخة فرع : محمود ، قف ، قف .

وصاح بها محمود ناهرا :

- ليلي .. كفى عن هذا الصراخ انك مستقذّفين بنا الى التّرفة ، ان أعصابك متعبة فأرجوك أن تنامي . أو تغمضى عينيك حتى أعبّر التّرفة . أنك بصراخك تجعلين عجلة القيادة تضطرب فى يدى .

ولكن ليلي كانت مستمرة فى صياحها كأنما قد أصابها جنة :
- قف ، قف ، قف .

وهبت الريح معولة نائحة . واستمرت هى تصبح بملء فيها :

- قف ، قف . لقد ضللت الطريق . ليس أمامنا قنطرة .

وفى تلك اللحظة هوت العربية الى جوف التّرفة .. وضاع صراخها بين القرقة وعويل الرياح .

★ ★ ★

وأفاقت ليلي لتجد نفسها راقدة على الفراش فى أحد الممشفيات ، ولتعلم انها نجت بأعجوبة وأن زوجها قد قضى عليه فى حادث انقلاب العربية فى التّرفة . واندفعت تصرخ كالمجانين وتصبح بمن حولها :

- مستحيل ، مستحيل . لقد قال اننا أبعد ما نكون عن لعنة الدار . ان

البيت لم يصبح لنا بعد ، وان عمه مازال على قيد الحياة ، وهو الذى يجب أن يحل به الشؤم لاتحن . أجل ، أجل . ان عويل الرياح لا يعيننا . فليس لنا بكل هذا أية صلة .

ولكنها عندما أفاقت مرة ثانية علمت أن المسألة ليست مستحيلة كما كانت تظن ، لأن مقف البيت قد خر على صاحبه فأرداه قتيلا فى جلسته .. وعندما أخرجت جثته من بين الأنقاض تبين أن ساعته قد وقفت على الساعة السابعة ، الساعة التى انقضت عليها فيها السقف فحطم جسده .

وعندما أخرجت جثة محمود من التّرفة كانت ساعته قد وقفت على السابعة والخمس دقائق .

لقد ورث الدار لمدة خمس دقائق .. كانت كافية لأن يحل به شؤمها ..

نقمة سيد الانبياء

﴿ قال اتي عبد الله أتاني الكتاب
وجعلني نبيا وجعلني مباركا أين ما
كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة
ماكنت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني
جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت
ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك
عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه
يمترون ﴾ .

، قرآن كريم ،

ارتد الراعي ببطء حذرا من حافة الهاوية ، وقال مشيرا بعصاه الى
جوفها الثاني السحيق :

- لا فائدة هنالك .. لقد ضل سبيله بين الأشواك في جوف الهاوية ..
خير لنا أن نعود الى القطيع ، وليدير الله أمرنا وأمره .

وعلى الصخور الصلدة وقف بجواره رجلان : رجل مثله في مقتبل
عمره وميعة صباه .. وآخر قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا .. وهز

أولهما رأسه مؤمنا على قول صاحبه ، وأدار ظهره الى الهاوية وقد هم بالعودة معه .. ولكن الكهل لم يتحرك ، بل استمر يحملق في الهاوية ببصره ، وقد اتكأ بجسده الضامر الناحل على عصاه ، وأرهف أذنيه إلى صوت قد انبعث من أسفل وسرى في ذلك الهواء الزاكد الحار ، فلم يكذب يصل الى الأسماك حتى التقطته ممسا خفيفا وأنيبا خافقا .

وأبطأ الشابان الخطى ، وثقلتا الى الراعى الكهل ، وأعاد أحدهما القول مرة أخرى :

- لا فائدة يا أبناه .. نحن لا نملك له نفعا .. وخير لك أن تعود معنا .
ثم جنبه برفق من ذراعه وأردف قائلا :

- هيا بنا .. ان الأمر لا يستحق كثير حزن ولا أسف .. فهو على أية حال أصغرها ..

وأطرق الكهل برأسه وتمتم كأنما يحدث نفسه :

- أنا أعلم أنه أصغرها .. بل أشدها حمقا .

وصمت برهة قصيرة ثم ضرب الأرض بعصاه فجأة ورفع رأسه قائلا في حزم وإصرار :

- سأذهب خلفه .

انك لا تستطيع .. فلا سبيل لك اليه ..

ثم ان هذا ليس بعملك .. فما كنت راعيه ولا مسئولا عنه وسخبر السيد أنه لم يكن من العقل في شيء أن نترك القطيع كله لتلقى بأنفسنا الى الهاوية خلف هذا الصغير الأحمق .. هيا بنا يا أبناه فان الله لم يهبنا بعد أجنة ..

- سأسير حتى نهاية الوادي ثم أهبط من العمر الأسفل كي أخلصه .

- أتدري أن المسافة ليست أقل من تسعة أميال .. وفوق ذلك لن تستطيع الوصول اليه .. فالمكان هناك شديد الانحدار بحيث لا يمكن السير عليه .. ولكن الكهل كان قد حزم أمره فلم يجيبهما بكلمة .. وأولاهما ظهره .. وسار في سبيله آخذا في الصعود على المنحدر المتراصى فوق الأرض الصلبة الملاصقة لحافة الهاوية .

وكان الصوت الخافت يطرق سمعه بين لحظة وأخرى ، وقد أخذ يدب متكئا على عصاه والشمس قد توسعت كبد السماء وامنتت منها العنة من السعير تفتح وجهه وتلهب جسده ، وبدأ الطريق أمامه شاقا طويلا .. وساقاه التحيفان المتخاذلان لم تعودا تحتملان بعد مشقة السير ووعورة الطريق .. فكان يحس فيهما برجة كلما أوغل في السير .. ولكنه كان قد صمم على أن يصل اليه ، وأخذ يدير في رأسه خطة الوصول .. لقد كان عليه أن يصل أولا الى مجموعة الشجر القائمة عند رأس الأخدود ، ثم يتناول غذاءه ويستريح برهة قبل أن يعاود السير للهبوط من الممر .

وأخيرا بلغ هدفه الأول .. منهوك القوى .. مبهور الأنفاس وقد سرت الرجة من ساقيه الى كل جسده . فارتدى كأنه كومة من الحطام مستظلا بتلك البقعة الضئيلة التي خلفتها الشجيرات الخشنة الضامرة .. وبعد هينها استعاد الرجل بعض ما وهن من قواه وما فتر من عزمه .. ومد يده الى الحافظة التي تعود أن يضع فيها قوت يومه .. فلم يجدها .. فأحس بالعرق البارد يتصبب من وجهه .. انه لم يبق طعاما طيلة يومه .. وقد برح به السغب عقب ذلك السير الشاق المتواصل .. وهو في حاجة الى ما يقيم أوده حتى يستطيع مواصلة السير والا سقط اعياء في منتصف الطريق .

ولم يحسن الرجل بألم الجوع قدر ما أحس بمرارة الفشل .. فقد أوجع قلبه أن تقعده حاجته الى الطعام عن انقاذ ذلك الحمل الصغير الأحمق الذي دفعه طيشه الى أن يتسلل من بين القطيع وبضل في جوف الهاوية ..

وسبح الكهل ببصره فى الوادى المترامى الأطراف وأحس بالهواء يتراقص أمامه من فرط الحرارة التى يتأجج أوارها .. ثم مد يده الى عصاه ببطء وتحامل على نفسه وانتصب واقفا .. لقد صمم على أن يعصب بطنه ويعاود السير .. وليهبه الله من لدنه رحمة ويهيئه له من أمره رشدا .

وتحرك قدماه على الصخور .. وفى حركتهما ببطء وتناقل .. وكان سيره وليدا كأنما ينتزع ساقيه من الأرض انتزاعا .. وكانت ساقاه مع ذلك تتحركان خطوة فخطوة .

وأخيرا .. وصل الى مسامع الرجل صوت خافت ، ولمحت عيناه بقعة بيضاء ضئيلة فى وسط الجرف الموحش الأسود .. فتجدت قواه .. وأخذت قدماه تتخبطان فى الصخور حتى وصل الى حافة الجرف ولكنه لم يستطع التقدم أكثر من ذلك ، فقد ارتد بصره حسيرا أمام ذلك الانحدار الشديد الذى كانت قدماه أعجز من أن تحاولا تسلقه .. ووقف يرقب الشبح الأبيض الضئيل وقد رفع عقيرته بالصياح وهو لا يستطيع الهبوط أو الصعود .

وأحس الرجل بلهيب الشمس يكاد تحرقه شراظه .. وأدرك أن قواه لا تكاد تساعده حتى على أن يبلغ ظل صخرة يفیه وهج الشمس .. فخر مغشيا عليه فى مكانه .

ولم يعرف كم مضى عليه من الوقت قبل أن تأخذ تلك السحب فى الانقشاع عن رأسه .. ولكنه أحس بذهنه قد عاد يكافح مرة أخرى .. ورأى نفسه يرهف السمع عله يسمع ذلك الصوت الذى كان آخر ما سمعه قبل أن يفقد وعيه ، ولكنه لم يسمع شيئا وفتح عينيه بمشقة ، ونظر الى الجرف الأسود .. الى حيث كانت البقعة البيضاء .. ودهش الرجل ، فقد ابصر البقعة فى مكانه .. ولكن كانت هناك بقعة أخرى .. أكبر من الأولى حجما .. وقد أخذت تتحرك صاعدة تجاه البقعة الأولى .. يا للعجب ترى أ هناك حمل آخر .

ورفع يده يظلل عينيه ، وأخذ يحق فىما رأى .. فلم يستطع أن يميز حقيقة ذلك الشيء الذى أخذ يتجه نحو الحمل الصغير .. وإن كان قد استطاع أن يجزم أنه ليس بحمل آخر .. وبدأ يرقبه وهو يتسلق الجرف بمهارة عجيبة دون أن يجد فى تحركه مشقة ولا عناء كأنما يجد فى كل بقعة موطنا ممهدا لتقديمه .

وشعر الرجل بضعفه يعاوده .. وأخذت تلك السحب تتراكم على رأسه مرة أخرى .. وأحس بصوت الحمل يطرق أذنيه .. ولكنه كان فى هذه المرة أشد ارتفاعا وأكثر وضوحا .. ثم فقد وعيه وراح فى غيبوبة . وأفاق مرة أخرى على صوت أقدام تقترب منه .. وفتح عينيه فإذا بصبي يكتسى بثوب أبيض قد أقبل عليه حاملا الحمل الصغير برفق بين يديه ، ونظر اليه من خلال عينين زرقاوين شديتى الصفاء ، وقال باسمه :

- لقد أصبح الحمل آمنا يا أبتاه .. وتستطيع أن تستريح فى ظل هذه الصخرة الكبيرة .

وقام الراعى بنبع الطفل ، فإذا بصخرة كبيرة على قيد خطوات قد ألقت ظلها الداكن على بقعة من الأرض نضرة خضراء كماها العشب الرطيب ، وهبت منها نسيمات رقيقة عذبة .

وافترش الكهل الأرض وقد أحس بالغبطة تملأ قلبه وبالهواء والراحة تحلان فى جسده محل التعب والعناء ونظر الى الصبي متسانلا فى كثير من الدهشة : كيف عثرت عليه ؟

- لقد سمعت صياحه وكنت قريبا منه .

ووضع الرجل يده على رأس الحمل وربت عليه فى عطف وحنان ، ثم قال له مؤنبا .. هكذا تأبى دائما الا أن تلقى بنفسك الى التهلكة .. ما ضرك لو سرت فى الطريق وكففت عن الوثوب هنا وهناك .. ان أكثر ما يشق على

فى نصحك أن النصيح لا يجديك نفعا وهكذا النصيحة دائما .. ليست أكثر من كلام يسهل قوله ويصعب سماعه . وفهقه الرجل ثم قال موجها الحديث الى الفتى .

لقد نسيت طعامى .. ولولا ذلك لما وهنت قواى .

- ان معى خبزا .. وخلف هذه الصخرة ينبوع ماء .. وشبع الرجل من جوع وروى من ظمأه ، فتمند على العشب وقد ملأت السكينة نفسه ، وسادت فترة مكنون استغرق خلالها فى أحلام حلوة هادئة حتى أفاق على صوت الصبى بمأله مترفقا :

- كم مضى عليك من الوقت وأنت تعمل راعيا ؟

- منذ ولدت يابنى .. انى لأكاد أنكر نفسى الا راعيا . ولكن كان خيرا لك لو سألت .. منذ كم تركت الرعى ؟ فأننى لم أعد بعد راعيا .. لقد أضحيت فى نظرهم كهلا لا يصلح للرعى ، بل يحتاج الى من يرعاه .. أو كما يسموننى « الحطام » ..

وشرد ذهن الرجل برهة .. ثم عاد يقول فى مرارة :

- كان ذلك منذ اثنتى عشر عاما .. عندما سمعت السيد يقول انه لم يعد يطمئن الى فى رعى القطيع . لأننى قد أصبحت حطاما باليا . فرفعت كفى لأخفى دمعينى اعتصرهما الحزن من قلبى ودفعهما الى عيى .. وخرجت القطعان وبينهما القطيع الذى تعودت أن أرعاه . وقد استبدل بى راع أكثر فتوة وأشد قوة .. ورأيتنى أتسل خلف القطيع .. لأننى لم أستطيع سوى ذلك .. فقد عزت على الفرقة .. وشق على البعاد .. لقد بمنعونى من أن أكون راعيه .. ولكنهم لا يستطيعون حرمانى من أن أكون فردا فيه .

ومع ذلك يابنى .. لقد أبى القدر ألا أن ينصفنى .. وأن يريهم أنى لم أصبح حطاما بعد ، وأنه مازال فى بقية من رفق .. انى لأنكر ذلك اليوم كأنما

بالأمس فقط .. وقد أقبل الليل وانلهمت الظلمات .. واستغرق الكل فى نوم عميق .. وكنت أحس بقلق خفى فلم يغمض لى جفن . وعلى حين غرة شعرت بالخطر يوشك أن يحل ، فقد حملت الى الريح رائحته .. وميزت أذناى أصوات ذئاب تقترب .. ورأيتنى أفق وحدى وسط القطيع الراقدون أن أجد أثرا لبقية الرعاة .. ولم أك أدري كيف أستطيع دفع الخطر وحدى .. ولكننى كنت أحس فى نفسى بأننى سأدفعه . وأخذت الذئاب فى الاقتراب .. وقلبى يخفق فى ضلوعى خفق شديدا .

ونظرت الى السماء فجأة .. فرأيتها مرصعة بالنجوم .. ولكن أحدها كانت تلمع بشكل لم أعده .. أجل ما رأيت فى حياتى نجمة تضئ كما كانت تضئ تلك النجمة العجيبة .. ونظرت الى الأرض فاذا بالظلمة انقشعت .. وإذا بها قد غمرت بضوء مشرق ذهبى هبط عليها من النجمة الوضاعة .

وخيل الى أنى أسمع فى ذلك الوقت صوتا عجيبا .. أشبه بصوت طفل حديث الوضع .. وأحسست بالسكينة تملأ قلبى والاطمئنان يغمر نفسى .. وتلفت حولى فاذا بالذئاب قد ادارت رؤوسها ببطء وعادت فى سكون لا تلوى على شئ كأنما قد مسحها سحر . وصمت الكهل برهة ثم رفع بصره الى الصبى وقال فى صوت يملؤه الرضا والغبطة .. ومنذ تلك الليلة وأنا أحس بالكثير من العزاء .. وأقسمت بعد ذلك ألا أفارق القطيع قط .. حتى يخمد منى النفس وحتى يحملوا الحطام الى جدته .

ونظر اليه الصبى وقد أشرق وجهه بابتسامه حلوة ثم قال :

- يا أبتاه .. انك لست حطاما .. انك رجل قوى .. ففوة المرء ليست فى جسده .. بل فى قلبه وفى ايمانه .. ان هناك أناسا يولون حطاما ويعيشون حطاما ويذهبون الى الأحداث حطاما . أما أنت فقد كنت بالايمان قويا . يوم ولدت . ويوم تموت . ويوم تبعث حيا . وأخيرا نهض الرجل وهم يتوديع

الصبي قائلاً إن أمامه مرحلة شاقة للعودة ولكن الصبي أنبأه أنه سيعود معه
ليحمل له الحمل وليقوده الى طريق قصير يوفر عليه عناء المسير .

وسار الرجل خلف الصبي وقد أحس أن قدميه قد ذهبتهما تلك
الرجفة .. ولم يطل بهما السير حتى أبصر الرجل بنفسه فى مكان تحف به
الأشجار الباسقة ، وسمع صواوح الطير تغرد على أغصانها وأحس بأشراق
فى نفسه وضياء فى قلبه .

ومد الرجل يده مودعا الصبي وقال له فى صوت يفيض بالشكر :

- أنت ولد طيب قوى .. وعندما تصبح رجلاً ستكون من خير
الرعاة .. كم عمرك الآن ؟

وأجابته صوت الصبي وقد أخذ فى الابتعاد : اثنا عشر عاماً !

وأحس الرعاة أن الكهل قد طالت غيبته وخشوا أن يكون قد مسه ضرر
فعادوا للبحث عنه ، فوجدوه قد رقد فى منتصف الطريق فى تلك البقعة التى
خارت فيها قواه من الجوع والتعب . وأبصروا به جثة هامدة تتلظى فى هجير
الشمس .. فرثوا له .. ولكنهم لو أدركوا أن روحه تنعم فى ظلال الجنان ..
لرثوا لأنفسهم ..

صور طبق الأصل

الإهداء

الى خير من فرج عنى الهم .. وأزال
الكرب .. الى أحد أصول هذه
الصور .

الصديق

عبد المنعم الشاذلى

يوسف السباعى،

مُقَدِّمَةٌ

هذه القصص أخذتها من الناس .. صور طبق الأصل لهذا وذاك .. لا أدعى لنفسى فيها حق ولا فضل .. ولا أحرم على أحد أن ينقل منها أو يقتبس - لو وجد فيها ما يستحق النقل والاقتباس - وكيف أحرم شيئا مباحا .. شيئا أنا نفسى ناقله من الأصل المجدد .. كيف أحرم على الناس ما أخذته من الناس .

أستطيع أن أدعى لنفسى حقاً فى «امام الفقه» و «خال علام» .. وهى مخلوقات حية تسعى بيننا ؟

أم يكفى أن أضع اسمى عليها .. كأننى قد شاركت الرب فى خلقها .. حتى أحاول أن أدعى لنفسى عليها حقوقاً محفوظة !!

حرام والله .. انى أحس من هذه القصص بمنتهى الخجل .. فلو استطاعت النطق لصاحت بى ..

«أيها المؤلف المدعى .. رفقاً .. ما أنت الا غبى .. مغرور .. محتال .. غبى كغيرك من البشر .. هيا لك الفرور أنك أفضل من سواك طينة وأطيب معدناً .. فجلست ترقب وتكتب .. وسألت لك نفسك المحالة أن تتبع الناس ما كتبت عنهم .. فتال منهم النقود .. وربما الاعجاب» .

انها على حق .. انى خجل .. ولولا يقينى بأنى لمت المحتال الوحيد فى هذا البلد .. لما أقدمت على نشرها .

«يوسف السباعى»

خاتمة خال وعلاء

وخرج خال علّام من الحمام وهو
يصرخ ويتأوه ... ويسأل علّام : لم
لم يخبره أن الاستحمام عندهم
جناية . واتدهش علّام ، ووقف
يستمع لما حدث .

حدثت الواقعة في ميس السوارى منذ ما يقرب من عشر سنين ، ولست
أدرى أى شيطان ضاحك يدفع بها الآن فى رأسى وأنا أجلس للكتابة فيرغمنى
على أن أسطرها وأنشرها لتتخذ مكانها بين ما تعونت أن أكتب من أفاصيص .
ويبدو لى أن من الخير - قبل أن أروى الواقعة - أن أعطى للقارئ فكرة
عن حياتنا وقتذاك ... فأرسم له ما يسمونه « الباك جراوند » التى ستتخذ
الواقعة محلها فيه .

كنا ثلة عزّاب نقطن الميس . والميس - لمن لا يعلم - هو سكن الضباط
الذين يعيشون فى التكنات . وكان ميس السوارى مكونا من ست حجرات ،
يسكنها دائما أحدث ستة ضباط ، وهو مكون من طابق واحد على شكل
مستطيل ناقص أحد الأضلاع .. يشغل الجناح الأيمن منه حجرات السكن ..
والجناح الأيسر يشغله صالون الجلوس وحجرة الأكل . يقوم وراءه بناء
منفصل يقع به المطبخ والحمام ، وعنبر لنوم المراسلات وحمام آخر لهم .

هذا عن الميس من حيث البناء .. أما من حيث السكان فاني أجد من العسير على وصفهم .. فان نوابرهم تنكأ على ذهني ، فلا أدري بأيهم أبداً ، وقد كانوا كلهم أناسا ظرفاء .. عزازا لطافا .. وكان لكل منهم شخصيته المرحية المستقلة .

اني لأجد الذهن يعود بي القهقري فيقطع السنين الطوال في لمح البرق ، وأجد نفسي مرتديا الحذاء الطويل وبنطلون الركوب والقميص ، وقد عدت الى الميس بعد المغرب عقب تمام المساء والتهافت .. وقد أحسست بساقي قد كلتا من فرط السير واللف في التكنات ، وأنخل الى الصالون لأرتمي على أقرب مقعد .. وليس لي من أمنية سوى أن أنزع الحذاء الطويل لحظة لأريح قدمي . والتفت حولي فأفاجأ بالبارودي - أحد زملائي - وقد اضطلع في أحد المقاعد ومدد ساقيه وهو ما زال برداء الطابور وبالحذاء .

ونصيني الدهشة من منظره .. ترى ماذا أجبره على البقاء الى هذه اللحظة .. سجين القنمين معذب الجسد ؟ ولم لم يلق عنه ملابسه وينطلق بعيدا الى الخارج ليروح عن نفسه ؟ !

ولا نعضي فترة قصيرة حتى أعرف العلة وأستجلي السبب .
انه اللومني .. ولا أحد سواه .

أجل ! ان اللومني هو السبب بقاء أنور البارودي بهذا المنظر حتى الآن .. فلقد كان يناقشه الحساب .. وحساب اللومني - لو تعلمون - عسير . ولكنكم لم تعرفوا اللومني بعد - فيجب على أن أفتحه لكم أولا .

اللومني هو حكمدار الميس وقائد الطباخين والسفرجية والمراسلات . هو الذي يتولى عملية شراء لوازم المطبخ من السوق .. وهو المسئول أمام ضابط الميس عن تقديم حساب الميس ..

ولا أظنكم تجهلون مبلغ مهارة الطباخين في المغالطة في الحساب . وكما كان اللومني قائد الطباخين .. كان - بحكم المهنة - شيخ المغالطين .

لننظر الى البارودي - وقد كان وقتذاك ضابط الميس - وقد اعتدل في مجلسه وأوقف اللومني أمامه يحاسبه حساب الملكين .

- ها .. وجبت ايه كمان ؟

- ست ارطال لين وأفتين سكر .

- عشان ايه دول ؟

- عشان الرز أبو لين .

- ست ارطال لين وأفتين سكر عشان ست أطباق رز بلين ؟ يعني قصدك تقول ايه ؟ قصدك تقول ان كل طبق خد رطلين لين ؟

- مضبوط .

- مضبوط ازاي بقى ؟ ! . طب أنا حاجيب رطل لين وأفرغه في الأطباق وأشوف يملا طبق واحد بس زى ما بتقول والا لا .

ويبدأ البارودي تجربته .. فاذا بالرطل يملاً أربعة أطباق . وينظر الى اللومني وهو يحاول أن يكتم ثورته ويصيح به :

- ايه رأيك ؟

ويعنتهى الهدوء يجيب اللومني :

- أصل اللين بيتبخر ، يقوم يخس .

- طيب بلاش كده .. تعرف الطبق الواحد على حسابك يكلف كام ؟

- كام ؟

- خمسة صاغ .. الطبق اللي بناكله عند استرا أو أسديه بتلاتة تعريفة .. بتعملة انت بخمسة صاغ ، ايه رأيك بقى ؟

- وهو اذا زى بتاع أسدية ؟

- لا العفو .. زيه ازاي ؟ مش ممكن .. على العموم بالمونى من هنا ورايح ما تعملش رز بلبن أبدا . مش ضرورى ناكل رز بلبن .. هات حلو أى حاجة .. هات بلح أمهات .

- كل يوم ؟

- أيوه كل يوم .

- وينتهى حساب الرز أبو لبن ، ويبدأ حساب آخر لا يقطعه سوى دخول الشاذلى مصفقا بيديه منشدا بأعلى صوته : « يا تلتमित مرحبا وسلامات باخلى .. باللى تكيد العوازل وانت داخل لى » .

والشاذلى كان فى ذلك الوقت عاشقا .. وقد كان هذا العشق هو سر بقائه فى الميس . فقد كان يقضى جل وقته يهز رأسه ويقرنم بأناشيد الهوى .

ويبصر الشاذلى اللومنى وهو يهم بالانصراف من أمام البارودى فينادى عليه :

- لمونى الكلب .. تقدر تقول لى اللحمة اللى جبتها النهارده جبتها منين ؟

- من الجزار .

- مش ممكن ، لازم جبتها من العتقى .. تعرف أنا متبها لى أنك انت لما بتروح تشتري لنا الأكل بتعمل ايه ؟ تروح للخضرى وتقول له : عندك كوسة شايفة ؟ يقوم يقول لك لأ . تقول له : ولا بطاطس معفنة ؟ يقول لك برضه لأ .. تقول له : طيب عندك قوطه حمضانه ؟ يقول لك عندى شوربه . تقول : طيب لمهم لى .. وبعدين تروح عند الجزار تسأله على لحمه بايته والا منتنة .. وتفضل تلم الزبالة اللى فى السوق وتيجى تطبخها لنا .

- ازاي بقى يا فندم ؟

- أهو كده .. اليوم اللى ماتطبخش فيه يبقى لازم ماقيش فى السوق

حاجة وحشه .

وبعد لحظة يدخل علام ، فينظر الى اللومنى أيضا ويصبح به :

- لمونى .. من بكره تطلع طابور ركوب .

وهنا ينهار اللومنى .. فقد كانت تلك أكبر كارثة يمكن أن يصاب بها .. فقد كان جسمه الأبيض السمين المربرب لا يصلح قط للركوب . وكان يعتبر طابور الركوب العذاب الأكبر .

وينصرف اللومنى ، وتتوافد القلة الواحد بعد الآخر حتى يكتمل العقد وتتطلق الضحكات الغالصة من صدور لا تحمل الهم ولا تعرف الحزن .

وتبدأ القلة فى التفكير فى العشاء ، فيصبح علام بعثمان شديد :

- وله يا شديد !

- عايز ايه يا علام ؟

- تشاركنى فى أقة عنب ؟

- عنب ايه يا عم .

- طيب تشاركنى فى بطيخة ؟

- لا يا عم أنا ما أحبش البطيخ .. أنا حالتعشى عسل وطحينية .

- ايه ؟ ! وبعدين لما أجيب البطيخة تبقى تقول لى ادبنى شقة ؟

- يا أخى بلاش دوشه .. ابعده عنى .. بطيخ ايه .. وعنب ايه .

ويشتري علام البطيخة .. ولا يكاد يشقها حتى يهجم عليه شديد خاطفا قلبها .. فيمسك علام البطيخة ويلبسها رأس شديد .

★ ★ ★

ولكن ما لى قد استرسلت فى الدريشة وقص النكريات ورسم « الباك جراوند » حتى كنت أنسى القصة نفسها ؟

هل يسمح لى القارىء بأن أسترسل به فى مجرد حديث ويغفر لى هذه المرة ألا أعطيه قصة ؟

لا أظن .. فقد ابتليت بأنى قاص ، والقارىء لن ينتظر منى ولن يستسيغ سوى قصة .

حسن .. لنبدأ القصة انن .. وعرضنا على الله .

★ ★ ★

تلك كانت ثلة ضباط الفرسان الذين يقطنون الميس وقتذاك .. أنا والشاذلى والخضيرى وسعد الدين وعلام وسليمان وشديد وعبد العزيز مصطفى والبارودى .. ثلة مرحلة ضاحكة .. نضحك من كل شيء وعلى كل شيء .. لم يكن يشغل بالنا وقتذاك سوى شيء واحد :

هو الحمام المبتل ! !

كنا نخرج مبكرين الى طابور الركوب ، فاذا ما عدنا للطور بعد الطابور ودخلنا الى الحمام لكى نغسل أيدينا أو وجوهنا وجدنا أرض الحمام مفرقة بالمياه ، وأن هناك من استعمل الدش .

ويرفع علام عقيرته بالصباح :

- يالمونى .

ويأتى اللمونى مرتجفا ، فيصيح به علام :

- ايه الميه دى ؟

ويهز اللمونى رأسه فى دهشة ولا ينبس ببنت شفة . ويستمر علام فى

صياحه :

- فيه حد يستحمى هنا واحنا فى الطابور ؟

- لا يا فنديم .

- لا إزاي ؟ .. مش ممكن ، لازم يكون فيه حد استعمل الدش .

ويقسم اللمونى أيمانا مغلفة بأنه لم يستعمله ولم ير أحدا يستعمله .

وأخذت الواقعة تتكرر كل يوم .. نعود من الطابور فنجد أن الحمام مبتل وأن المياه قد أغرقت أرضه .

من ذا الذى يستحم يا ترى ؟

وأقسم علام أن يضبط المستحم فى حمام الضباط مثلثسا بجريمته ، وأن يريه نجوم الظهر .

ومرت الأيام ونحن نحاول أن نجد الفاعل عبثا ، حتى كان ذات يوم حضر أحد أقارب علام لزيارته وأظنه خاله .

ورجانا علام أن نحترم أنفسنا أمام الرجل .. وأن نتمسك بأهداب الآداب ونكف عن التهريج ، حتى نظهر أمامه بمظهر محترم .

ولم يكن طلب علام بالمطلب اليسير ، فقد كان من أصعب الأمور أن نتكلف الجد وأن نكف عن المزاح ، ولكننا - مراعاة لخاطر علام وقريبه المحترم - صممنا على أن نكلف أنفسنا ما لا طاقة لنا به ، وأن نتحلى بالجد والأدب .

وكان قريب علام قد حضر من أوروبا ، وقد نوى أن يبيت ليلته مع علام حتى يسافر فى غده الى الاسكندرية .

وقلنا لأنفسنا : لا بأس .. ليلة واحدة من الأدب يمكن احتمالها فى سبيل علام ، وفى سبيل أن يأخذ الأغراب عنا فكرة حسنة .

وهكذا تذرنا بالأدب والقرمنا الجد ، وجلسنا الى العشاء فى سكون وخشية أن ينبو عنا لفظ جارح ، أو كلمة خارجة ، ودون أن نخاطب بعضنا بعضا الا بالترتب والألقاب .

ولست أشك فى أننا قد نجحنا فى محاولتنا أيما نجاح ، وأن الرجل

أعجب بنا أيما إعجاب ، وأننا رفعنا رأس الفرسان عاليا في نظر الرجل .
وفي الصباح خرجنا كعادتنا الى الطابور ، وعدنا كلنا الى الميس بعد
الطابور الا واحدا . هو الشاذلي .. فقد عاد قيلنا وترك الطابور في منتصفه ،
لأنه كان متعبا ، اذ كان على سفر في الليلة السابقة .

أسمحون لي ببضعة أسطر أصف فيها الشاذلي ؟

انه انسان يستحق الوصف .. اذ هو بطل الواقعة .

هل تسمحون ؟

سمحتم أم لم تسمحوا .. سأصفه وأجرى على الله .

ان خير ما يوصف به الشاذلي هو أنه رأس وحجرة ، وهو يستعمل
حجرته أكثر من رأسه .. زعموا أنه كتب له في تقريره السرى ذات مرة
أنه « ضابط لا يحتاج الى بروجى » ، وهو فعلا لا يحتاج الى بروجى .. لأنى
أسمع صوته أحيانا وهو يتكلم وأكون جالسا في مكتبى فى كوبرى القبة ، وأقوم
لأبحث عنه فلا أجده ، ثم يتضح لى فى النهاية أنه يتكلم فى مصر الجديدة ،
مجرد كلام .

لا أظن أن به ما يوصف أكثر من هذا . اللهم الا أنه حاضر البديهة ،
سريع النكتة حاضرها ، ويقولها ولو على نفسه ونويه .. ويفضل أن يقولها
ثم يعدم أو يسجن على أن لا يقولها .

وهو مخلوق شديد النكاه والوفاء ، باطنه خير بكثير من ظاهره ،
والفضل فى تشويه ظاهره له وحده فهو خير من يشنع بنفسه ، ولقد قلت له
ذات مرة أن خير طريقة لتحسين سمعته هو قطع لسانه ، وهو يتلطف الى
سماع الاشاعات وترويجها ويجيد المبالغة لغير ما سبب ولا فائدة .

عاد الشاذلي من الطابور ، واتجه أول ما أتجه الى المطبخ ليسأل
اللمونى عما أعده من افطار .. والتهم فى فمه « الللى فيه القسمة » على سبيل
التنقو .. وشمم اللمونى بما فيه القسمة أيضا ، ثم اتجه بعد ذلك الى الحمام .

ودفع باب الحمام فاذا به مغلق من الداخل .

ثم دفعه مرة ثانية .

جاءك الموت يا تارك الصلاة ، والله وقعت والللى كان كان ..

أجل ! لقد سمع الشاذلي بأذنيه صوت « الدش » وهو ينهمر .

أخيرا وقع المجرم ، وفى حالة تلبس .

شهر بأكمله وهو يستغفلنا جميعا .. وينسل الى الحمام ليأخذ دشا أثناء
غيابنا فى الطابور .

أنه أحد الطباقين أو أحد المراسلات .

وصاح الشاذلي وفى صوته رنة انتصار :

- افتح يا حيوان .

ولم يسمع أى رد .. بل استمر صوت « الدش » ينهمر ، وقطرات الماء
تطرق الأرض وجسم المستحم .

وعاد الشاذلي يصيح مهيدا :

- افتح بقول لك .

ولكن لم يجب أحد .. ولم يفتح الباب .

وتراجع الشاذلي عن الباب قليلا .. وبكل قوته دفع الباب بكتفه ..
فانفتح .. واندفع هو الى الحمام .. رافعا سوط الركوب بيده .. ليهوى به على
الجانى .. ويؤنبه تأديبا سريعا .

تعالى الصيحات ، وتعالى الضربات :

- آى .

- آى يا ابن الكلب .. امال فالج كل يوم نخش تسفحمى وتغرق الحمام .

بين الركاب بجسده الضخم القوى الممتلىء ووجهه الأبيض المشرب بحمرة
وبنقلته الأنيفة المنشأة والطربوش الطويل بحجب معظم جبينه ويستقر على
حاجبيه . كان يجلس بين الركاب فى نفخة واعتداد .. ويتحرك به الترام فى
شارع خيرت .. حتى يمر بالبقعة المعينة فتنتطلق منه صيحة منوية فى جد
واهتمام :

- هفتت مفتاح ؟ !

وفى لمح البصر ترتد اليه الصيحة كأنها صدى الصوت منطلقة من
الأسطى محمود ، وقد وقف بقميصه وبنتولونه وصلعته اللامعة بصيح متسائلا
فى مثل جد أبى واهتمامه :

- رحنت القرن ؟ !

وهكذا تنطلق الصيحات المتسائلتان المتبادلتان والترام ممعنا فى
سيره .. كأنهما رصاصتان طائشتان لا تنتظران جوابا .. وترتسم على وجه
الركاب دهشة ويحاولون عبثا أن يفهموا سببا لما حدث أو معنى لما قيل ..
وقد يتساءلون فيما بينهم عما قال أبى وعما قال الأسطى محمود .. وقد ينبههم
خبير ميق له الركوب مع أبى من قبل بأن ما قيل هو : « هفتت مفتاح » و
« رحنت القرن » ، ولكنه يعجز عن تفسير معناهما وعما يقصد بهما .

ولست أشك فى أن القارئ مهما بلغ به الذكاء الا يتساءل فى عجب
وحيرة مثل الركاب ولا أظنه واجدا لسؤاله جوابا شافيا .

ان كلمة هفتت (بقاء مشددة) تعنى فى لغة محمود المزين وفقت ..
وللأسطى محمود لفته الخاصة التى تحتاج الى قاموس لتبينها .. وهى تبدو
فى نطقها كأنما يقصد بها الهزل والدعابة فى الوقت الذى ينطقها الرجل فى
منهى الجد .. ولا يقصد بها هزلا قط .. لسبب واحد هو أنه لا يستطيع أن ينطبق
مواها لأنه أصيب بنزلة جعلت لسانه ملووبا فتعذر عليه النطق السليم .

وكان الرجل من تلقاء نفسه مخلوقا خفيف الدم مرحا مهزارا .. وزاده

ثقل لسانه واعوجاج نطقه خفة فوق خفة .. وأصبح حديثه مهما حاول أن يكون
جادا حديثا فكاهيا مضحكا .

كان الأسطى محمود ينطق « الملوخية » « ملوخله » .. فإذا أراد أن
يقول انه سيتغدى ملوخية بالفراخ .. كان قوله : « ملوخله » « بالغيران » .. وإذا
أراد أن يضيف أن الحلو « كذافة » قلبها لسانه الى « كناسة » فأضحى غداؤه
الذى يصفه على سبيل التفاخر هو « ملوخله بالغيران والحلو كناسة » ! .

ولم يكن أبى يتخذ الأسطى محمود مجرد حلاق .. بل كان يتخذه
سميرا ومهرجا وصديقا وفيما ، ولم يكن يذهب اليه لمجرد الحلاقة ، بل كان
يتخذ حانوته أشبه بمقهى ، يقضى فيه معظم أوقات فراغه فيتكلى بمشاهدة
الرائحين والرائحات والغادين والغاديات ويتبادل النكات الطائفة مع الأسطى
محمود اذا كان منهما فى الشغل ، فإذا ما شطب جلس معه يسامره ويسليه .

وكان أول عثور والدى على الأسطى محمود .. أو اكتشافه له .. أقول
عثورا أو اكتشافا .. لأن والدى كان يعتبر الأسطى محمود لقطة أو كنزا ..
وكان يفضل صحبته على صحبة رئيس وزراء ، ويعتبر عن ايمان أنه خير
وأفضل وأنكى وأظرف من معظم مشاهير البلد الذين كان يسميهم بالأدعياء ..
أقول ان أول عثور والدى عليه كان بصالون الأسطى ابراهيم الحلاق على
ناصية شارع السد البرانى وشارع التلول والملاصق لحانوت الفكهائى الكائن
فى شارع التلول .

وكان الأسطى محمود وكذلك عاملا فى صالون الأسطى ابراهيم ..
فاكتشف فيه أبى مواهبه .. واتخذ من الصالون مكانه المختار .

والمدهش أن الأسطى محمود - باعتراف أبى نفسه - لم يكن حلاقا
ماهرا بل كان أبى دائما يتهمه بثقل اليد .. وكان كثيرا ما يسبب له جروحا
فى ذقنه حتى انتهى به الأمر الى أن يتخذ له حلاقا آخر للحلاقة مع بقاء
الأسطى محمود فى مركزه الممتاز كسمير ومضحك وصديق .. ومع استيلائه
على أجرة الحلاقة الدورية المنتظمة دون أن تمس موساه ذقن أبى أو يمس
مقصه شعر رأسه .

وفى ذات يوم فوجيء أبى بخلو صالون الأسطى ابراهيم من الأسطى محمود .. فأصابه الدهش وتساءل عنه .. فأنبأه صاحب الصالون بأنه طرده .. وأنه أحضر بدله صنايعيا ممتازا أكثر منه مهارة وطلب منه أن يجربه .

ولكن أبى لم يكن يعتبر الأسطى محمود حلاقا .. بل كان يعتبره عبقريا ممتازا .. وفيلسوبا كبيرا لم يجد الدهر بمثله .. وتعجب كيف لم يقدر الأسطى ابراهيم مواهبه وكيف طرده بمثل هذه السهولة .. دون أن يبدو عليه أسف ولا حزن .. ودون أن يغلق الحانوت حدادا على ذهابه .. وكيف يدعى أنه أحضر بدلا منه انسانا ممتازا أكثر منه مهارة ؟ .

ولم يجب أبى على دعوة صاحب الصالون .. بل هز رأسه فى حسرة وأسى .. وغادر الصالون دون أن يحاول أن يخطو به بعد ذلك مرة واحدة .

وذهب يبحث عن الأسطى محمود طيلة يومه حتى عثر عليه فى بيته بأحد أزقة اللغالة .. ولم تمض بضعة أيام حتى كان الأسطى محمود قد افتتح صالونا خاصا به فى الناحية الأخرى من شارع المد لا يبعد كثيرا عن صالون الأسطى ابراهيم .. وكان أبى يتخذ منه مكانه المختار واضعا ساقا على ساق فى مدخل الصالون .

وسأل أبى الأسطى محمود عن سبب طرده من صالون الأسطى ابراهيم ، فهز الأسطى محمود رأسه وقال أسفا :

- مالهش فى الطين (يقصد الطبيب) نصيب . راجل ضلالى ونيتة وحشه .

- أيوه مفهوم .. لكن إيه السبب الللى خلاه طردك ؟

- آل إيه بيقول انى هفقت مفتاح .

- بيقول إيه ؟

- هفقت مفتاح .

وبعد الشرح فهم أبى ان الأسطى محمود طرد لأن صاحب الصالون

وجد التقنية فى صندوق المحل ناقصة فاتهمه بأنه وفق مفتاحا فتح به الصندوق وأنه سرق ما به .

واستغرق أبى فى الضحك على نهمة التهفيع التى اتهم بها الأسطى محمود والتى كانت السبب فى طرده وقطع عيشه .

ومن ذلك الحين والكلمة لا تفارق لسان أبى .. فهو لا يكاد يلقى الأسطى محمود ، حتى يصيح به :

- هفقت مفتاح ؟

حتى أضحت بينهما كأنها سلام عليكم !

وكان أبى يأخذ فى شرحها كل مرة لمن لا يعرفها ، حتى ضج الأسطى محمود وقال لأبى :

- يا سى سباعى .. الله لا يسينك كفاية فضايح .. مابلش السيرة المهيبة دى ! دى ماكانتش كلمه .

ومع ذلك فقد استمر أبى يستعملها كتحية للأسطى محمود حتى وجد الأسطى محمود ردا لها .

كان ذلك عندما أقبل عليه أبى ذات عصر متهلل الاسارير ، ضاحك السن ، وصاح بالأسطى محمود :

- هفقت مفتاح ! .

فأجابه الأسطى محمود :

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .. مالك مبسوط قوى كده ؟ خير انشا لله .

- خير قوى .. مافيش بعد كده خير .

- حصل إيه .. أخذت درجه ؟

- أحسن .
- أخذت فلوس من الحاج مصطفى (الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الذي نشر له معظم كتبه ومنها رباعيات الخيام) .
- أحسن .
- شفت بنت حلوه ؟ .
- أحسن .
- فيه ايه أحسن من كده ، يا أخى قوللى بقى وريحنى !
- أكلت ورقة لحمه معتبره .
- ودى حاجه غريبة .. ! ما أنت كل يوم والثانى بتاكل ورقة لحمه ..
- هو انت وراك حاجة غير ورق اللحمه وورق الكتب ؟ .
- لا .. لا .. دى حاجه تانيه خالص .. دى ورقة لحمه ممتازة غير
- اللى كنت بأكله خالص .. حاجه ما تخطرش على البال .
- يعنى ايه ؟ مش ورقة لحمه ، والا ورقة بتكنوت ؟ .
- لحمه .. لحمه ياغبى .
- يعنى لحمه من السما ! .
- من الجزار يا حمار .
- طيب كل مره ما انت بتجيبها من عند الجزار .. والا بتجيبها من
- عند باتا ! .
- دى ورقه ملوكى .. ما وردتش .
- ايه بس حكايتها ؟ .
- أنا أقول لك حكايتها .. النهارده رحت عند سلامه الرباط الجزار

وقلت له يوضب ثلاثة أرطال فى ورقة زى العادة علشان أوديهم القرن .. قد
يلم من هنا ومن وهنا ، حنة من بيت الكلاوى وحنة من الفخده ، وايشى
عضم ، وايشى شفت لغاية ما كمل الثلاثة الأرطال وابتدأ يوضبهم وخرط
عليهم البصلة ورحط البهارات والتحاييش ولقهم فى الورق وقال لى اتفضل ..
حاجه معتبره قوى .

- هى دى الورقة المعتبرة ؟ .
- لا .. مش هى .
- آمال منين الورقة المعتبرة ؟ .
- الورقة المعتبرة لقينه عمال يوضب فيها على جنب .. حنة قطعية
نظيفة زى اللوز .. نلاقى حنة العضم ملبسه باللحم وفيها راق دهن زى
القسطه .. وقعد يقسم فيها ويوضب ويخرط عليها ويرش ويحبش فاستعجبت
وسألت الواد الصبى :
- الورقة دى لعين ؟ .
- فرد الواد بصوت واطى :
- دى له .. للمعلم سلامه نفسه .
- وقال الأسطى محمود معلقا على قوله : أظنك اتحسرت .
- قوى .. وفضلت واقف أبص لها وأبص للورقة بتاعتى ومش قادر
أتكلم .
- الله يكون فى عونك .
- المقصود لف الورقة وإداها للواد الصبى علشان يوديها القرن وأنا
أخذت الورقة بتاعتى علشان أوديها القرن .
- ويعدين ؟ .

الأسطى عبد المستر توينرى

ألقي المستر توينرى نظرة عابرة على
الطلاب .. وتوقفت عيناه برهة ..
أمام الأوسطى عبده ، فقد كان الوجه
جديدا على عينيه ، وكان منظر
الأوسطى عبده برقيته الطويلة
ووجهه الأعجمي وعينيه
المذعورتين ، منظرا غريبا .

لا أظن أن هناك حديثا يشغل الناس فى هذه الأيام كحديث الغلاء ، وعندما
يتحدث الناس عن الغلاء قلن يخلو حديثهم من مقارنة بين أسعار اليوم وأسعار
الأمس ، وضرب الأمثلة المتعددة على ارتفاعها الفاحش الآن وانخفاضها
العجيب فيما مضى .

ولم يكن المجلس الذى ضم ثلثتنا بالأمس ليختلف عن غيره من مجالس
الناس ، فسرعان ما ساقنا الحديث نحو الشجون الى ذكر الغلاء ، وبين عشية
وضحاها انقلب الحديث الى مباراة ضرب الأمثلة لغلاء اليوم ورخص الأمس ،
وانهالت الشكوى من النفوس مريرة ، والسخط لاذعا حارا .

- ولا قبلين .. وصلنا القرن سوا ... الواد سلم الورقة بتاعته القرن ..
وأنا سلمت ورقتي .. جه الفران يدخل الورقتين قلت له حاسب اوعى الورقتين
يتلخبطوا لحسن دول زى بعض .. والا أقول لك .. هات لما أعلمهم أضمن ،
وسخبت الورقتين ورحت قاطع من طرف واحده منهم حقة ورقه وقلت له :
المقطوعة دى تبقى بتاعتي ، والثانيه بتاعة المعلم سلامه .. وبعدين سبت
القرن ورجعت له قرب الظهر كانت اللحمة استوت .. أخذت الورقة المقطوعة
وروح البيت أكلت أحسن ورقة لحمه أكلتها فى حياتي .

- ايه الكلام ده ؟ انت مش بتقول أخذت الورقة المقطوعة بتاعتك !
- أيوه أخذت الورقة المقطوعة لكن ما كانتش بتاعتي لأنى لما جيت
أعلم الورقة قطعت ورقة المعلم سلامه .

ومنذ ذلك اليوم .. وحتى بعد انتقاله بصالونه الى شارع خيرت
والأسطى محمود يعرف كيف يرد التحية .. فلا يكاد والدى يهتف به : « هفت
مفتاح » .

حتى يجيبه بأعلى صوته : « رحت القرن » .
فاذا سأله أحد شرح له المسألة بخذافيرها .
وقال لأبى : « واحده بواحدة والبادىء أظلم » .

★ ★ ★

قال أحدهما وهو يهز رأسه أسفا :

- لقد أصبحت الحياة لا نطاق .. لم يعد هناك شيء محتملا ، لا مأكلا ولا ملبس .. من يصدق أنني منذ أسبوع أردت أن أفصل بدلة عند جباى الترزى .. فطلب منى خمسة عشر جنيتها ، للتفصيل فقط ؟ !

فسأله آخر متعجبا :

- خمسة عشر جنيتها !! الله يرحم أيام زمان ، عندما كانت البدلة لا تكلفنا أكثر من مائة وخمسين قرشا قماش ، وتفصيل !

ورد عليه الأول ، وهو مهندس معروف :

- اى والله .. مائة وخمسين قرشا ، كانت أقصى ما تتكلفه البدلة ، وكنا نستكثرها على الترزى وعلى جيوننا فنأبى أن ندفعها الا بالتقصي .

وضحك الأصدقاء ...

واندفع صاحبنا يقهقه وقد تذكر حادث مطاردة الترزى لصديقه أحمد أبو الفضل . وأخيرا تمالك نفسه وأخذ يقص الواقعة فقال :

- كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاما ، وكنا وقتذاك طلبية فى المهندسخانة ، وقد اعتدنا أن نجتمع فى بيت صاحبنا أحمد أبو الفضل بشارع النواوى فى البغالة حيث كان بالبيت حجرة منفصلة كنا نأوى إليها للسمر والاستذكار .

وذات ليلة وقد انتظم عقد ثلثنا داخل الحجرة ، وبدأنا نستعد لمواصلة الاستذكار .. اذ طرق الباب طارق . وصاح أبو الفضل أمرا يصوته الجمهورى ، ادخل ، فلما أن الطارق هو ، عم محمد ، البواب يحمل لنا القهوة أو الشاي .

وهنا أطل علينا وجه شاب به كثير من دعر وكثير من خجل ، وجه نحيل أعجف بارز عظام الوجنتين ، غائر العينين ، وبدأ صاحب الوجه يدفع الباب ويتقدم فى الحجرة رويدا رويدا حتى مثل أمامنا .

وسألناه عما يريد فقال :

- أنا الأسطى عبده الترزى .

- تشرفنا يا أسطى عبده .

وانهالت عليه التحيات والسلامات من هذا النوع التهكمى .

فلما انتهينا من تحياتنا الساخرة .. بدأ الرجل فى شرح مطلبه وتفسير زيارته ، ففهمنا منه أنه قد فتح حانوتا للتفصيل على ناصية شارع سليم ، وأنه قد مضى عليه شهر والحالة راكدة ولم يدخل حانوته أحد ، وأنه لم يستطيع أن يحصل حتى على ايجار الدكان .. ولما كنا ، الأفندية ، الوحيديين الموجوديين فى الحنة فقد لجأ إلينا عسى أن نجبر بخاطره وأن ننفعه !

ولم يكد الأسطى عبده ينتهى من شرح حالته واستعطاف قلوبنا حتى قرن القول بالفعل وهجم علينا وفى يده المازورة يأخذ المقاسات المطلوبة لكل منا ويدونها فى نوتة صغيرة أخرجها من جيبه .. وفى غمضة عين كان الرجل قد أخذ مقاساتنا جميعا .

ونظر أبو الفضل إلى الأسطى عبده نظرة رثاء وعطف وهو يضع المازورة فى جيبه وقد أشرق وجهه بالأمل وابتسم ابتسامة الفوز .

وأخذ أبو الفضل يشرح له قائلا :

- بقى اسمع أما أفولك يا أسطى عبده ، ما تتعبد نفسك معانا .. احنا البدله بتأخذ لها على جتتنا خمس سنين خدمة ، زى العسكرية بالضبط ، ويعدين لما تطلع رديف نبتى نفكر نفصل بدلة جديدة ، ولوقت أقدم بدلة على أى واحد منا ما تزيدش عن سنتين خدمة . يعنى بعد ثلاث سنين ربنا يدبك العمر وتيجى تزورنا ان شاء الله .

- كل خمس سنين بدله ؟ ازاي يابيه الكلام ده ! دا انتم أسياد الناس ..

أنا حا اعمل لكل واحد منكم بدلة تليق بالمقام .

- المقام محفوظ يا أسطى .. بس المسألة ان العين بصيرة والبد

قصيرة . احنا قاندين نجيب علبه سجاير لما حاتفصل بدله ؟

- دى الحسبه كلها مائة وخمسين قرشا يا بيه ، مش ضرورى تدفعهم مرة واحدة . ادفع اللى تقدر عليه ... ادفع خمسين قرش كل شهر ، أو خمسة وعشرين .

- وقيل أن نجيب الرجل ، ألقى علينا تحية سريعة ثم أولانا ظهره وانصرف هاربا .

ولم يمض أسبوع حتى كانت البذلات الخمس مستوية على أجسادنا . وأقول الحق انها كانت جيدة التفصيل ، فاخرة القماش وأتنا رحنا نختال بها فى المدرسة كأية ثلة ارسنقراطية وأن الزملاء ظنوا أننا عثرنا على كنز .

وعندما حل أول الشهر بدأ الأسطى عبده التحصيل ، فأعطاه البعض وتهرب البعض الآخر . وأمست فى التحصيل شهرا بعد شهر ، فكان كل منا يعطيه شهرا ويزوغ شهرا ، الا واحدا منا كان يزوغ على طول الخط فلم يعطه من ثمن البذلة مليما واحدا .

أجل ، لقد كان أبو الفضل أكثرنا اختيالا بالبذلة ، وأكثرنا هربا من الرجل ، وفرارا من الدفع .

كان لأبى الفضل مطالب خاصة كثيرة تستنفد كل مصروفه ، فقد كان مدعنا على السجاير ، وكانت له غطسات فى ، أمكنة ما ، تستنفد منه ما تبقى من النقود بعد ثمن السجاير ، ولذا فلم يحدث قط أن توفر فى جيبه ما يستطيع أن يسدد منه قسط البذلة .

ولم يكن الأسطى عبده من النوع الذى يئأس أو يكل ، بل كان ملحا حاثا ماثبرا يطارد صاحبنا فى كل حل وترحال .. لا تكاد الشمس تؤذن بالشروق حتى يتخذ مكانه على باب البيت ، فيظل مرابطا حتى الضحى ، وحتى يكتشف أن أبى الفضل قد هرب من احدى التوافذ ، فإذا ما كان اليوم التالى رابط تحت النافذة ، فيفر أبو الفضل من الباب ، وهكذا يستمر الأسطى عبده فى المطاردة حاثرا بين النافذة والباب حتى يصمم أخيرا أن ينقل ميدان المطاردة الى المدرسة ، فيفاجيء أبى الفضل ذات صباح أمام باب المدرسة .

وما زلت أذكر ذلك اليوم جيدا وقد أشرفنا على المدرسة وسار أبو الفضل بيننا يعلننا مفاجرا أنه قد عرف كيف يدوخ الأسطى عبده حتى ينس منه ومن مطارنته له وأنه اليوم قد خرج من البيت فإذا بالحصار قد فك ، وإذا بالعدو قد عاد الى قواعده فى شارع سليم !

ولم يكد أبو الفضل يتم حديثه حتى برز لنا الأسطى عبده من وراء شجرة ضخمة بجوار باب المدرسة كان يخفى وراءها .

وكان هجومه على أبى الفضل مفاجئا ، أصابه بغير قليل من الاضطراب والارتباك ، ولكنه سرعان ما تما لك نفسه وهذا روعه ، ومد يده للأسطى عبده مرحبا .. وقال فى بشاشة :

- أهلا .. أهلا الأسطى عبده ، فينك من زمان ماحدث ببشوفك .. أنا كنت لسه جايب سيرتك عشان عايز أدبك قسط البذلة . أنا محضرو لك فى البيت . ابقى قوت على فى أى وقت .

- بيت ايه يا بيت ! دا انت دوختى تحت البيت وحيرتنى من الباب للشباك . دا انت مقابلتك نادرة من نوادر الزمن . أنا حافضل معاك لغاية مانرجع البيت سوا .

- مفيش لزوم تعطل نفمك يا أسطى عبده .. أنا ما احبش أعطلك .

- أبدا ، أبدا ، مفيش عطلة أبدا ، حابتنا لغاية ما نرجع سوا .

- نرجع سوا ؟

- أيوه .. نرجع سوا .

ولم يكن أبو الفضل ليغلب على أمره ، فوافق الرجل على أن يبقى معه ، وسأله أن ينتظره خارج المدرسة أملا أن يخدعه ويستطيع التزويغ من باب آخر ، فقال له ببساطة :

- طيب يا أسطى عبده ، أمرك .. ما دام عايز تستنانى خليك مسنتى . أقعد على البوابة لغاية ما اخرج .

- بوابة مين ؟ ايدى فى ايدك .. أنا مش حاخليك تتورب عن عيني .
دانت لقالك مش بالساهل . أنا مافرطش فيك أبدا بعد ما التقيتك .

وكنا قد وصلنا الى باب المدرسة واجتزنناه ولف معنا الأسطى عبده .
ورأى أبو الفضل أن من الخير أن يتجنب الفضيحة وألا يحاول حجز
الرجل على الباب بالقوة ، فتركه يدخل معنا ...

ووصلنا الى الفصل ، ودخلنا والأسطى عبده فى أعقابنا وجلسنا على
التخت ، ويجوار أبى الفضل جلس الأسطى عبده ، مصرا على أن لا يتركه
لحظة واحدة .

وكانت الحصة الأولى عندنا فى ذلك اليوم رياضة ، وكان مدرس
الرياضة وهذاك فى المهندسخانة هو المستر تويدى . وكان الرجل نظاميا
جادا . وكانت حصته هى الوحيدة التى نجلس فيها منتظمين ويجلس كل طالب
فى مكانه المخصص له وفى نمرة التى أعطاهما له المستر تويدى .

وكانت الحصة تبدأ فى التاسعة ، ومن عادة المستر تويدى أن يكون فى
الفصل فى بدء الحصة بالضبط فيغلق الباب وراءه بعد دخوله .. ثم يفتحه فى
الساعة التاسعة وخمس دقائق ليدخل المتأخرون ويغلقه بعد ذلك فلا يفتحه الا
فى نهاية الحصة ، وهكذا كان يعطى فرصة للتأخير خمس دقائق أما بعد ذلك
فلا يقبله فى حصته .

وفى التاسعة بالضبط كان المستر تويدى يجتاز باب الفصل ، وكان كل
منا قد جلس فى مكانه صامتا ساكنا لا ينبس ببنت شفة واضعا أمامه على الدرج
الكتب المطلوب استعمالها فى الحصة .

وكان الوحيد الذى لا يضع أمامه كتابا هو الأسطى عبده الترزى ، وقد
خشى أبو الفضل أن يكشف المستر تويدى أمره فأزاح كتبه من أمامه ووضعها
أمام الأسطى عبده ..

وهكذا جلس الأسطى عبده على مقعده - كأحد الطلبة - جادا صامتا
وأمامه الكتب المطلوبة فى درس التفاضل والتكامل .

وكان المستر تويدى انجليزيا مهيب المنظر ، أحمر الوجه أشعث
الشعر ، فارع القامة ، يزيد من مهابته منوكل يضعه على احدى عينيه .

ولست أشك فى أن الأسطى عبده قد تملكه من منظر المستر تويدى
جزع شديد ، فقد رأيته يحملق فيه وقد اصفر وجهه وأخمس بمدى حرج
مركزه .

وألقى المستر تويدى نظرة عابرة على الطلاب ، وتوقفت عيناه برهة
أمام الأسطى عبده فقد كان الوجه جديدا على عينيه ، وكان منظر الأسطى
عبده برقبته الطويلة ووجهه الأعجم وعينيه المذعورتين اللتين تترجرجان
فى وجهه .. منظرا غريبا .

ولكن المستر تويدى لم يقل شيئا ، فقد ظن الأسطى عبده طالبا جديدا
ولا سيما أن كتبه كانت موضوعة أمامه .

وكان من الممكن أن يمر الدرس بسهولة على الأسطى عبده لو أن
المستر تويدى كان كبقية خلق الله من مدرسى المهندسخانة الذين يلقون
المحاضرة على الطلاب ثم يغادرون الفصل بسلام ...

ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان يأبى الا أن يبدأ درسه بالسؤال فى الدروس
السابقة مارا على الطلبة ملقيا على كل واحد منهم سؤالا بالدور .

وبدأ المستر تويدى أسئلته فى التفاضل والتكامل ، ووصل الدور الى
الأسطى عبده ..

وانطلق السؤال من المستر تويدى الأحمر المهاب ذو المنوكل ليستقر
على الأسطى عبده الغلبان الكحيان الذى ينتفض ويرتجف .

ووقف الأسطى عبده الترزى ليجيب على سؤال عويص فى التفاضل
والتكامل .

وكانت اجابة السؤال على ما أنكر (د . س) على (د . ص) ، وكانت
يطون الطلبة تصطبغ بالضحك . وبدأت المحاولات لأنقاذ الأسطى عبده
فأخذت الأصوات تهمس من حوله بالاجابة قائلين له :

- شد حبلك بأسطى عبده .. ما تخافش . المسألة بسيطة خالص ..
قول (د . س) على (د . ص) .

ولكن المسألة لم تكن بالنسبة للأسطى عبده بمببطة قط ، ولم يستطيع
ذهنه أن يقتنع أو يفهم حكاية (د س) على (د ص) .. ولكنه أمام نظرات
المستر تويدى النارية المصوبة اليه ألقى الاجابة حسب ما يمكنه أن يفهمها ،
فقال وهو يرتجف :

- دى من ودى ص .

واقتنع المستر تويدى وأشار له بالجلوس ، وظلت الأسئلة تلف ثم تستقر
مرة أخرى على الأسطى عبده حتى نشف دمه وبقى كريشة فى مهب الرياح ،
وكانت تتعالى الأصوات هامة حوله بالاجابة فيلقطها كاليفيغاء ويطلقها متوكلا
على الله ثم يرمنى على المقعد غارقا فى عرفه ، حتى انتهت الحصة ، وانتهى
معها الأسطى عبده .

اى والله .. لقد أغمى على الأسطى عبده بعد خروج المستر تويدى ،
وعنما أفاق بكى بكاء حارا ، وأقسم يمينا ألا يدخل مدرسة المهندسخانة بعد
ذلك ، وألا يطالب أبو الفضل بقسط البذلة .
وأثر فينا بكاء الرجل . فاكتتبنا كل منا بخمسة قروش وجمعنا له ثمن
البذلة .

وكانت آخر مرة يحاول الأسطى عبده التفصيل لنا بالاكراه .

★ ★ ★

فى بيتى تعبه

قبل أن أبدأ السرد أقدم اعتذارى الى
بطل القصة - عمى ، وحمى -
« طه السباعى باشا ، لأنى لم أستأنه
فى النشر راجيا إياه ألا يصدر بيانا
يكذبنى فيه .. لمسيب بسيط .. هو أن
الناس تعلم تماما أنه ليس هناك أكذب
فى هذا البلد .. من بيانات التكذيب .

لنبدأ القصة والعربة عائدة من الاسكندرية تنهب الطريق الصحراوى
نهيا ، والسائق ينتهز فرصة سهو العم بين آونة وأخرى ، فيقفز برقم عداد
السرعة الى ما فوق المائة .. حتى وصلت العربة مدخل القاهرة وأخذت تتلوى
فى طريق الهرم ، بين حفر مصلحة التنظيم وخنادق مصلحة المجارى ، ومن
آن لآخر تعترض العربة علامات الخطر ، وتصطدم الأعين بعربة مقلوبة فى
احدى حفرات المجارى أو مصطدمة بأحد فوانيس النور فوق الرصيف .

ووصلنا أخيرا الى بيت فى منشية الطيران .. متعبى الأعصاب منهكى
الأجساد .

وهبطنا من العربة ، وعبرنا الحديقة الى باب البيت وأخذت أتحمس
تقب الباب فى الظلمات حتى دسست فيه المفتاح ثم دفعت الباب .. وبدأنا نتلمس

طريقنا فى حذر وخشية ، وسمعت العم يقول :

- أكياس الكهرباء موضوعة أمامك على الكرسي الموجود أسفل السلم .. لقد وضعتها بيدى قبل السفر .

وبعد برهة قصيرة كنت أضغ الأكياس فى محلها الواحد بعد الآخر .
كان نزع الأكياس هو أول شيء يحرص عليه العم حتى لا يحدث مس فى أسلاك الكهرباء فينتج عنه - لا سمح الله - حريق يودى بالبيت .. وكان ثانى شيء هو اغلاق عداد المياه .

ولم أكد أعيد الأكياس الى محلها حتى أضاعت الكهرباء معظم حجرات البيت ، فقد كانت مفاتيحها غير مغلقة .

وقبل أن أطفىء اللمبات التى لا نحتاج الى ضوءها وجدت العم قد أخذ يتجول متمهلا فى أنحاء البيت ، وهو يلقي عليه نظرة اعجاب ، ثم مد سبابته فمسح بها احدى المناضد ثم مسح بها الأرض وأخذ يمر بها على الأثاث قطعة قطعة ، وأخيرا قال وهو يهز رأسه فى خليط من تعجب وأسف وغبطة :
- انظر .. لا أثر هناك للتراب .

ومسحت بأصبعى أنا الآخر على أقرب شيء الى وقلت موافقا :

- أجل ! لا أثر للتراب .

- شهران .. والبيت متروك بلا نظافة ومع ذلك فلا أثر فيه للتراب .. ثم يصرون بعد هذا على نظافته كل يوم .. مجانين ، مصابون بجنون النظافة .. انهم يقومون بالنظافة لمجرد المتعة ، انها عندهم هواية ، أو طريقة لا غايتها والتكليف بنا .. والا فما معنى تنظيف الشيء التنظيف ؟ . أتعرف أنهم فى عز الشتاء يدخلون الخادم يوميا بجرذل المياه لممسح الشرفات دون أن يكون بها أثر للتراب وحاولت أن أمنعهم عن هذا الجنون عبثا ، حتى انتهى بى الأمر الى أنه ليس هناك وسيلة الا بإزالة الشرفات كلها من البيت ؟

ووقفت أنصت الى حملته عليهم - أو على الأصح عليهم - وأنا أو من مخلصا على كل فقرة فيها .

وكانت هم .. أو هن .. هذه عائدة بالطبع على أهل البيت من النساء . أعنى زوجته وزوجتى ، أو بعبارة أخرى حمايتى وابنته .

وكنا متفقين تماما فى مسألة النظافة هذه ، وكنا متفقين تماما أن أهل البيت من الحريم مصابون - بلا جدال - بداء النظافة .. يؤيدنا فى ذلك زوج الابنة الأخرى .. عديلى وابن عمتى الأستاذ عبد العزيز مهران ، الذى لم تعد له فى حياته الا أمنية واحدة .. وهى أن يهبىء الله له فرصة الاستمتاع بحرية الفوضى والقدارة ، والذى فكر فعلا فى أن يستأجر شقتين ، شقة لتنظيفها وزوجته ، وشقة يعيش فيها مستريحا كبقية خلق الله الذين لم يصابوا بجنون النظافة .

ولقد كنا - أنا والعم - أسبق منه الى تحقيق هذه الأمنية .. وهى أمنية الاستمتاع بحياة الفوضى والأثربة والقدارة .

كانت عودتنا من الاسكندرية وحدنا بلا حريم لقضاء بعض المهام فى القاهرة ، وكانت هذه المهام تستغرق ما يقرب من أسبوع .

وكان فى هذا الأسبوع كل الكفاية ، لننحرر من قيود النظام والترتيب والنظافة .

فقد انطلقنا نعيث فى الدار فسادا .. وأقول الحق ، أن العم العزيز أثبت جدارة فى هذا المضمار يستحق عليها وساما وأثبت أنه لا يشق له فى ميدان الفوضى والهرجلة والتبار - غبار .

لقد فاز على فى سباق الفوضى ، فوزا مبينا .. جعلنى أبأس من الاستمرار معه فى ميدان السباق .. بل جعلنى أكره - فى مدى يومين - الفوضى التى كنت أتوق اليها منذ أعوام ، ولم أنسحب من السباق فحسب ، بل انقلبت الى انسان مرتب أشبه بحريم الدار ، أجرى وراءه لألم شعفت ما ربق ، وأنظم ما لخبط وما بعزق .

لقد وصلنا فى المساء حوالى الساعة الثامنة .. ولم يحاول أحد منا الخروج .. فكلانا مبكر فى نومه .. وزادنا التعب رغبة فى النوم وزيادة فى التبكير ، فلم تنق التاسعة حتى كان كل منا آوى الى فراشه .

ومع ذلك .. وفى مدى تلك الساعة التى قضيناها فى الدار منذ الوصول حتى النوم أعان الله العم على أن ينزل بالدار المرتبة كمية لا بأس بها من الفوضى والهرجلة .. كدفعة أولى .

وفى الأيام التالية بدأ التفنن واخراج الروائع والآيات .

لم تكن نلتقى الا فى الصباح وفى المساء ، وقت الصبح أو النوم ، وكان كلانا يضرب طول النهار فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلا نكاد نستقر فى الدار - ونحن على حال من اليقظة - الا لماما .. ومع ذلك - ولا أدري متى ولا كيف - تمكن العم من اخراج روائعه واشاعة الفوضى المثالية والتخريب التمنونجي فى أنحاء الدار .

وقبل أن أصف روائع الفوضى ، والتخريب والتوسيع أجد لزاما على واحقا للحق ، ووضعنا للأمور فى نصابها أن أذكر ما قمنا به من أعمال التعمير والاعاشة .

كان أول ما فعلنا .. غير وضع أكياس الكهرباء وفتح محبس المياه ، هو تشغيل التلاجة وملء زجاجات المياه التى بها وشراء كمية من العنب والمانجة وصندوق ببسى كولا ، ووضعها فى التلاجة على مسيل التعمين ، وخرن الزاد والزواد .

وكان هذا الزاد والتعمين هو العامل الأكبر فى اشاعة الفوضى فى البيت ، والمادة الأساسية التى أعانت العم على رسم روائعه .

لقد قلت أنه عند ما وصلنا ، لم يكن هناك أثر يذكر للأتربة ، ولكن الذى حدث - ويعون من الله وبمساعدة العم - هو أننا لم نكد نستقر فى الدار يوما أو بعض يوم حتى وجدنا الأتربة تعلو وتتراكم .. وإذا بالحجرات قد أضحت أشبه بالخرائب

وهكذا وجدا من الأتربة الأساس الملائم .. أو ، الباك جراوند ، المناسب .

لقد كسبت الأتربة كل ما فى البيت .. أعطته لونا رماديا مغبرا لا يكاد يستبين منه لونه الأصلي .. اللهم الا من خلال آثار الأقدام المرسومة على الأرض ، والتى انتقلت أثريتها فاستقرت فى أقدامنا ، أو من خلال الرسوم الأخرى التى انطبعت تحت كل المنقولات المتحركة على المناضد أو الأرض ، فقد كان كل شيء يطبع رسمه تحته حتى كأننا نعيش فى الصحراء .

وفوق هذه الأتربة بدأ المنظر الرائع الآتى :

احدى عشرة زجاجة ببسى كولا فارغة مستقرة فى كل مكان يخطر على البال .. واحدة فوق الفراش ، واثنان تحته ، وواحدة فوق المدفأة ، واثنان فى داخلها ، وواحدة فوق المنضدة ، واثنان متخرجتان على بطنهما ، تدفعهما أقدامنا كلما جلسنا الى المنضدة .. وهكذا كانت الزجاجات الفارغة تطالع البصر فى كل مكان : على الأرفف والأرائك والمقاعد .. أما غطياتها فكانت عشرة منها ترصع أنحاء البيت كأنها الأوسمة والنياشين ، أما الواحد الباقي فهو ما زال محشورا فى فتاحة الزجاجات .. لم يفكر أحد فى نزعها من مكانه .

ويتبادل الفوضى مع الاحدى عشرة زجاجة - أو الأحد عشر كوكبا - سبعة أطباق مليئة بالماء العكر الأسود وراسب الطين ، ومخلفات عناقيد العنب من بنور وقشور وبقايا عنب عفن .. هذه الأطباق كانت من قبل مرصوفة نظيفة بيضاء فسحبت الواحد بعد الآخر لأجل أكل العنب ففسل فيها العنب ، وبقيت هى دون أن تغسل .. سوداء ، مطحوسة ، لزجة .

تلك هى بقايا العنب .. تعاونها فى اعداد تابلوه الفوضى والقذارة .. مخلفات المانجة .. ببسورها المبدورة فى أنحاء البيت كأنما قد انتقلت أرضه حقلا لزراعة المانجة ، وبالقشور الملقاة هنا وهناك وبماء المانجة السائل فى لزوجة على المنضدة والأرض المختلط بالأتربة .. وبين كل هذه المخلفات

العجيبة تجد فرديتي الحذاء والشراب .. مستقرة في فراقتها الخالد .. ونفورها الأبدى .

وتتم المنظر الرائع ، أوراق الصحف المتحركة المرفرفة المتساقطة على الأرض والظروف الممزقة والأوراق القديمة التي كتبت عليها مقالات أو بقايا مقالات .

ولكى يصبح المنظر الرائع ، شيئا فريدا .. كان لابد من أن تكسر ملة السرير - دون أن يفكر أحد منا بالطبع في اصلاحها - فيميل على جانبه ، ويصبح السرير غير صالح الا للدخرجة والدألجة .. يعلم الله كيف ينال العم العزيز .

وهكذا تمت الروعة ، ولكنها كانت روعة صامتة .. تحتاج الى بعض الموسيقى لتكون تامة المعانى كاملة الاخراج .

وقدم الموسيقى في هذا المنظر الفوضوى صنبوران للمياه .. صنبور تلتفت جلسته فأخذت المياه تنكسب منه النقطة تلو النقطة ، على الواحدة .. والصنبور الآخر ، لمست أدرى ماذا أصابه حتى أخذ يزن بصفة مستمرة كأنه للنأي أو صفارة الانذار العاطلة .

هذا هو التابلوه المقرب الرائع الذى أجبرنى على شراء زوجين من الشياشب - وكان هذا من ضمن أعمال التعمير - بعد أن تعذر علينا الخوض فى الأثرية وتعذر علينا أن نجد الشياشب القديمة ، وتعذر علينا كذلك أن نبقى بالأحذية حتى ساعة النوم وأن نلبسها بمجرد الهبوط من الفراش .

وأخيرا انتهت أعمالنا التي حضرنا من أجلها الى القاهرة وعزمنا على السفر وجلسنا فى الليلة الأخيرة نمتع البصر بمنظر الفوضى والقدارة الذى بلغ أقصى روعته ، ووددنا أن يعرض المنظر على أهل البيت من الحريم حتى نتشفى منهن وحتى نريهن كيف انتقمنا لأنفسنا .

وأنبأتني العم أننا سنسافر فى ساعة مبكرة ، حتى نقطع الطريق فى طراوة الصباح قبل أن ترتفع الشمس ويبلغ الحر أشده ، وحدد للسفر الساعة

الرابعة والنصف صباحا وطلب منى أن أجهز نفسي من الليل وألا أنسى شيئا حتى لا أسبب له عطلا فى الصباح ، وأعطاني محاضرة قيمة فى ترتيبات السفر .. ولم ينس أن يذكرني بمحبس المياه .. وأكباس الكهرباء .

وجهزت حقيبتى وأعدت كل ما أنوى أخذه فى السفر مما كلفونى باحضاره من البيت ، وفى الساعة الرابعة صباحا استيقظت من النوم فوجدت العم قد استيقظ .. وسرعان ما حلفت ذقتى وارتديت ملابسى .. وأصبحت على أهبة الاستعداد ، وأخذت أراجع نفسي حتى أخذ كل ما أود أخذه ، فقد كنت لا أريد أن أسبب - بنسيانى حاجة ما - أى تعطيل أو تأخير .

ونزل هو الى الحديقة فهز شجرة الجوافة وجمع ما سقط من الثمار ليأخذها معنا ، ثم حملنا كل حاجياتنا فى العربة .. ونزعت أكباس الكهرباء .. وأخذت أتحمس طريقي الى الخارج ، فقد كان الظلام مازال مسدلا ستوره ، وأغلقت الباب بالمفتاح ووضعته فى جيبي .. وهممت بركوب العربة عندما صاح عمى :

- انتظر .. لقد نسيت العصا .

وكان على أن أعود لأحضر العصا ، وأن أفتح الباب وأن أضع الأكباس وأصعد الى أعلى فأحضرها له .

ودارت الفكرة فى رأسه ويبدو لى أنه أحس ببعض الخجل من أنه هو الذى سيكون السبب فى التعطيل ، وأنه هو الذى نسى .. رغم أنه حذرني من النسيان وعلمنى الحذر فى ترتيبات السفر .

وسرعان ما غير رأيه وصاح بى فى غير اهتمام :

- هيا بنا .. نحن لا نريد أن نتعطل ، لا داعى للعصا .. وأظن أنه يوجد غيرها فى الاسكندرية .

واتخذنا مجلسنا فى العربة ، وأخذت فى التحرك بعد أن تنازل عن العصا حتى لا يكون سببا فى تأخيرنا بضع دقائق .

ونظر في الساعة وقال :

- الساعة الخامسة الاثلث .. موعد مبكر .. أظننا نستطيع أن نصل -
بالراحة - الى البيت في الساعة التاسعة ؟

وصدقت على قوله بقولي :

- أظن ذلك اذا لم يحدث عطل .

- ان شاء الله لا يحدث عطل .

وكنا قد بلغنا - عندما قال قوله هذا - بيت مكرم باشا وبينه وبين بيتنا
ما يقرب من محطتي ترام .. ولكنه لم يكذب قوله أو على الأصح تمنيه
ودعوته حتى صاح كأنما قد تنكر أمرا هاما :

- لقد نسيت دفتر الشيكات .

وتعمل السائق بعض الشيء .. وتوقعت أن يأمره العم بالعودة ، ولكن
الفكرة دارت في رأسه مرة أخرى .. وبدا عليه التردد وأخذ يوازن بين دفتر
الشيكات .. وبين محاضراته عن ترتيبات السفر ، وعدم الرغبة في التعطيل ..
وأخيرا صاح بالسائق :

- سوق على طول .. لست في حاجة الى الدفتر .. ان معي من النقود
ما يكفي ، ولا أظن سأحتاج اليه .

وهكذا مرت سليمة ، وتنفس كلانا الصعداء ، واستمرت العربية في
طريقها الى شارع الهرم .. وحمدنا الله على أن ما نسي كانت أشياء بسيطة ..
ولم يكن هو - على حد قوله - في حاجة اليها .

وقطعنا شارع الملكة نازلي .. ووصلنا الى ميدان الاسماعيلية ، وعبرنا
كوبرى قصر النيل ، وقد اضطلعنا في مقاعدنا مستريحين هانئين ، نحسب
في أذهاننا الساعة التي سنصل فيها ، وكيف ستكون مبكرة الى حد أنها
ستفاجيء الأهل .

وفجأة رأيت العم يميل الى الأمام .. ويصيح بلا تردد ولا تفكير :

- موسى .. دور ، عد بنا الى البيت .

وتلفت اليه في دهش شديد ، متسائلا عما حدث .. فأطرق برأسه ، وقال
في بأس :

- لقد نسيت حقيبة ملابسي .

★ ★ ★

في أرواحي

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع
الأطفال أنفخ في الزمارة وأنا أرتدى
الرينجوت وقد شمريت - جدتي -
أكمامه ، وثنت ساقى البنطلون
وأخذت أنتقل الهوينا بقدمي (يلق)
في الحذاء وكأني ألبس مركبا !!

- أهلا .. وسهلا سعادة الباشا ...

- أهلا بك .. ازيك يا أستاذ ...

- الحمد لله .. الى الاسكندرية ان شاء الله ؟

- ان شاء الله . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام بالسكة الحديد ..
فالطائرة توفّر كثيرا من الوقت .

- ولكن الأرض أضمن ، أنل قدمي ظهر الأرض أني .

- يامسدي .. العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا ناقها متقطعاً .. حديث لقاء عابر في
قطار .. وكنا نجلس في عربة تكييف الهواء في القطار السريع المسافر الى
الاسكندرية يحيط بنا جو من الفخامة والأبهة يصغر الخد وينفخ الأوداج ،

ويملاً بالكبرياء أشد الناس تواضعاً ، وينفخ بالأرستقراطية أحطهم قدراً وأوضعهم شأنًا .

واضطجعت في المقعد اللين الوثير ووضعت ساقاً على ساق .. فقد كانت تلك هي أقل جلسة يمكن جلوسها في هذا الجو الفاخر ، ولا سيما أن الباشا محدثي كان قد اتخذ هذا الوضع وعلق ساقاً على ساق رغم تعذر هذه العملية عليه لقصر ساقيه وانتفاخ بطنه .

ويبدو لي أن من الخير - قبل أن أمعن في المرد - أن أزيل من ذهني القارئ ما قد يكون علق بذهنه من وهم خاطيء عن الباشا الذي نحن بصددده ، فيظنه مما قلت عن باشويته وقصر ساقيه وانتفاخ بطنه أنه أحد تلك الأشكال الثرية الخنزيرية الغبية المتعجرفة الثقيلة الدم الخ .

لا .. لا .. لم يكن صاحبنا قط بالثقيل ولا الدعوى ولا المتعجرف .. على النقيض من ذلك كان نموذجاً للذكاء واللفظ وخفة الدم وطلاوة الحديث .

كان عبد العزيز باشا عمران أحد رجال المال والأعمال المعروفين في البلد .. لا يزيد عمره على الخامسة والأربعين وهو يملك عدة شركات مختلفة .. بينها بضع شركات للأوتوبيس والدوارة وغطيان الكازوزة ، وهو كذلك أحد مهندسينا الناجحين النابهين الذين ركلوا وظيفتهم الحكومية وملكوا ناصية العمل الحر . فصالوا فيه وجالوا ، وتلألاً نجمهم وعلا صيتهم ، وأصبح يشار إلى قدرتهم ونبوغهم بالبنان .

وكننت أقدره مما أسمع عن فرط ذكائه وشدة عبقريته ، فلما لقينته زاد تقديري له .. لما رأيته من خفة دمه ودمائه خلقه ...

وأخذت أرقبه وقد جلس في مقعده ووضعت بين شفتيه سيجارا طويلا .. وتللت من صديريته سلسلة ذهبية .. وبدأ وجهه منتفخاً ، ووضع على عينيه منظارا رقيقا ذا اطار ذهبي أنيق ، وداخلى من منظره اعجاب كثير .. وقلت لنفسى : ان مثل هذا الرجل جدير بالاحترام .. فقد كسب مركزه وثرأه بجهدته وذكائه .. وأن مخلوقاً موهوباً مثله كان لابد أن يلقى ما لاقى من نجاح .

وانحدر بصرى من وجهه الى جسده .. الى ساقيه .. وقد وضع احدهما فوق الأخرى .. فشمز بنطولونه وانحسر عن جوربه الحريري النايلون ، وجزء من ساقه الجرداء السمراء ، وبدت لي قدمه صغيرة كقدم الطفل وقد دسها في حذاء (باللى) فاخر أنيق ، وأخذ يهزها هزات خفيفة ..

وظل الحديث يجرى بيننا متقطعاً .. سؤال من هنا .. وجواب من هناك . حتى خطر لي أن أسأله عن قصة نجاحه . وعن مظاهر النبوغ في أطوار حياته .. طفولته .. وصباه وشبابه .. ان حياة مثل هذا الرجل يمكن أن تكون درساً نافعا لجيل بأكمله ، وهممت بالسؤال عندما لمحت قدمه تكف عن الاهتزاز ، ورأيت أصابعها تتحرك داخل الحذاء كأنها في ضيق .. ثم أبصر بيده تمتد الى كعب الحذاء فتخلعه برفق ثم تسحبه من القدم قليلا لكي تعطى للأصابع فرصة التحرر ثم تعود يده الى مكانها من جيب صديريته تاركة الحذاء يتأرجح معلقاً على أصابع القدم .

ووجدت الرجل يبتسم عندما رأيته أرقب عملية نزع الحذاء ثم نمتم معتنرا :

- لا مؤاخذه .. أحب أن أريح قدمي قليلا .. ان الحذاء ضيق بعض الشيء .

- العفو يا سعادة الباشا .. خذ حريتك .

- انى دائما أليس حذاء ضيقا .. فليس أبغض الى من الحذاء المتسع .. انها عادة قديمة .. قديمة جدا .

ثم انطلقت منه قهقهة عالية وأخذ يهز رأسه ويقول :

- زمن ! ..

وانتظرت منه أن يفسر قوله ويشرح عاداته القديمة في كرهه للحذاء المتسع ، وأن يعقب على عجبه من الزمن ببعض الاسهاب .. ولكنى وجدته يصمت ، وسمعت بدلا من صوته .. صوت شخير قد علا بجواره .

ونظرت الى صاحب الشخير فاذا به عجوز قد راح في سنة من النوم ،
ورأيت الاباشا ينظر اليه ثم يستغرق في الضحك مرة أخرى ويعود الى لهجته
الساخرة قائلا :

- دنيا .

ويبدو أن الرجل قد لمح على وجهي بعض علامات الضيق الناتجة من
اغراقه في الأقوال المبهمة والسخرية الغامضة ومن تعجبه من الدنيا ومن
الزمن .. فقد بدأ يفصح قائلا :

- الحذاء المتسع ، وما أدراك ما الحذاء المتسع .. لقد كان مصدر
شقاؤي في باكورة الحياة .. كان أكبر مصيبة رزئت بها ..

وعاد الرجل الى الضحك ، فلم أملك سوى أن أستغرق معه في
الضحك .. حتى بدأ يتمالك نفسه قائلا :

- كان ذلك منذ ما يقرب من أربعين عاما ، وكنا نقطن وقتذاك بالدرج
الأحمر في حارة الروم .. وقد ضمنا جميعا بيت كبير حوى جميع أفراد
العائلة ، وكان رأس العائلة جدنا الكبير - والد أُمي - تاجرا بالغورية .. يعيش
من أولاده خالي الأكبر وخالي الأصغر وأُمي .. وكان أبى قد توفاه الله ...
وحل بنا أحد الأعياد فطلبت جدتي من الخال الأصغر - خالي طه - وهو أعقل
أفراد العائلة وأكثرها اقترانا أن يتولى شراء ملابس العيد لى .

وكان لخالي طه - من يومه - نظريات رفيعة في فن الاقتصاد ويبدو
لى أنه قد أبى الا أن يطبق نظرياته الرفيعة - التي كانت مداركنا أعجز من
أن تفهمها وقتذاك - في عملية شراء ملابس المتواضعة فقد خرج الى السوق
يجول جولة بين الغورية والموسكى ليبنتاح لى بذلة العيد وحذاءه ولم يحاول
أن يصطحبني حتى لا أعرقل حركته .. وخاصة أنه لم يجد هناك مبررا لعملية
القياس ، فقد كان يعرف مقاسي بالنظر . واستمر ينتقل من مكان الى مكان ..
دون أن يجد البضاعة الملائمة أو السعر الملائم .. حتى وقف فجأة أمامه بذلة
معلقة في أحد الدكاكين .

عجيب .. ! هذا سعر لا يصدق .. أنها صفقة هائلة ! كيف يمكن هذا ..
لا شك أن صاحب الدكان قد أخطأ السعر .. ليدخل اثنان ، ويتحقق بنفسه .
ودخل الحانوت وسأل صاحبه .. فأجابته أن السعر مضبوط لا لبس فيه
ولا خطأ .

مدهش .. ! خمسة وسبعون قرشا لبذلة رندجوت ! .
لقد قال التاجر أن صاحبها قد وجدها ضيقة عليه ... وأنه لهذا أبى
استلامها ، وأنه يعرضها للبيع .

خمسة وسبعون قرشا . ! يا بلاش ! ..

انها صفقة هائلة .. لا بد من شرائها .

انها قد تكون بالنسبة لى واسعة فضفاضة .. ولكن لا شك أنه يمكن
استعمالها .. ولا يغرب عن البال أنني صبي وفي دور النمو ، وأن حجمي
يتزايد .. وقد أنمو في العام القادم فجأة .. فتصبح البذلة محبوكة على .

ولكنها .. رندجوت ، وأنا طفل !

وأى ضير في ذلك ؟ هل هناك قانون يحرم على الأطفال لبس
الرندجوت ؟ .

لا .. لا .. يجب ألا يتردد في شرائها .

وهكذا أقدم على شرائها .. لمجرد أنها في حد ذاتها صفقة رابحة ..
بصرف النظر عن صاحب البذلة ... وصلاحيته له .

أجل .. انتنى يجب أن أنمو حتى أصبح ملائما للبذلة .. لأنها بذلة متينة
ورخيصة ، وحرام أن تضيع من يدنا ...

وهكذا تم شراء البذلة .. أما الحذاء فقد كانت نظريته فيه لا تقبل
المجادلة .

لقد كان يعتقد أن فئمة دائمة النمو ، وأن حذائى الجديد يجب أن يكون أكبر بـعدة نمر حتى لا يضيق على ويصبح غير صالح للاستعمال قبل أن يلى . !

وبمثل هذه النظرية ابتاع لى الحذاء .

وعاد الى البيت يحمل الرنجات والحذاء الكبير .

لقينه جدتى مذهولة ، واستفسرت مستنكرة عما أحضر .. فأتبأها بلهجة الراضق ان هذا خير ما يصلح لى .

وكان من العبث مناقشته ، ولم أكن أنا نفسى - ككل طفل - أهتم بنوع الملابس أو مقاسها ، بقدر ما أهتم بها كأشياء جديدة . وكانت فرجتى بها ولهفتى على ارتدائها تجعلنى أرفض أية محاولة لارجاعها أو مناقشة فى عدم صلاحيتها .

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرندى الرنجات وقد شمعت - جدتى - أكمامه وثنت ساقى البنطلون وأخذت أنتقل الهوبنا بقسمى ، يلق ، فى الحذاء ، وكأننى ألبس مركبا ! .

والمدهش أن الله قد أبى أن يحقق نظرية خالى فى مسألة نموى .. فقد بقيت كما ترى ، ومرت السنة تلو السنة وأنا أهروول فى البذلة والحذاء ، وأقسم ثلاثا أننى لو عثرت اليوم على الحذاء لعامت فيه قتماى .. لقد كان خالى بعيد النظر جدا .. أبعد مما استطعت أنا الوصول اليه .

وكانت البذلة والحذاء أمرا محتملا فى العيد .. لاميما أن جدتهما وفرجتى بهما لى تذهب بعد ، وأن اختيالى لم يكن يكعدى الحارة وأهل الحارة . ولكن لم تكد تنتهى الاجازة وأذهب الى المدرسة .. حتى بدأت أثير بهما ضجة بين التلاميذ .

ولم تزعجنى الضجة .. فقد كنت - من يومى - مخلوقا مرحا « هليهى » ، ولم أحاول أن أجعل من طقم الرنجات مبعثا لخلجلى أو

لضيقى .. بل كنت أشترك مع التلاميذ فى نكاتهم على ، أردما تارة وأحتملها تارة أخرى ، أنا فى الحاليتين ضاحك مرح .

وهكذا استطعت أن أحتمل الرنجات .. أما الحذاء فقد كان مصابى الأكبر ، وخاصة فى حصة اللغة العربية .

كان درس اللغة العربية هو الدرس الخامس .. أى بعد فسحة الغذاء وكان مدرس اللغة العربية هو الشيخ على الابريمى .. كناية عن أنه جاف مفند مقلف كالبلح الابريمى ، ولم تكن العلاقة بينى وبين الشيخ على بطيبة فى يوم من الأيام .. فقد كان دائما يتهمنى بالبلادة والغباوة والكسل ، ويقسم أنه لم ير فى حياته تلميذا أكثر منى غباء . وكان ينصحنى دائما بأن أقلع عن الدراسة وأبحث لى عن صنعة أتعلمها ، لأنه لا أمل لى قط فى النجاح .

ولم يكن الشيخ بمتجن على فقد كنت فعلا مخلوقا غبيا ، وخاصة فى العربية ، وما استطعت قط أن أعى شيئا عن النحو والصرف والاعراب لسبب واحد .. هو أنى لم أستطع البقاء مستيقظا فى حصة واحدة من حصص الشيخ على .. فقد كانت حصصه تعقب الغذاء مباشرة وكان الجهد الذى أبذله فى الفسحة والشرابة التى أتناول بها الطعام ... تجعل استيقاظى فى الحصة الخامسة أمرا مستحيلا .

وكان نومى - قبل أن أرندى الحذاء اللعين - مسألة مضمونة مأمونة .. أما بعد ارتدائه .. فقد أضحى عملية مفضوحة مكتشوفة .

كان جرس الفسحة يدق فتدخل الفصول .. ويجلس كل منا فى مقعده ، وكنت أنتقى لى مقعدا خاصا فى الحصة الخامسة .. هو آخر مقعد فى ركن الفصل ، وكنت أجلس فيه أمنا مطمئنا .. يحجبنى عن عين الشيخ على جسد التلميذ الضخم الجالس أمامى .. الذى كان يستتر جسدى الضئيل تماما .

ويبدأ الشيخ على الشرح .. بصوته الرفيع ذى النغمة الواحدة التى لا تتغير .. والتى كان لها تأثير مهدىء على أعصابى ، والتى كانت تعادل وقتذاك حقة من الأقراص المنومة ، وأحاول عبثا أن أتتبع حديث الرجل عن البذل

والحال .. ولكن لا تمر برهة حتى أكون قد سبحت مع الملائكة في سبات عميق .

وكانت عادتي - وما زالت - عندما أنام وأنا جالس أن أتخذ وضعا مريحا .. بوضعي ساقا على ساق !

ولم يكن هذا بالأمر الخطير حتى رزأني الخال العزيز .. بالحذاء اياه .

لقد وضعت - كعادتي - ساقا على ساق ، ورحت في تباتي .. أنعم بنومه هائلة عندما سمعت في الفصل ضجة مفاجأة تقطع صوت الشيخ على الرفيع الهادئ .

وفزع الشيخ على وصاح ثائرا :

- ما هذا ؟

وأجابه الفصل كله في نفس واحد :

- حذاء عبد العزيز عمران .

ومنذ ذلك اليوم ولم يغمض لي جفن في درس عربي . لقد كنت لا أكاد أحس بالخمول وأستسلم للنعاس واضعا ساقا على ساق .. حتى ينزل الحذاء من قدمي ويهوى الى الأرض في ضجة كبرى ، ولم يكن الشيخ على في حاجة بعد ذلك لأن يسأل عن سر الضجة .. بل كان يصيح حانقا :

- اخرج بره يا واد يا عمران يا بن الكلب .

ثم يهجم على ويعمد ورائي وأنا ممسك بالحذاء في يدي ، وأنطلق هاربا من الفصل ، والتلاميذ يضحون بالضحك والأستاذ يضح بالشنائم ويصيح :

- أقسم انك لن تفلح يا غبي يا بليد .. هذا شاربي ان كنت تفلح .. سأذكرك بقولي هذا في المستقبل .. عندما تصبح كمساريا ، أو عرجيا . !
هذه أشكال لا تنفع في المدارس .

★ ★ ★

ولم يكد عمران باشا ينتهي من حديثه حتى لمحت حذاءه (البالي) الوجيه ينزل من قمعه ويهوى الى الأرض ، ورغم أن الضجة التي أحدثها الحذاء عندما اصطلم بالأرض كانت ضجة خافتة الا أنها كانت كافية لأيقاظ الشيخ المغرق في نومه في المقعد المجاور .

لقد كف الرجل عن شخيره وفتح عينيه في فزع .. وبحركة لا ارادية وجدته ينحن فيتناول الحذاء ، ويسلمه الى عمران باشا قائلا في أدب :

- اتفضل يا سعادة الباشا .

وتناول الباشا الحذاء ، وهو يقول في تواضع :

- العفو يا سيدي العفو .

وقبل أن يعود العجوز الى سباته رأيت الباشا يقوم بواجب التعريف بيننا ، فيشير بيده الى ثم الى الشيخ قائلا :

- الأستاذ على الأبريمي ..

وتملكنتي دهشة شديدة .. أهذا اذا هو الشيخ الابريمي .. مدرس العربية السابق ؟

ولم يستطع الشيخ أن يبالغ النعاس .. فاستغرق في نومه ثانية وعاد الباشا يقول متمما حديثه متجاوزا عن علامات الدهشة التي بدت على وجهي :

- لقد مرت الأيام وانتقلت من مدرسة الى مدرسة ، والشيخ على ما زال مدرسا للغة العربية ، وأصبحت مهندسا وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، ونوظفت في الحكومة واستقنت من الحكومة ، وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، وأنشأت الشركة تلو الشركة ، وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، والتقينا ذات يوم فأقبل على مرحبا مهلا مكبرا ، وصاح بي :

- ما شاء الله . ما شاء الله .. من يومك وأنت فالح .. هكذا الهمة وهكذا الذكاء والنبوغ ، كنت أنتبا لك بهذا الفلاح . أتذكر يوم قلت لك اني سأذكرك بما ستصبح عليه مستقبلا ؟

- اُنکر یا شیخ علی .. اُنکر جیدا .

وأنبأني أنه سيحال الى المعاش بعد بضعة أيام بلا معاش ، بعد خنعة
وزارة المعارف أربعين عاما .. فقلت له :

- ربنا تاب عليك من التدريس يا شيخ على ! .. تحب أشوف لك وظيفة في الشركة ؟ .

- یاریت .. !

وهكذا ختم الشيخ على الابريمى مطافه المدرسى .. بوظيفة فى شركة الدويارة .

وصمت الباشا برهة .. فسألته :

- وماذا يعمل الشيخ في الشركة ؟ .

- لا شيء ، وماذا يستطيع أن يفعل أكثر مما رأيت ؟ يسهني ويرفع الحذاء الساقط .. ! رحم الله العلم والتدريس في أرض الكنانة !

★ ★ ★

وسحبت يدي من يدها وأحطتها
بذراعي فأملت رأسها على كتلي ،
ومدّت شفتي فحوت شفتيها ،
وقبلتها في لهفة وشوق ، وحمدت
الوسواس الخناس الذي يوسوس في
صنور النفس .

كنا أربعة أو خمسة من الصحابة التفتنا حول مائدة في منتدى وأخذنا
ننقطع الوقت بالحديث والسر .

وما أنكر أن الصحبة اجتمعت الا كانت الأنصاف الحلوة مدار الحديث وموضع السمر .. وعندما أقول الأنصاف الحلوة أعني بالطبع الأنصاف الحلوة بكافة أنواعها بما فيها الأنصاف الحلوة الشرعية .. والأنصاف الحلوة غير الشرعية .. والأنصاف الحلوة الطائفة العابرة الفاتنة الفاتكة .

أما الأنصاف الحلوة الشرعية - أعني الزوجات اذ كنا كلنا أزواج - فقد كانت في نظرنا حلوة باعتبار ما كان وما كنا نذكرها في أحاديثنا بغير المرارة والشكوى والهزاء والنشيع .

أما الأنصاف الحلوة .. غير الشرعية ، فقد كانت في أحاديثنا نكريات

حلوة غابرة ومغامرات تتبادل سردها على سبيل السمر والتسلية واستعادة أيام الصبا وعهود الشقاوة والتحرر والانطلاق .

أما الأنصاف الطائفة العابرة فما كنا نملك إزائها الا الحملقة والحسرة .
أخطنا في الحديث عن الأنصاف غير الشرعية وهو أحب الحديث الى أنفسنا وجعلنا تتبادل قصص المغامرات والنوادر .. وبين أونة وأخرى يطبق علينا الصمت فجأة .. وتتحرك أعيننا في اتجاه واحد وبزاوية نظرة واحدة محملتين في نصف حلو عابر .. حلقه من لم ير نصفاً حلواً من قبل .. مشيعينه باللهفة منذ ظهوره حتى اختفائه .

وأفرغ كل منا بعض ما في جوفه من نوادر الصبا .. الا واحداً كان أكثرنا تودة وأقلنا حديثاً .. فقد أخذ الى الصمت والاستماع حتى استحثه بعضنا بقوله ناهراً :

- توفيق .. قل شيئاً ، وكف عن هذا الصمت الثقيل . لا بد أن تكون لك بعض المغامرات .

ولم يجب توفيق ، وعدنا نشجعه بقولنا :

- قل ولا تخف .. لن نبلي زوجتك شيئاً .. أليس لك مغامرات ؟

وأجاب أحداً بالنيابة عنه :

- لا بد أن له مغامرات كثيرة .

وضحك صاحبنا توفيق ، وأجاب بعد طول صمت :

- مغامرة واحدة .. والله العظيم .

وصحنا كلنا في نفس واحد :

- قصها علينا .. لن نتركك حتى نستمتع اليها !

وأطرق توفيق برأسه برهة يستعيد القصة الى ذهنه ويلم أطرافها من

أنحاء الماضي .. ثم ضحكك ضحكين فصيرتني ، وأخذ يقص مغامراته قائلاً :

★ ★ ★

بدأنا المغامرة منذ خمسة عشر عاماً وأنا مازلت حديث عهد بالتخرج من المدرسة وبالتوظيف .. حديث عهد بالاستقلال الذاتي ، وبالاثنى عشر جنيتها أتناولها في أول كل شهر وأشعر أنه ملكاً خاصاً لي .. وأتى حر التصرف فيها أصرفها كما أشاء .. وأبدها حيثما أشاء !

ومع ذلك فلم أكن أبدها ولا أصرفها .. بل كنت أقصد جزءاً كبيراً .. لأنني كنت أعيش في ذلك الوقت مع والدي .. ولم يكن هناك أوجه للصرف .. لاسيما وأنا كما تعلمون مخلوق طيب هادئ لم أستطع يعد - رغم توظيفي - أن أتحرر من الاحساس بأنني ما زلت تلميذاً .. وأن أوسع نطاق نزاهتي وفرفشتي .. فكان أقصى ما أفعله من برم ، هو أن أذهب الى السينما ما تينيه وأتناول سندويش من الأمريكين وقطعتي جاتوه من تسيباس ، وأجول جولة في شارع فؤاد وعماد الدين متطلعا الى الغاديات والرايات أو المتسكعات على الفترينات ، ثم أعود الى البيت حامداً شاكرًا فلا تدق العاشرة حتى أكون راقداً في الفراش .

كان ذلك أقصى برنامج الشبرقة والبرم والتهيبص والفرفشة : سينما وسندويش وجاتوه وتطلع الى النساء والفترينات .. حتى بدأت المغامرة الأولى .. وراء إحدى الفترينات .

كانت الفترينة المقدسة .. فترينة الهوى والذكريات .. هي فترينة ريفولي الكائنة على ناصية شارع عماد الدين وشارع عدلي .

والفترينة في حد ذاتها عامرة حافلة .. ملفقة مغرية .. وهي تقع في معبر هام لا يكاد يمر يوم دون أن أعبره رائحاً أو غادياً .. متمهلاً أمام الفترينة مستعرضاً محتوياتها ونظارها متطلعا الى ما في داخلها وخارجها معتمداً الطرف بما فيها وما حولها .

وزاد نمهي يوماً بعد يوم ، وأضحى مروري بالفترينة ووقفتي أمامها

واجبا مقدما لابد من تأديته . وأخذ البصر يتجاوز ما في الفترينة الى ما وراءها .. وينفذ من الزجاج متخللا المعروضات عابرا الظهر الزجاجي مستقرا على وجه معين يتخذ مكانه في أحد أقسام المحل .

وكان وجهها حلوا صغيرا دقيقا متمتع العينين .. لنت لي مشاهدته كل يوم .. حتى أصبحت عادة ملحة عندي ، وبدأت أضغ زيارته من وراء الفترينة على رأس برنامج الفرشاة والبرم وأضيف الى السينما والساندويتش والجاتوه والتسكع ، وقفة بفترينة ريفولي لمدة ربع ساعة قابلة للزيادة الى نصف ساعة .

ومضت بضعة أشهر ، ومغامرتي لا تتجاوز التطلع من وراء الفترينة .. حتى وموس لي الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس .. بأن أتجراً قليلا وأقم على عمل إيجابي وأقنعني بأن دخله في المحل ووقفة أمام الساحرة ومحاولة الشراء ستبغيني الأرب وتبلغني المعنى دون أن يكون في عملي خروج على مألوف أو لفت للنظر .

واقنعت بسهولة بكلام الوسواس الخناس ، ودخلت المحل .. واتجهت رأسا الى بغيتي دون أن يكون لدى أي فكرة عما أنوي شراءه .

وقفت أمامها وجهها لوجه .. أو بتعبير أدق عينا لوجه .. فما كان بي وقتذاك سوى عيينين تحملقان في وجهها الحلو .. ومضت برهة وأنا أفحصها وهي ترتب بعض البضائع في منضدة زجاجية أمامها .

وأتمت عملها ثم رفعت الى بصرها متسائلة :

- أفندم ؟

وهنا فقط تذكرت أنه يجب ألا أكتفي بالحملقة فيها بل أشتري شيئا ، أو على الأقل أحاول الشراء .

وينظرة سريعة عرفت نوع بضائعها وكانت تتولى قسم أدوات الزينة للسيدات من مانيكير وعلطور وبودرة ومقاصات أطفال وكرام للوجه .. الخ .

وأخذت أفحص ما عندها محاولا أن أجد شيئا يصلح للشراء .. أعنى ما يمكن شراؤه دون أن يذهب ثمنه سدى .

ولم يكن لديها بالطبع شيء يصلح لي .. فبدأت أبحث عن شيء يصلح لوالدتي قليلا في نفسي أنني لم أهدا شيئا منذ أن تخرجت ، وأخذت أفحص الأصناف المعروضة ببصر حائر وذهن قلق مضطرب لاجساسني أنني واقع في هذه اللحظة تحت بصرها .. وأنها ولا شك آخذة في فحصي ولو على سبيل التسلية .

وفجأة تذكرت أن والدتي كانت قد طلبت مني ربع أقة حنه بغدادى من الحناوى بالعمورية .. وقلت لنفسى أنه لو كان لدى الفاتنة هذا النوع من الحنة فإن المسألة تكون صفقة رائعة وتوفيقا من عند الله ، وأكون بذلك قد أرضيت نفسي ووالدتي وخرجت من هذا الحرج الذى أنا فيه قائلا :

- عندي حنه بغدادى ؟

ولم تستطيع الأنسة أن تمنع الابتسامة التى افتر عنها ثلثها وهزت رأسها وقالت في لهجة فيها زجر خفيف :

- لا يا فندم .. ألا تريد شيئا غير الحنة البغدادى ؟

وأصابني الارتباك من هذا الزجر الذى كشفت به أمرى وقلت مدافعا :

- أريد أى شيء .. أهديه لمخلوق عزيز .

وتأملت المنضدة برهة .. ثم أخرجت لي عليه في حجم الكف وفتحتها

قائلة :

- هذه علبة لطيفة .. بها طقم كامل للزينة .. هذه زجاجة الريمل ،

وهذه زجاجة المانيكير ، وهذه بودريير لطيفة جدا لم يعد عندها سواها .. أنصحك بأخذها .

وكانت لهجتها في الحديث حلوة كوجهها ، والكلام يقطر من شفيتها كما

يقطر عسل النحل .

انها تنصحنى بأن آخذ العلبة .. ولم أك أقوى على رد النصيحة ، ولو كنت ملاقيا فيها حتفى .. ولا كنت بمستطيع رفض العلبة ولو كان بها بدل الرميل والمانيكير سم زعاف !

وأخذت العلبة ودفعت فيها كل ما فى جيبى فلم يبق معى غير أجرة الترام .. وعدت الى البيت قريدا هائلا كأنى قد فتحت عكا ، أو كأنى جيت الديب من دبله ! .

ولا أظن هناك ضرورة لوصف وقع الهدية على والدتى وثورتها على ، واتهامها إياى بالخيل واصرارها على ارجاعها ، وانتهى الأمر بها الى بيعها الى احدى القريبات بنصف الثمن .

وبدأت بعد ذلك سلسلة من الغزوات الشرائية الغزلية لمحل ريفولى .. ولكنها غزوات خسائرها خفيفة محتملة .. فيوما أبتاع بنسات للشعر .. ويوما آخر أبتاع ملقاطا للحواجب .. وهكذا ظللت أمزمز على بضائع الحساء وأخرج منها بما خف حملة وخف ثمنه !

ومع ذلك فقد ثقل الأمر على جيبى ، وتكسمت لدى كمية من أدوات المسيدات أستطيع أن أسرح بها فى عزيات الترام ، وكان لابد لى من أن أضع للأمر نهاية ، لا سيما وأن مرور الأيام وكثرة الغزوات والأحاديث العابرة والنظرات الطيارى زادتنى شغفا وولعا .

وعاد الوسواس الخناس مرة أخرى يؤسوس فى نفسى ويأمرنى بأن أأخذ خطوة أشد جرأة وأكثر جسارة وأقنعنى بأن انتظرها على باب المحل حتى خروجها ثم تتبعها ومعرفة بينها سيكون خطوة موفقة ومرحلة حاسمة فى مغامرتى .

وفعلتها .. ووقفت أنتظر حتى أغلق المتجر أبوابه .. وخرجت البائعة الساحرة .. وسمرت أتبعها فى حذر عن بعد .. حتى انتهى بى المطاف بعد طول سير وركوب أتوبيس الى باب بيتها بالمسكاكينى ، ودخلت هى ، وعدت بلا .. حتى خفى حنين .

وهكذا بدأ التطور الثانى لبرنامج فرفشنى ، فزاد على محل ريفولى وتوصيل الحساء فى أتوبيس نمرة ١٠ حتى بيتها فى المسكاكينى .

واستمررت أوصلها كل ليلة دون أن تبدو منها بادرة تشعرنى أنها تعرفنى أو تحس بى ، بل كانت تتجاهلنى تجاهلا تاما ، لا غضب ولا ضحك ولا نفور ولا انبساط !

وسنحت الفرصة الرائعة ذات يوم .. الفرصة التى تلمع فجأة .. ثم تختفى ، فإن اقتنصها الانسان ذاق معادة العمر ، وإن تركها فقلت ذهب عمره سدى .

رأيتها ذات يوم ، وكان يوم أحد واقفة أمام شباك تذاكر سينما متروبول ، توشك أن تتباعد تنكرة .

ولم يكن الوسواس الخناس - بلا جدال - هو الذى وسوس هذه المرة فى صدرى .. لأنى اندفعت قبل أن أعطيه فرصة الوسوسة لأتخذ مكانى وراءها مباشرة أمام شباك التذاكر ، ولأطل برأسى فأعرف مكانها ثم أطلب من البائعة اعطائى التنكرة المجاورة لها .

وهكذا اقتنصت فرصة العمر بلا أدنى تفكير ، ولو كنت قد فكرت لترددت وأحجمت ، ولضاعت الفرصة .. فأنتم تعرفون أى انسان خجول أنا . وجلست بجوارها كتفا فى كتف وذراعا لصق ذراع ، وأنا أكاد أسمع حفيف أنفاسها ، ويكاد قلبى يقفز - من فرط الخفقان - من أضلعى .

وأطفئت الأنوار ، ولم أحاول بالطبع أن أنظر الى الشاشة أو أفكر فى الفيلم ، فقد كان كل تفكيرى مركزا فى كيف أبدأها الحديث .

وهدأتى الخناس الى أن أمس ذراعها بذراعى وأنحس يدها بيدي . وأطعته وفعلت .

وكان نصيبى زغدا من مرقها فى جانبى .

وبلعتها ، وكتمت الزغد فى جنبى !

وعاد الوسواس الخناس يلح فى وسوسته ويقول :

- أقدم .. أقدم !

واستمر الوسواس يوسوس وأنا أطيع ، ويفر وأنا ألبى ، حتى انتهى الأمر الى بى الى زغد آخر ، لا منها ، ولا فى جانبى ، بل من الجالس ورائى ، وفى ظهري ، وهو يهمس بى زاجرا وهو فى حالة غضب شديد :

- كفاية بوس بقى يا سيدنا ! احنا حانتفرج على المينما والا عليك !

وكان الرجل محقا ، فقد كنت لا مرءا وتذاك أستحق المشاهدة .

أى والله لقد انتهى بى الأمر بعد طول وسوسة من الوسواس وتلبية منى الى أن أصبحت شفتا الحسنة فى فمى وجسدها بين نراعى !

كيف ؟ !

لقد لمست يدها أول مرة فزغذنتى فى جانبى ، وثانى مرة سحبت يدها . وثالث مرة استسلمت وانكأ على بكتفها .

وسحبت يدى من يدها وأحطتها بذراعى فأمالته رأسها على كتفى ، ومددت شفتى فمدت شفتيها .

وقبلتها فى لهفة ونشوة ، وحمدت الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صنوبر الناس .

وفى اليوم التالى ذهبت اليها فى المحل ورجوتها أن تنتقل الى قسم آخر رجالى ، حتى توفر لى هذه النقود التى تذهب سدى .

وضحكت وأنبأتنى أنه لا داعى لأن آتى لها فى المحل .. وانفقنا على موعد للقاء .

وهكذا بدأنا نلتقى ، وأنا انسان قليل الحيلة .. عديم التجربة ، ليست لدى

أقل فكرة عن أين يذهب العشاق أمثالى بعشيقاتهم من مثيلاتها .

ولم يكن أمامى غير المينما أصطحبها اليها اللقاء بعد اللقاء حتى بدأت أضيق بالمينما وأمفو الى مكان هادىء يوفر لى خلوة تكون فيها أكثر تحررا واطمئنانا .

وعاد الوسواس يلح ويطلب منى أن أنقب وأبحث ، حتى هبط على صديق من السماء كان أشبه بالمعجزة .

كان الصديق صاحب عربة ، وقد قصصه لأقترض منه عربته وقلت له صراحة ، انى أريد عربته ، لأنتره بها أنا وصاحبة لى .

وقال الصديق ببساطة :

- العربة تحت أمرك ، ولكن لم تتعب نفسك فى العربة ان لدى شقة لطيفة خاصة ، تستطيع أن تأخذ مفتاحها فى أى وقت !

وبهت ، فقد كان هذا أكثر مما أتوقع .

شقة مرة واحدة !

ولم أتردد لحظة ، وقلت له :

- هات المفتاح .

وأخذ يصف لى الشقة معددا محاسنها ، فأنبأتنى أنها واقعة ببيت من بيوت الشركة فى نهاية مصر الجديدة من ناحية المينما وأنها شقة بباب منعزل على الشارع يستطيع الانسان أن يدخل اليها ويخرج منها دون أن يشعر به أحد . وأنبأتنى أنها مزودة بكل وسائل الراحة وبها حجرة نوم نظيفة ومطبخ به بعض المأكولات الخفيفة وزاديو .. الخ .

وأنبأتنى كذلك أن الكهرباء فيها بعدد من النوع الذى يشتغل بالنقود .. أى اننا لا نحصل على كهرباء الا بقدر النقود التى نضعها فى العداد .

وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن هذا العداد .. وأخذ صاحبنى يصف لى موضعه وكيفية وضع النقود فيه . وشعرت بارتباك وقلق خشية أن يسبب العداد مشكلة .. ولكن صاحبنى طمأننى بأن به من النقود قدرًا كافيًا ، وأنه يزودنى بالمعلومات من باب الاحتياط !

ووصف لى البيت جيدًا ، وأعطانى نمرة الشارع ونمرة البيت ، وتواعدنا على اللقاء فى الساعة السادسة مساءً ، حتى يعطينى العربة والمفتاح .

وتركت صاحبنى وأنا أحس بفرحه ممزوجة بالكثير من الخشية والوجل .. فقد كانت المرة الأولى التى أوشك أن أنغمس فى مغامرة كهذه . ومن باب الحذر ذهبت فى التو لأستكشف البيت بالنهار حتى يسهل على الذهاب إليه ليلاً .

ورسلت الى هناك وعرفت البيت بسهولة ، ووجدت مكانه نموذجيًا ، فقد كان - كما قال صاحبنى - دور سفلى فى أحد بيوت الشركة المتجاورة المتشابهة وكان له باب منعزل يفضى الى حديقة صغيرة تطل على شارع صامت ساكن ، لا يكاد يمر به أحد ، وهكذا عدت مطمئنا وأنا أمنى النفس بمغامرة مقبلة ممتعة .

ومر كل شيء على خير ما أشتهى ، فقد التقيت فى الساعة السادسة بصاحبنى وسلمنى المفتاح والعربة ، وفى الساعة السابعة والنصف كانت الحساء تجلس بجوارى وكانت العربة تنهب الأرض فى طريقها الى مصر الجديدة .

ومر كل شيء على ما يرام فيما عدا بعض عصلجة ، من المفتاح سرعان ما تغلبت عليها ، ودخلنا الشقة فاذا بها رائعة حقًا وجميلة .

وعلمت أن صاحبنى أفرط فى التواضع ، فقد وجدت الشقة مؤثثة برياض فاخر ، (وأنها قد صممت لتكون وكر غرام) .

لا أطيل عليكم التفصيل والوصف . لقد أخذت أجول وصاحبنى فى الشقة ، وجلسنا نستمتع برهة الى الزاديو ، وتناولنا بعض الفاكهة التى وجدناها فى المطبخ ، ثم ذهبنا الى غرفة النوم .

والواقع أنى كنت غير مصدق ما أنا فيه ، فقد كان شيئًا لا يصدق أن أجد الساحرة الرائعة التى كنت لا أتمنى أكثر من النظر اليها ، قد أضحت بين يدي فى هذه الحجرة الفخمة ذات النور الأحمر .. الذى يبعث فى الجسد حرارة ، وفى النفس نشوة .

وخلعت الجاكete والقميص ، وجلست واياها على حافة الفراش ، وبدأت أتحمسها بتمهل وبطء وتمعن ، تمامًا كما يتحمس محروم أحد ثمار المانجو ويشمها قبل أن يأكلها .. وأخذت أتحمس وجهها وعنقها بشفتى ، ورأيتها تسبل عينها فى نصف اغماضة ، وتراخت أعضاؤها فى استسلام كلئى !

وفجأة انطفأ النور .

ووجدتها تقيق من نشوتها ، وتجلس خائفة فزعة .

ولم يكن انطفاء النور فى ذاته بالشئ المفزع .. ولكن المفاجأة التى حدث بها هى التى كانت مفزعة .

وسمعتها تصيح : « أفتح النور » .

وحاولت أن أطمئنها ولكنها عادت تصيح مصرة : « افتح النور قلت لك » .

وقمت أتلصص طريقى فى الظلمة متذكرا كل ما قاله صديقى عن النور وعن العداد الذى ينطفئ ان لم تضع فيه نقودًا ، وأدركت أن الصديق قد خدعنى ، وأنه لا بد من وضع نقود فى العداد حتى يعود النور .

ولكن أين العداد ؟

وبدأت أستعيد لنفسى موضعه وكيف وصفه صاحبنى .

فى الطرقة ، على اليمين بجوار باب المطبخ .. هذه هى الطرقة ، وهذا هو باب المطبخ .. ولكن لا يوجد أى أثر للعداد !

وأخذت أتحنس الجدران قطعة قطعة ، حتى مست يدى صندوقا من الصفيح معلقا على الحائط به ثقب أشبه بثقب الحصاة ، ومددت يدى فى جيبى ، وأخرجت قطعة من فئة الخمسة قروش ووضعتها فى الفتحة .. ولكن النور لم يضىء ، وأمسكت بالصندوق وجذبتة فإذا به شىء منفصل ليس له أية صلة بالكهرباء !

وكان لابد من العثور على ثقاب حتى أشعل به شيئا ولو قطعة من الورق تعطبنى ضوءا ، ولم أجد بدا من الخروج الى الشارع لكى أقترض من أحد المارة عود ثقاب .

ووقفت بباب البيت أنتظر عابر سبيل ، وكان أول من مر بائع لبن زبادى أخبرنى أنه لا يحمل ثقابا ، وكان الثانى رجلا أنيقا وسيما نظر الى نظرة تعجب وأنا أفق بالقاتلة والبنطلون وسألنى لم أريد الثقاب ؟

وأنيأته بأن النور انطفأ ، وأنى أريد أن أبحث عن موضع العداد . ونظر الى الرجل نظرة شك وسألنى এমন أكون ؟ فقلت له . فعاد يسألنى عما اذا كنت صاحب الشقة أم ضيفا ؟

وضايقتنى أسئلته ، وقلت فى ملل وضيق وخشية :

- اذا كان معك ثقاب فأرجوك أن تعطبنى اياه .

- الثقاب معى ، ولكنى واثق أنك لن تجد العداد ، ولن تستطيع تشغيله ، أسمح لى بأن أدخل لتشغيله وأوفر عليك الجهد ..

وأخذت أنير الفكرة فى رأسى ، وكنت فى حالة من الضيق والخوف تجعلنى متلهفا على تشغيل العداد بأية وسيلة ، فلم أجد بدا من قبول اقتراحه ، لا سيما وأن مظهر الرجل كان يبعث على الارتياح .

ودخلت ونخل الرجل ورائى ووجدته يعرف الطريق أسرع منى ، ولم نمض لحظة قصيرة حتى كان النور قد أضىء .

وكنت فى هذه اللحظة قد أغلقت باب غرفة النوم .. وطلبت من الحسنة الفضفى أن تنتظر حتى أعود اليها .

ووجدت الرجل قد جلس فى الصالة ، فى حالة من الاطمئنان ، وأخذ يفضم احدى التفاحات الموجودة فى الطبق كأنه يجلس فى عقر داره .

وكنت أتوق الى خروجه والتخلص منه . ولكنى لم أكن أريد أن أغضبه أو أبعث الشك فى نفسه ، فظاهرت بالصبر وبأن وجوده لا يزعجنى كثيرا .

ووجدته يعود الى أسئلته الحرجة البالغة التى بدأها من قبل فقال لى :

- أظن حضرتك ضيفا ؟

- أجل !

- لأول مرة تحضر الى هنا ؟

- أجل !

- هل تعرف صاحب البيت ؟

- أجل ، انه قريبى .

- من هو ؟

ووجدته قد تمادى فى أسئلته ، ولكنى لم أجد بدا من اجابته حتى أتخلص منه :

- انه على بك فوزى .

وضحك الرجل وأمعن فى الضحك .

وعجبت لضحكه ، وخيل الى أنه مخبول ، وندمت على ادخاله وقلت لنفسى ان الظلمة خير منه كثيرا وأهون شرا .

ولم أجد طريقة لآخراجه خيرا من أن أزعم أنني أريد مغادرة الدار
فيضطر للخروج معي ثم أعود وحدي ثانية .

ونهضت متجها الى حجرة النوم لأرتدى القميص والجاكته كي أوهمه
أننى خارج .

وفتحت باب الغرفة وأغلقتها بسرعة . وكانت صاحبتنا قد جلست على
حافة الفراش وهى فى قلق رغم اضاءة النور ، ولم تكذ ترانى حتى هبت واقفة
وهمت بالصياح ساخطة محاولة أن تطلب منى الخروج .

ولكننى أسرعت بوضع يدي على فاما كي أمنعها من الحديث خشية أن
يسمع الرجل صوتها وهمست فى أنفها :

- لا تتحدثي ان فى الصالة رجلا غريبا ، وهو الذى ساعدنى على
اضاءة النور . ويبدو أنه من نوع ثقيل .. أو لعله سكران ، فهو لا يريد
الانصراف ، وسأفهمه أننى خارج حتى يخرج هو الآخر ثم أعود اليك حالا .

وبدت الدهشة عليها ، ونظرت الى نظرتها الى مجنون ، ولكننى خطفت
القميص والجاكته وأغلقت الباب قبل أن أعطيها فرصة الرد .

ووقفت أمام الرجل بعد أن وضعت الجاكته على كتفى وقلت له :

- هيا بنا .

- الى أين ؟

- انى أنوى الخروج .

- ولكننى لا أريد الخروج . يمكنك أن تخرج وحدك .

وهنا أحسست أن الموقف يحتاج الى حزم وأن الرجل يريد أن يستغل
موقفه ، فقلت له فى لهجة حازمة عنيفة :

- أرجوك ، ليس لدى وقت للمزاح .

- أنا لا أمزح ، أؤكد لك أننى أود البقاء لأننى متعب .

- تستطيع أن تستريح فى بيتك .

- وهذا بالضبط ما أفعله الآن .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أننى أستريح فى بيتى .

- هذا بيتك ؟

- أجل ! هذا بيتى ، أما البيت الذى كان مفروضا أن تكون فيه فهو
البيت المجاور . لا تدهش فالبينان متشابهان ، وأنا نفسى أقع أحيانا فى هذا
الخطأ .. والآن تستطيع أن تنتقل وحدك ، وأنى مسامحك فيما أكلت من تفاح .

وضحك الرجل .. ولكننى لم أضحك ، لقد كانت المشكلة عويصة ، كيف
أخرج وأترك الحساء ؟ وكيف أخرجها أمامه وأنا قد زعمت له أننى وحدى .

ولاحظ الرجل ترددى .. ولا حظ نظرتى الى باب حجرة النوم فأدرك
ما وراءه .

وكان الرجل حكيما لطيفا فنهض معذرا وقال :

- انى جد آسف .. تستطيع أن تقضى سهرتك ، وبلغ سلامى الى فوزى
بك .

وخرج الرجل بعد أن نشف نيمى .

ولم أتم السهرة بالطبع ، فقد كانت الحساء فى حال من الخوف والضيق
والغضب ، ولم أكن أقل منها خوفا ، ولا ضيقا ، وخرجنا نحن الاثنين قانعين
من الفنيمة بالاياب !

★ ★ ★

أسماء الأبطال

هذا هو الابن النقي النقي ، الطاهر
الذيل المفض العيون .. الذي يخشى
أبوه أن تتفتح عيناه على مقاسد
القاهرة .. هذا هو الوديعه التي
تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر
عليه .

هذه القصة ذات أربعة أبطال ، وأغلب الظن أنه لم يبق من أبطالها على
قيد الحياة سوى واحد . أما الثلاثة ، فاثنتان منهم أستطيع أن أجزم برحيلهم
إلى الدار الباقية ، والثالث علمه عند ربي .

ولست أدرى أى دافع خبيث يلح على فى ألا أغير أسماء الأبطال ولا
أكلف نفسى مشقة انتقاء أسماء مستعارة ، أستر خلفها حقيقة شخصياتهم ، قد
يكون الكسل ، وقد يكون الاستهتار .. أو قد يكون اليقين بأن أحدا منهم لن
يفضبه نشر القصة ، ولن يبادر إلى تكذيب والتشنيع على .

أو قد يكون أكثر من هذا كله ، وهو الاطمئنان إلى الأبطال الأربعة ..
لأن أحدهم هو أبى بالذات : المرحوم محمد النباعى ، وأنا واثق أنه لو مد
الله فى عمره لسبقنى إلى نشرها .. كما سبق أن نشر معظم حوادثه مع

المرحوم الشيخ عبد الرحمن البرقوقى فى قصة الدروس القاسية فى البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٨ .

أما والله لم يهبه الفرصة لكتابتها .. فلاكتبها أنا عنه ، ولو صدق ما يقال عن الأرواح من أنها ترائنا وتحس بنا وتشعر بما نفعل ، فأغلب ظنى أنه قارئها ، وأن قهقهته العالية سترن فى السماء كما سبق أن رنت فى الأرض . تبدأ القصة منذ زمن بعيد ، أستطيع أن أجزم أنه قبل سنة ١٩١٧ .. أى قبل أن أولد أنا .. فى إحدى المكتبات (أعنى بداية القصة وليس مولدى بالطبع) فى شارع غيط العدة الموصل بين باب الخلق وعابدين .

ويجلس فى المكتبة رجلان : صاحبها ، وصاحب صاحبها ، ثانيهما أفندى ، وأولهما شيخ معمم .. أم الأفندى فهو أبى : محمد السباعى ، الذى قال عنه العقاد فى تقديمه لأحد كتبه « انه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب المصرى » .

وأما الشيخ فهو عبد الرحمن البرقوقى ، الذى قال عنه المارونى : « انه كان فى زمانه من أعيان البيان وأقطابه وأعلامه بل كان يمثل عهدا من عهود الأدب » .

والاثنان .. كما هو واضح ، لمن لا يعرفهما من أبناء الجيل الجديد ، من أئمة الأدب العربى وأعلامه .

وانى أستطيع أن أتصور أبى بجسده الضخم ، وكتفيه العريضتين ، ووجهه الأحمر الممتلئ ، وقد جلس على كرسى من الخوص ، ووضع ساقا على ساق فى نفخة وعظمة كأنه يجلس فى شبرد ، وبجواره الشيخ عبد الرحمن يجلس على كرسى آخر بجبته المهفهفة وقطانته الأنيق ، وجسده الفارع ووجهه الذى لا يقل بياضا ولا احمرارا عن وجه أبى ... وقد وضع هو الآخر ساقا على ساق وأخذ يتسلى بشد أنفاس من ميسم شيشة تكرر بجواره .

ولكى أعطى للقارئ فكرة عابرة عن الصديقين الحميمين أبدا بشرح شخصية أبى وذكر بعض أحواله وقتذاك .

كان أبى يعمل بالأدب والتدريس ، وكان ككل فنان عبقرى بوهيمى ، لا يقيم وزنا لأوضاع الحياة .. يفعل ما يرضى نفسه الفنانة بصرف النظر عن النتائج .. قال لى عمى وهو أخوه الأصغر (طه السباعى باشا) أنه حدث ذات مرة وهما العائلان الوحيدان للعائلة ، أنه استقال من عمله ، وأوحى اليه بالاستقالة ، وقبعا فى الدار وأغلقا عليهم إحدى الحجرات ، والعائلة تكاد تجن ، وأبوهما يضرب كفا بكف متسانلا فى دهش عما أصاب ولديه .. ثم اتضح أخيرا أنهما يحفظان « ديوان ابن الرومى » .

وسمعت من جدى أن أبى عندما كان مدرسا فى مدرسة رأس التين بالإسكندرية كان يكره الذهاب الى الإسكندرية ويفضل البقاء فى القاهرة ، وفى سبيل ذلك كان يجمع كل حصصه فى يوم واحد ، ويقضى بقية الأسبوع فى القاهرة . فإذا ما جاء ذلك اليوم .. رفض السفر .. ويظل جدى يتوسل اليه ويدعو الله أن يهديه حتى يرضى أخيرا ، ولكن بطمنن جدى على سفره ، ويأخذه من يده ويذهب به الى المحطة ويركبه القطار ، ويتحرك القطار .. فيبدأ بالجدى ، ويحمد الله الذى هداه ، ثم يعود الى الدار مطمئنا .

ويصل القطار الى أول محطاته فى بنها ، فيشاور أبى عقله ويغادر القطار .. ثم يأخذ القطار العائد الى القاهرة لاعتنا الإسكندرية ومهنة التدريس .

ذلك هو أبى .. أما الشيخ البرقوقى .. فلا أظنه كان يقل عنه عبقرية .. وكان شديد الإعجاب به .. يتوق لأن ينهل بواسطته من منهل الأدب العربى وأعلامه وعباقرته .

كان الاثنان يجلسان وقتذاك فى مكتبة الشيخ البرقوقى عندما هل عليهما الشيخ الفك وقد سحب فى يده ولده امام .

ولست أعلم كثيرا عن الشيخ الفك ، ولكنى أعرف أنه رجل تقى طيب .. تقى السريرة شديد الورع .. قضى حياته فى الريف ، وقد أنهى ابنه دراسته الابتدائية فأحضره الى القاهرة ليدرس فى المدارس الثانوية .

والى من يلجأ الشيخ الفك غير الأستاذين الكبيرين والمربيين الفاضلين

الأستاذ السباعي والشيخ البرقوقي ، وهو الذي تربطه بهما أوثق الصلات وأمتن الروابط ؟

وهكذا حضر الرجل الطبيب بابنه الى القاهرة ، وأخذ يسأل عن البرقوقي والسباعي حتى اهتدى اليهما أخيرا .

وبعد التحيات والسلامات بدأ الرجل يشرح مقصده ويعرض مطلبه قائلا :

- بجى ما يخفأش عليك يا سيد سباعي أننى أنا خايف على الولد من مصر .. أنا باسم أن كلها مقامد وبلاوى ، وأنا خايف على الولد لعينه تتفتح ويخسر .. جلست فى نفسى ما فيش غيركم يجدر باخذ باله من الولد ، وأنا حاسيه لكم وعارف انتنى مايبه فى بيته .. مش كده والا ايه ؟

ويجب الاتنان فى نفس واحد :

- أمال .. دا فى عتينا يا عم الشيخ .. دا ايننا .. ريح بالك وطمن نفسك .. ما تحملش همه أبدا .

- أنا برضه جلست كده .. هو احنا لنا حد غيركم .

- دا انت الخير والبركة .

- الله يبارك لنا فيكم .

وهكذا ينصرف الشيخ الفك تاركا ولده فى كنف صاحبيها ، وقد اطمأنت نفسه وهذا قلبه .

بقى أماننا البطل الرابع ، لم نقدمه بعد ، وهو امام الفك .

قد يتصور القارئ عندما يعرف أن صاحبنا امام ابن الشيخ الفك قد انتهى من الدراسة الابتدائية وأن أباه يخشى أن تتفتح عيناه على مفاصد القاهرة ، أنه لا يعنو أن يكون طفلا غريبا .

قد يتصور كل انسان هذا ولا سيما عتما ينظر الى جيل أصحاب

الابتدائية الحالي .. جيل أطفال لا يزيد عن الحادية عشرة ..

ولكن امام لم يكن شيئا من هذا .. ان جيل أصحاب الابتدائية وقتذاك كانوا فى من أباء هذا الجيل .. كان بينهم رجال مبرومو الشوارب ، خضر الذقون ، وكان فى مدرسة محمد على فى ذلك الوقت - مثلا - تلميذ سمكرى ألحق بالمدرسة للعب الكرة ، وكان يجلس فى فصول السنة الرابعة ، وهو لا يعرف فك الخط .

كان تلميذ امام الفك .. رجلا ربعة ، وكان يبدو عليه الصمت والهنوء .. هدوء السامى اللى تحته نواهى يسيل عينيه ويطلق برأسه ، بادى الحياء ظاهر الخجل .. يجلس بجوار أبيه ساكنا منكشا ، تقطر منه الطيبة والبراءة وهو الذى لم يترك مأخورة فى طنطا الا وطرقها ، ولم يدع غرزة الا ودخلها .

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر الذيل ، المنمض العينين الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مقاصد القاهرة .

هذا هو الوديعه التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليها ..

وأنا أعرف أبى جيذا ، وأعرف أنه لم يكن لديه وقت لتربية أولاده . فما بالكم بأولاد غيره ؟

أذكر مرة أنه نهرنى بشدة لا لأتلى اللعب ، بل لأنى أذاكر دروسى ، وأذكر أنه أعطى أحدى أحمد ربالا .. لا لأنه نجح ، بل لأنه ضرب أحد أبناء الجيران - وكان الولد أكبر منه - روسية فبطحه وأسأل دمه .. وأذكر كذلك أن والدتى كانت تجمعنا أنا وأخوى فى حجرة صغيرة وتغلق علينا ونحن نمستكر دروسنا ، لا خوفا علينا من الخروج ، بل خوفا من دخول أبينا علينا وتمطيلنا ، ولم يكن يجدى معه الاغلاق ، فقد كان يصعد الى أحد المقاعد ويشاغلنا من الشراعة الزجاجية .

تلك كانت طريقة أبى فى التربية ، ولو سألتنا أحد أبناء الشيخ

البرقوقي - ابنه عاطف مثلا - عن طريقة أبيه في تربيته ، لما وجدناهما خيرا من ذلك .

وهكذا ترك الشيخ الفك وديعته البرينة الطاهرة في كنف المربين الفاضلين ، وعاد الى بلده هادئا مطمئنا .

وكان أول ما فعله هذا (الوديع البرية) أن ذهب الى أحد نظار المدارس الأهلية وسأومه على أن يأخذ منه ربع المصروفات ، نظير أن يقوده في المدرسة ، مجرد قيد ، على أنه لن يضايقه لا بحضور ولا بأخذ كتب ، ولا بأى شيء .. كل ما هو مطلوب من الناظر هو أن يثبته لديه كتلميذ .. نظير خمسة جنيهات .

وتم الاتفاق ، وأثبت امام نفسه كتلميذ في المدرسة . ثم انطلق على حل شعره .. يعيث - ببقية المصروفات - في القاهرة فسادا .

ومرت الأيام والأسابيع والشهور .. وامام - كما يقولون - مقطع السمكة ونديها .. حتى طبقت شهرته آفاق المواقير ، ولم يعد هناك بيت من البيوت السر ، الا ولامام فيه مركز ممتاز .

وبدأت الأخبار تتواتر على أبيه - من أهل البلد الذين يزورون القاهرة - بما أضحى عليه حال ابنه ، ولم يصدق الشيخ في بادئ الأمر ، وظن المسألة كلها من باب الكيد ، والحمد .

وأخيرا لعب الفار في عبه ، وأصابه القلق ، ولم ير خيرا من الذهاب بنفسه الى القاهرة ليرى بنفسه جليلة الأمر وليطمئن قلبه .

وطب على ولده ، وواجهه بالتهمة والإشاعات ، وأسبل الابن عينيه ، وأخذ يبدى أسفه على سفالة أهل البلد وغرامهم بالأراجيف والأكاذيب والتشنيعات .

وهذا الأب بعض الشيء ، وخفت وساوسه ، وأراد أن يقطع الشك باليقين .. فأخذ ولده وذهب الى الشيخ البرقوقي والأستاذ السباعي ليتأكد من

حسن سير ابنه وطيب سلوكه وليريدهما توصية به ، ورعاية له . ووصل الشيخ وابنه الهادي الوديع في يده ، الى المكتبة حيث وجد المربين الفاضلين في محلها المختار .

وبعد التحيات ، بدأ الشيخ الفك الحديث :

- والله يا جماعة ماخبش عليكم .. أنا بلغنى عن الواد امام حاجات وحشه جوى .

- خير ان شاء الله ؟

- بلغنى أن سيرته مهيبة ، وأنه داير على حل شعره ينط هنا وهناك ، وأنه مش سائل لا فى دروس ولا فى مدرسه ، وأن حالته زفت وقطران . وتعالى الدهشة من الطرف الآخر :

- امام ! مين قال كده يا مى الشيخ ؟ حد يقول الكلام ده ؟ استغفر الله العظيم .. ده امام رى القطة المغمضة .

وزادت القطة المغمضة تغميضا وانكاشا ، وقال أبى فى سره :

- والله ممسرك تروح فى شر أعمالك يا امام الكلب ، وتفضحنا معاك . وعاد يقول للشيخ :

- امام ؟ امام سيرته مهيبة ؟ ده من المدرسه للبيت ومن البيت للمدرسه .. ده حاي موت نفسه من المذاكره ، واحنا حتى قلنا له يا امام حقك ترحم نفسك شويه .. مش كده يا امام ؟ .

وأطرق امام برأسه موافقا .. لقد قالوا له هذا حقا ، وسألوه أن يرحم نفسه ، ولكن مم ؟ ؟

وهكذا أخذ صاحبانا يطمئنان الأب ، وانطلقا يعددان محاسن امام

ويضربان المثل على طيبته وسلاحه .. حتى أقنعت الشيخ وأطرق برأسه خجلا من نفسه :

- والله أنا برضه جلت كده .. بس كلام الناس وموسنى .. الله يلعن أبوهم .

- غايرين منك يا عم الشيخ ، حاسدينك على ابنك الفالح .

- معلش .. الله يسامحهم .. أهو برضه جينا شفاكم واطمانينا عليكم ..

وهم الشيخ بالنهوض وقد هدأ قلبه تماما ، ومد يده للسلام ..

وفى نفس اللحظة بدت عربية كارو .. قد اعتلتها حفنة من نساء وجه البركة وقد علا ضجيجهن وارتفعت أصواتهن بالغناء ، الفاتحة للعسكري .. وارتدت احداهن طربوشا وأمسكت بيدها عصا ووقفت على العربية تهز بطنها وردفيها وجلست البدرونة بجسدها السمين الترهل والمندبل الأحمر أبو أويه وقد تهملت ملاعتها من حافة العربية وأخذت تدق على طبله بيدها وانهمكت بقية النساء فى التصفيق .

وكان من المحتمل أن يمر المنظر بسلام ، اذ لم يكن فيه ما يثير العجب ، فطالما مرت أمام المكتبة أمثال تلك العربيات ، ولكن المصائب وقع عندما لمحت احدي النسوة صاحبتنا امام وقد وقف وراء والده وهو يمد يده للسلام على الشيخ البرقوقى .

وضربت المرأة بيدها على صدرها وصاحت متسائلة :

- بت يا تفيدة .. مش هو دا امام ؟

- آه والنبي ياخنى .. باينه هوا .

وتعالت أصوات النسوة :

- يوه .. دا امام .

- ينيلك يا امام .

وصاحت البدرونة :

- ودا ايه اللي جاية يا اخنى فى وسط المشايخ .. ؟ يوه جاتك نيله .

وطلبت النسوة من العربى أن يوقف العربية ، ونزلت احداهن الى الأرض صائحة :

- المنيل على عينه عليه لى ريال .. بقاله شهر .. فين يا واد الريال ؟

★ ★ ★

ويهرأبى رأسه وتنطلق منه قهقهة وهو يقول لى :

- لم أشعر فى حياتى بخجل أشد مما شعرت به فى ذلك الوقت .. لقد أحسست أنا والشيخ البرقوقى أن نشأ باردا قد صب علينا ، ولم ندر ماذا نقول ولا ماذا نفعل ، ووقفنا أمام الشيخ الفك ونحن مشدوهين مبهوتين .

وانصرف الشيخ بولده فلم نبصر لهما بعد ذلك وجها .

★ ★ ★

النزهي

الأقرع النزهي . انسان أقرع
ونزهي . أعنى أقرع الجيب ، خاوى
الوفاض .. بينه وبين النقود
خصومة مستحكمة وفراق دائم ..
وهو بعد كل هذا نزهي فتجرى .

حدث هذا ذات صيف ، فى زمن خلا ، زمن كنت فيه نموذجاً للأقرع
النزهي .. ؟

ويبدولى أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف القارئ شئنا عن
حقيقة هذا الأقرع النزهي .

الأقرع النزهي .. انسان أقرع ونزهي .. أعنى أقرع الجيب ، خاوى
الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا .
نزهي فتجرى ، ابن حظ ، محب للفرقة ، والصرف ، والنهيبص ، فهو
يصرف ما فى الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش
الأبيض ، دون أن ينتظر من غده أسود ولا أبيض . وينزه نفسه بكل ما يحب
ويشتهى ، وعلى الله التدبير .

أقول انى كنت فى زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نموذجاً
للأقرع النزهي ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولى ، كنت فى زمن خلا ،

أنى قد أضحيت من كبار الأثرياء ، وأن جيبى قد نبت شعره وزال قرعه ، بل كل ما فى الأمر ، أنى لم أعد نزهيا ، وأن ضيق الوقت وكثرة المشاغل ، وأعباء الحياة ، قد أضاعت من النفس خفتها وصدتها عن اللهو والعبث ، وسدت فى وجهها سبل الفرقة والتهيبص .

وعندما أجلس اليوم لأكتب فى حمارة اللقيظ ، ولهيب الحر ، وأنا حائر ، بين أن أفتح النافذة فأكتوى بسياط الشرذ ، نلفج وجهى ونشوى بدنى ، وبين أن أغلقها ، فأكتنم أنفاسى ، وأسلق جمدى ، وأضحى كما يقولون ، عرقى مرقى .

وعندما أجلس لأكتب وسط هذا الجحيم الأرضى ، يحلولى أن أعزى النفس ببعض تكريات صيفية تندى عليها وتبل حرارتها ، وتعوضها ولو بالوهم عن متعة المصيف واغراء الشاطئ والمستلقيات على الشاطئ .

كنا ثلاثة ، وخير ما أستطيع أن أصف به أنفسنا حينئذ ، هو ثلاثة صبية ، وإن كنا نحس وقتذاك أننا فى عنفوان الرجولة ، وأنه لا يوجد على ظهر الأرض أرجح منا عقلا وأكثر حكمة ، وأن كل الناس - عدانا - ما بين صبى أحقق وعجوز مخرف !

وكنا نكون عصبة ، مهرجة ضاحكة ، لا نكاد نعترف بأن فى الحياة أحزانا ، وكان شعارنا بسمه على الشفاء ، وفهقهة تصدر من القلوب قبل الأفواه ، نستنبت الضحك من منابت الحزن ، ونستدر البسمات من موارد البكاء ، لا يكاد يوجد ما يحبس نكاتنا ويغلق أفواهنا ، حتى فى مواقف العزاء وتشيع الجنازات ، كنا نكسو وجوهنا علامات الحزن بشق الأنف ، إذ نذهب لتعزية أحدا فى وفاة أحد أقاربه ، فلا نكاد نبصره وقد وضع طربوشا اقترضه فى منتصف رأسه ، وأطرق برأسه مدعيا الحزن ، حتى تصيبنا نوبة من الضحك نلقى الأمرين فى كتفها .

وكنا نستطيع أن نجعل من أى إنسان - مهما ثقل دمه - مورد تسلية لنا ، بمراقبة حركاته ، وتمثيل أعماله وتصرفاته .

وكنا نلعب معا فى تيم الكرة بالمدرسة ، المكند تيم طبعا ، ولم يكن وضعنا فى التيم ناتجا عن اجادتنا لعبة بل كان منا مجرد عُقرونه وتلحمة وخوف من مراقب الفريق من طول لساننا ورغبة منه فى مداراتنا والانتفاع بنا فيما يتطلب المشاكسة والمناكفة .

وكنا دائما المصيب فى هزيمة التيم ، فما أظن أن ملاعب الكرة قد رأت أموا منا ، ومع ذلك ، فلم يكن أسهل علينا من تقارض المديح وتبادل الثناء ، و الهارد لك .

ويخيل الى أنى أستطيع - بمنتهى السهولة - أن أملا عشرات الصفحات .. عن حوادثنا وقتذاك عن الفوائد المختلفة التى كانت تقع لنا ، وإذا أخشى أن أترك لنفسى العنان فأملأ حيز القصة ، دون أن أكتب القصة ، وأن أختتم كتابتى بمجرد مقدمه بلا قصة ، وعلى ذلك فمن الخير أن ندخل على القصة رأسا .

فى ذات صيف رأينا - بلا داع - أن نذهب للتصنيف فى الاسكندرية ، وعندما أقول بلا داع ، أقولها قول الواثق الجازم ، لأنه ، أولا ، لم يسبق لنا عادة التصنيف ، بل كنا قانعين كل القناعة بقضاء الصيف ما بين روض الفرج وقصر النيل ، وثانيا ، لم تفكر عائلة أى منا فى التصنيف حتى يكون ذلك داعيا لسفر أحدا وأخذ صاحبيه معه ، وثالثا ، لم يكن لأحد من أى أقارب يمكن أن يستضيفونا فى الاسكندرية ، ورابعا لم تكن تملك حرية السفر دون أهلنا ، وخامسا وهو أهم من كل ما سبق ، لم يكن معنا النقود التى تكفيها للتصنيف .

ومع ذلك ، ورغم كل ما سبق نكره ، قررنا التصنيف ، فقد كانت الحكمة الوحيدة التى نتبعها يومذاك ، هى أنه لا مستحيل فى الحياة ، فكل شئ ممكن عمله .

وهكذا بدأنا الاستعداد للتصنيف وتحايلنا على أهلنا مدعين أننا سنذهب فى رحلة مع المدرسة لتعسكر فى خيام على شاطئ سبى بشر ، واستطاع كل منا الحصول على قدر ضئيل من المال ، جمعناه على بعضه ، لنصرف منه معا ، وبدأنا بموازنة الميزانية .

ولم تكن موازناتها - نظريا - بالأمر العسير . فما كانت لدينا أقل فكرة عن أوجه الصرف وتكاليف المعيشة ، فقد رنا ما شاء لنا الجهل أن نقدر ، واستطعنا بمنتهى البساطة أن نسوى المنصرف بالإيراد .

وبدأنا الجهاد ، فقد كانت العملية لا يمكن أن تكون - بهذا المبلغ النافه - إلا جهادا وكفاحا لا من أجل التصنيف والتنزه والفرقة ، بل من أجل الحصول على لقمة العيش والمأوى والستر ، أى أنه كان علينا أن نجاهد ، لا من أجل المتعة ، بل من أجل البقاء - فى المصيف - على قيد الحياة .

بدأنا الجهاد محملين بالزاد ، مما استطاع كل منا توريته من بيته ، من المأكولات الجافة التى يمكن أن تعيننا فى الضراء وتشد أزرننا فى البأساء ، وحصلنا بذلك على كمية لا بأس بها من القراقيش وعلب المربى والسردين . واستطعت أنا - بالإضافة الى ذلك - أن أسرق قدرة من الجبنة القديمة وصفحة عسل وبرطمان مخلل .. كنا نعدهما يومذاك من أئمن الأسلاب وأقيم الذخائر .

وككل أفرع ونزهى ، صممت على ألا نذهب الى المصيف الا بعد أن نبتاع ملابس المصيف اللازمة - فى عرفنا - لكل أرستقراطى منتفخ الجيب ، من مايوه صوف وبرنس ، الى قميص حرير أبيض سبور وينطلون فائلة ، الى كاسكيت ونظارة سوداء وبابب . ولما كانت ميزانيتنا العجفاء لا يمكن أن تسمح لكل واحد منا أن يبتاع طعما كاملا . فقد ابتعنا واحدا من كل نوع واتفقنا على أن نقسم الطقم الأرستقراطى الى ثلاثة أقسام نتبادلها يوما بعد يوم ، فواحد منا يرتدى المايوه والبرنس ، والثانى يرتدى القميص والبنطلون ، والثالث يتمتع بالكاسكيت والنظارة والبابب .

ورحلنا عن القاهرة ونحن أقرب الى أهل الريف ، بذلك الخراج المملوء بالقراقيش وقدرة العشب وصفحة العسل وبرطمان المخلل ، وهبطنا الى الاسكندرية وقد تملكنا احساس المقدم على مغامرة اكتشاف مجاهل وغياهب ..

ولست أريد الاطالة فى سرد التفاصيل والعقبات التى صادفتنا حتى استقرت بنا الأمور - بقدرة قادر - فى احدى الكباتن الخشبية فى بقعة ما ،

بشاطيء الاسكندرية ، والواقع أنى لا أدري حتى الآن كيف أمكننا تذليل العقبات وتخطي الصعاب ونحن على ما كنا عليه من جهل وموه تصرف ، ولكن الذى أدربه أننا ابتعنا نظرية ، دع الحياة تسير ، ، وأتأنا ، ما دمننا أحياء فلا شيء مستحيل ، ، وهكذا وجدنا الأمور تتبسط وتحل ، والحياة تسير بنا ، حتى تستقر فى كابينة ، مدام ماريكا ، ، التى تنازلت لنا عن حق سكناها ، وأخلتها لنا ، نظير ثلاثة جنبهات ، وبرطمان المخلل ، وزيارتها لنا ثلاث مرات يوميا ، لتطمئن على سلامة الكابينة ، ولتتأكد أننا لم نعملها ونعود بها الى القاهرة .

وجلسنا فى الكابينة الجرياء المشفقة ، كنا نسير فيها فتفرقع أرضيتها تحت أقدامنا فتتكرنا بقول الشاعر :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت الى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
وأخشى بها أن تقيم الصلاة فستجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت اذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولم تكن كابينة ، مدام ماريكا ، بأفضل كثيرا من دار الشاعر ، ومع ذلك فقد كان بنا من فرط الفرحه بها ، احساس قاطن أنطونيادس ، وساكن الزعفران . وأخذنا نتمطى ونتلوى على الفراش الوحيد والمرتبة الملقاة على الأرض ، كأننا لم نتم على فراش أو مرتبة من قبل أو كأننا لم نتعود أن ننام بالجملة على فراش واحد .

ورتبنا الأطعمة فى دلاب المطبخ واتفقنا على أن نكون عقاء منظمين ، وأخذنا فى كنس الكابينة ومسحها وتنظيف حيطانها مما علق بها من الأتربة ووضعنا فيما بيننا نظاما للخدمة - اذ لم يكن من المعقول أن نفكر فى احضار خادم واتفقنا على أن تكون الخدمة بالنوتيجية ، فيتولى كل منا أمر الدار فى يوم كامل يبدأ من الشروق وينتهى فى شروق اليوم التالى ، على أن يؤدى لها كل ما يلزم من مسح وكنس وشراء طعام وطبخ وغسل أو أن وغسل ملابس وكيها ، ومقابلة ، مدام ماريكا ، والاعجاب بها .

وهكذا مرت بالكاسكيت والنظارة السوداء والبايب والبانطلون والقميص ، وقد خيل الى أن أنظار الناس قد تسمرت في .. وأخذت تحدجني ، وأنسى قد بت شغلهم المشاغل ، وأن الشفاه الحلوة العذبة لم يعد لها عمل الا التهامس على والاعجاب بي .

وهزرت رأسي وقلت لنفسى معهم حق ، فما أظنهم قد رأوا من قبل من ارتدى الطقمين معا ، طقم الكاسكت وطقم القميص والبانطلون .

وصممت على انتهاز هذه الفرصة التي قل أن وجود بمنثلها الدهر . وأن أقدم على استغلالها ، فألقى بدلوى فى الدلاء ، وأن أبدأ عملية المعاكسة و البصيص ، وأنا على حالى تلك من الوجاهة والأناقة ، فلا أظننى أستطيع أن أقع على صيد أثنى مما يمكن أن أقع عليه وأنا بهذه الأرستقراطية المزدوجة .

وبشاه الحظ العجيب أن يقع الصيد فى غمضة عين .. وأى صيد ! ! صيد لم أكن أحلم به .. ولا أفكر فيه ، ولا أتطاول اليه .

كانت من نوع يجذب النظر من بين الآلاف الموجودة . نوع براق أهيف فائر ، صارخ الفتنة ، زاعق الجمال . لا يستطيع أى نوع من الثياب أن يستر محاسن جسدها . فهي عارية عارية ، وكاسية عارية ، لا تملك العين الا أن تستشف من وراء الثياب ما أخفت الثياب .

ولست أدري ، أكان حقا سر النظارة السوداء والكاسكيت والبايب والقميص الحريرى هو الذى أوقع الفتنة فى شراكى ، أم كانت المسألة مجرد بخت حلو ، وفضل من الله .. ؟

على أية حال ، لم يكن لدى وقتذاك فرصة للتفكير فقد كنت فى حالة « دوخان » من فرط الفرحه ، ووجدت نفسى - بدون جهد - أقف بجوارها متكئا على الكورنيش . وقد تلاصق كنفانا وأخذنا نتحدث بلا كلفة كأننا أصدقاء أقدامى .

ولم تكن فرحتى فى الواقع ناتجة عن متعة بالفتاة نفسها بل كانت ناتجة

وسارت بنا الحياة سهلة لطيفة مرحة هائلة ، وتعود كل منا أن يقوم بدور خدمته على أتم وجه بلا تقصير ولا تذر ، وتعودنا كذلك تبادل مهمات الأرستقراطية - وهى ملابس الشاطئ - دون أن يحدث بيننا أى خلاف أو نزاع .

وبدأنا مغامراتنا الغرامية . مغامرات عابرة طيارة ، ولم تكن متعتنا بالمغامرات نفسها قدر متعتنا بالتفاخر بها ، وبأن يقص كل منا تفاصيلها على الآخرين ، مضيفا اليها الحواشى والرتوش ، مضفيا عليها من بذات أفكاره ما استطاع من أوهام وأكاذيب .

وفى ذات يوم ، خرجت وحدى قبيل الغروب للتنزه على الكورنيش ، فقد كان أحد الرفاق منهمكا فى مقابلة مدام مارىكا التي لم تنقطع قط عن الحضور ، وفى تلقى ثانيتها على الاسراف فى استعمال المياه ، وكان الرفيق الآخر - كما يدعى - على موعد غرام .

وكنت أشعر فى ذاك اليوم أننى على أتم حال من الوجاهة والأرستقراطية ، فقد كان نصيبى فى ذات اليوم من اللوازم طقم النظارة السوداء والكاسكيت والبايب .

وكنت قد استعرت من صاحبنى الملازم للدار - أى الذى سيقوم بالخدمة - نصيبه المكون من القميص الحرير والبانطلون القانلة الأبيض .

وقد كان يملكنى وقتذاك وهم عجيب من النظارة والكاسكيت والبايب ، إذ يخيل لى بمجرد أن أسير بهذه الأشياء أنى قد أصبحت انسانا آخر أقرب الى الملوك والأمراء ونجوم السينما ، وكنت أستغلها أقصى استغلال فلا أتركها لحظة واحدة ، حتى عندما تسقط الشمس ويسود الظلام ، وكانت الكاسكيت تستمر قابضة على رأسى ، والنظارة السوداء ملاصقة لعينى ، ومالى أنا ولسقوط الشمس وشروقها . ان الأدوات التى ألبسها ، أدوات أرستقراطية ، فهل يعقل أن تغيب الأرستقراطية والمظهر الجذاب بمجرد غياب الشمس .

عن تصوري ما أنوى قصه على صاحبي ومدى ما أستطيع التفاخر به . وكنت أرنب في ذهني التحابيش والتحاوير التي أنوى أضافتها الى مغامرتي الجديدة ، وكنت أؤمن النظر في وجه الفتاة حتى أستطيع أن أصفه لهما جيدا .

واستمر الحديث بيننا هادئا ممتعا ، حتى أخبرتني في خلاله أنها ابنة « فلان باشا » ، وأحسست برأسي يدور ، من يصدق هذا ، ابنة باشا مرة واحدة ؟

وتمنيت لو استطعت أن أتركها وأعود الى البيت حتى أحضر صاحبين الخبثين ، ليشاهدنا بنفسيهما ، الأمل « التي أصبت بها ولينأكدا أن مغامرتي حقيقة واقعة ، لا ادعاء فيها ، وأن ابنة أحد البشوات ، قد سقطت في هوى .. العبد الفقير .

وافترقا بعد أن تواعدنا على اللقاء في الساعة صباحا والشاطيء خال ، وتركتهما وانطلقت الى الكابينة لأقص على صاحبي ما حدث لى وأنبئهما بالموعد الصباحي .

ولم يبد عليهما ، علام التصديق ، وهزا رأسيهما . كأنهما يوافقان على كذبة من معناد للكذب ، فقلت لهما ، بلهجة الواثق ، انهما يستطيعان التأكد من صدق قلبي بأن يذهبا للشاطيء في الساعة السابعة حيث ألتقى بالحبيبة الأرستقراطية .

وهز أحدهما رأسه مستنكرا وتساءل :

- الساعة السابعة ، باكر ؟ .

فقلت في ثقة :

- أجل .

- أنسيت أنك نوبتجي باكر .

نوبتجي ! ! .. أجل ، لقد نسيت النوبتجية .. ان على أن قوم بدور الخدمة في الغد .

ولكني لا بد أن أذهب ، ليس هناك قوة في العالم يمكن أن تمنعني من الذهاب .

وسألتهما أن يبادلاتي ، فأبيا ، وتوسلت اليهما فأصرا على الالباء .

واستيقظت في الساعة الخامسة صباحا بعد أن صممت على أن أنهى كل ما لدى من عمل قبل أن تحل السابعة ، ثم ألتحق في السابعة الى موعدى ، ماذا يريدان مني أكثر من ذلك ؟

ودخلت المطبخ مشمرا عن ساعدي وبدأت أعد معدات الطهي الذي جهزت لوازمه من الليل .

وكان على أن أبدأ بغسل النحاس ، وفتحت الصنبور فاذا بالمياه مقطوعة .

ولم تمض برهة قصيرة ، حتى كنت مستقرا بكم الحلال أمام الحنفية على شاطى البحر ، وبدأت عملية الدعك بالرمال مرة والغسل بالليفة والصابون مرة أخرى حتى جعلت النحاس يبرق من فرط النظافة ، أو كما يقول أهل البيت « قل مفتوح » .

وفركت يدي فرحا واغتباطا .. وهممت بالنهوض ، راضيا عن نفسي كل الرضاء .

ورفعت بصري ، فاذا بى أجدما هى ، بدمها ولحمها وصدرها وساقها ، الحبيبة الارستقراطية ، ابنة الباشا .

تصوروا موقفى ، وهى تتأملنى ، وقد جلست أمام كوم النحاس بالجلباب كأحقر خادم ، وقد تلوت يداى بالهباب وأغرقت ملابسى بالمياه والرمال !

وأحسست بالدنيا تدور بى ووجدتني بحركة لا ارادية ، أرفع يدي الى وجهي فألوته بالهباب ثم أقول لها بصوت ذليل متواضع كأننى لست أنا ، بل مجرد خادم لى :

- سيدى جايلك حالا .

صبيتي شريرة

ودق المدفع وأقبل الضابط على خيمة
الأكل وفوجئوا بالصينية تتوسط
السفرة .. وجلست أنا والبارودي
نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا
علامات التواضع واتكار الذات .

لا أظن أن هناك سؤالا أعييتني أجابته كهذا السؤال ؟ .

ماذا يحدثو صاحبنا ، الضو ، الى خلط الطعام بالجاز ؟ .

أربعة أشهر ! .. مائة وعشرون يوما .. ونحن لا ندق لقمة
واحدة .. قد خلت من الجاز .

أترى الخبيث له بالجاز ولع فهو يدسه في طعامنا .. ليل نهار .. حتى
يتمتع بما تبقى منا مغمورا بالجاز ؟ .

لا أظن .. فلو أن الأمر كذلك لكان خيرا له أن يحتفظ بكمية الجاز التي
يخلط بها الطعام .. ليخلط بها البقايا فقط . فيستطيع بذلك أن ينعم في طعامه
بكمية من الجاز أوفر .

أترى الغبي حريص على صحتنا .. فهو يدس الجاز في الطعام حتى
يحصننا به ضد الأمراض .. ويجنينا شر الأوبئة ؟

ثم أفتح النحاس على كتفي وأسير مغنيا بأعلى صوت :

« سلم على .. سلم على .. لما جابلني وسلم على ، يا بوى يا بوى » .

ووصلت الى الكابينة فوضعت النحاس في المطبخ وجلست برهة
أستريح من عناء الخضة ، ثم نهضت متمالكا نفسي ، وأخذت أزيل من وجهي
الهباب وقد صمعت أن أثار لنفسي من صاحبي فلا أدبقها طعاما .. وأن أرتدى
كذلك الطقم الأرستقراطي بالكامل فأحرمهما من التبع بنصيبهما .

وهكذا انطلقت لتوى من الدار مرتديا المايوه الصوف والقميص
الحريز ، والبنطلون ، والكاسكيت ، والنظارة ، والباب ، وفوق كل هذا ،
البرنس ، حتى لا أترك لهما قطعة واحدة من قطع الأرستقراطية .

وعدت الى الشاطئ فوجدتها مستلقية على الرمال وحييتها في رقة ،
فقطرت الى في دهشة ووجدتها تقول مستنكرة :

- أنت لابس هودوم سيدك ؟ !

يا للفتاة الخبيثة ! لقد أصرت على أنني ما زلت الخادم ، ولم تصدق
أبدا أنني في هذه المرة .. كنت ، سيدى ، نفسه .

وأخيرا اضطررت لأن أعترف لها بكل التفاصيل وأن أقول لها اني
صعقت عندما رأيته أمامي وأنا أغسل الحلال .

وكانت رقيقة لطيفة عندما قالت ضاحكة :

- لو لم تفر لعرضت عليك المساعدة .

وما زالت حتى الآن ، اذا ما لقينى تسألنى مقهقهة :

- ازاي سيدك ؟

★ ★ ★

أم تراه قد مل عشرتنا ، فهو يجد في الجاز خير وسيلة للتخلص منا والقضاء على حياتنا ؟

من يدرى ؟ كل هذا جائز ومحتمل فلا أظن أن هناك شيئا مستبعدا على صاحبنا ، فهو إنسان غير مفهوم لا تستطيع أن تميز فيه ناحية الشر أو الخير ، فقد مزج في نفسه خيره بشره وأضحى خليطا معقدا لا يستبينه المرء حتى بعد طول دراسة فأنت تظلمه إذا ما قلت عنه شريرا ، وتظلم نفسك إذا ما ظننت به صلاحا واطمأنت إليه .

ولكن ماذا يجبرنا على التمسك بالضوء ، وعلى الرضوخ لتناول طعامه المخلوط بالجاز ؟

قالوا ماذا يجبرك على السوء ، قلت ما هو أسوأ منه ، وهذا هو نفس ما كنا نقوله لأنفسنا وقتذاك ، فما أجبرنا على احتمال سوء الضوء ، إلا لأننا لم نجد ما هو خير منه .

كان الضوء على حد قولهم ، يبيع فينا ويشترى ، وكنا إذ ذاك بالوحدات البحرية حوالى عام ١٩٣٩ باحدى كتائب الآلى السيارات الخفيفة وقد احتلنا الصحراء التى تشرف على الواحات من ناحية النقب رقم ١٣ وكانت معنا إذ ذاك بعض وحدات المدفعية والدبابات ، التى انتقلت الى هناك عقب اعلان ايطاليا الحرب .

ولقد وقع اختيارنا عند الرحيل الى الواحات على العسكرى الضوء ، أو على الحاج الضوء كما كان يسمى نفسه ، لكى يقوم بمهمة الطبخ لضباط الكتيبة .

أقول ان اختيارنا قد وقع عليه ، ولو أردت التعبير نقلت اننا أرغمنا على اختياره ، فما تقدم لنا أحد من عساكر الكتيبة سواء عندما سألناهم عن بجيد منهم عملية الطبخ .

وتقدم الضوء المتكور ، وأنبأنا فى ، نقل ، أنه كان يعمل طببا طببا لأباطة باشا ، وعائلة أباطة ملينة بالباشوات ، وليس من باشا منهم الا وعنده على

الأقل طببا ، ولم يكن من اليسير علينا أن نلف على الأباطية الباشوات لنسألهم واحدا واحدا عما اذا كان أحدا منهم قد استخدم طببا منذ بضع سنوات يدعى الحاج الضوء .

لم يكن هذا بالطبع أمرا يسيرا ، وعلى هذا اكتفينا بتصديق صاحبنا ، وقتنا فى أنفسنا أننا حتى لو حذقنا عامل المبالغة من قوله ، قلن يكون أقل من مرمطون عند أباطة باشا ، وفى هذه الحالة سيكون لديه ولو فكرة بسيطة عن الطعام ، ولا بد أنه سيتعلم الطبخ بمضى المدة .

وعلى هذا سلمنا زمامنا من حيث الطعام ، وبدأ الضوء يجرى فينا تجاربه ، كأننا أراغب فى معمل .

وبعد بضع أكالات ، اتضح لنا أن الضوء هذا قد يكون حقا اشتغل عند أباطة باشا ، ولكنه قطعاً لم يكن طببا ، ولا مرمطونا ، ولا سفيريا ، قد يكون اشتغل «ساييس» ، سائقا لسيارة ، سكرتيرا ، أى منصب ، عدا المناصب التى لها صلة بالطعام ، اللهم الا فى حالة واحدة ، وهى اضراب أباطة باشا عن الطعام .

وبمضى المدة ، ويطول المكث بين الحلل والكوانين ، حصل الضوء على بعض الدراية فى فن الطبخ ، أو قل ان بطوننا اخشوشفت واعتادت شطف العيش ، كما يعتاد الانسان كل سوء بطول به ، وأضحينا أشبه بالحواة الذين يبلعون الزجاج والزلط .

أقول اننا اعتدنا سيئات هذا الضوء ، وبدأنا نستسيغ طعامه الا أمرا واحدا ، وهو اصراره على خلط الطعام بالجاز .

« يأسى ضوء حرام عليك كفاية جاز بقى » ..

هذا هو الرجاء الذى كنا نسوقه اليه عقب كل أكلة . ولما وجدنا أن رجاءنا لم يلق منه أننا مصفية ، حاولنا أن نسوقه اليه فى صورة أخف على نفسه فقلنا له :

« طيب بلاش تشيل الجاز خففه شويه » .

ولا هذا أيضا .

« طيب ممكن تجيب الجاز فى سلطانية لوحده ، واحنا نرشه هنا على

الأكل ؟ » .

أبدا ، انه لم يكن لديه أية ثقة فينا .

وفى ذات يوم أعلننا الثورة ورفعنا راية العصيان ، وكان أول من وضع بذورها ونادى بسقوط الضو ، هو أنور البارودى ، الذى جلس الى عقب تناول إحدى الأكلات وقد أطرق برأسه وبدأ عليه الوجوم والتفكير ، ثم رفع رأسه وقال فجأة :

- اسمع .

- نعم .

- ما الذى يجبرنا على الصبر على كل هذا الأذى واحتمال كل ذلك الضيم ؟

ماذا تقصد ؟

- أقصد ما الذى يجعلنا نحتمل هذا الخنزير الذى سعم أجسادنا بالجاز والرمل .

- ومن الذى يطبخ لنا غيره ؟

- لا أحد ، نحن نطبخ ، هل نظن أن الطبخ عملية شاقة ؟ إنها أسهل مما تتصور ، ان الأمر لا يمتلزم منا سوى شيء من الجراءة ، ما رأيك فى أن نطرده ، ونبدأ الطبخ من الغد ؟

وكنا فى رمضان والنهار أمامنا طويل ولا شيء يمنعنا من اجراء التجربة ، فلعها ناجحة ولعلها تنقذنا من نير الضو .

وفى الصباح ، تحرك البارودى الى خيمة المطبخ ، ونادى على الضو ، فخرج اليه صاحبا بوجهه اللامع الممتلئ وقد علت وجهه ابتسامة الرضا وبدأه بالتحية قائلا بدون تكليف :

- صباح الخير يا فندم .

وأشار البارودى بأصبعه الى حيث خيام المسكر وقال :

- على الأورطة .

ولم يكن الضو قد ظن شرا اذ لم يخطر على باله قط أننا نستطيع أن نستغنى عنه فسأل البارودى ببساطة :

- حضرتك تريد شيئا من الأورطة ؟

- أريدك أن تذهب الى الأورطة ولا ترينا وجهك أبدا .

ولم يخف على الضو أن هناك مؤامرة قد دبرت ضده فhez رأسه وأجاب :

- حاضر يا فندم ، مفيش مانع أبدا .

وفى الساعة العاشرة أحضرت التعينات وكانت تصرف للضباط وقتئذ نفس تعيينات الجنود ، وكان الخضار فى ذلك اليوم : قرعا ، أو على الأصح قرعة ، فقد كان كل ما أحضر لنا فى خيمة المطبخ هى قرعة ، وحيدة ، ولا أشك أن أى قارىء - غير عسكرى - سيتساءل فى دهشة : « قرعة واحدة لكل ضابط الأورطة ؟ » .

ولست أشك أيضا فى أن أى قارىء عسكرى ، ممن أبصروا خضار الجيش المصرى ، سيتساءل فى دهشة كذلك « قرعة بأكملها لضباط أورطة ، لا ، لا ، هذه مبالغة ! » .

والواقع أنها كانت .. قرعة وافية .. لا تقل بحال من الأحوال عن الشمامسة .. الضخمة .. ونظر الى البارودى ونظرت اليه (ولم يكن هناك

غيرنا من يعلم بالمؤامرة التي نبرناها لطرد الضو) .. ثم نظر كلانا الى القرعة الشبيهة بالقتيل وتساءلنا في نفس واحد : « ماذا سنفعل بها ؟ » .

وفكر البارودى برهة ثم قال ببساطة :

- نعملها صينية .

- صينية قرع ؟ .

- ولم لا ، ألم نأكل في حياتك صينية بطاطس ؟ .

- صينية بطاطس ، أى نعم أكلت ، ولكن صينية قرع ؟ !

- وما الفرق بين البطاطس والقرع .. هل سترفض القرعة أن تعمل صينية ؟

ونظرت الى القرعة السمينة ، ولم يبد لي أنها يمكن أن ترفض أى شيء فقلت له :

- لا .. لا أظنها سترفض .

- انتهينا .

- ثم أمسك بالقرعة في يده وقال :

- عليك التقشير ، وعلى التخريط .

ووجدت أنه سيبدأ في « استكرادى » من أول الأمر فان عملية التخريط أسهل مائة مرة من التقشير فقلت له :

- لا ، بل عليك أنت التقشير ، وأنا على الباقي .

وفكر البارودى برهة ثم قال :

- اسمع سنحضر الضو لتقشيرها ، ثم نطرده بعد ذلك .

وحضر الضو فقام بتقشير القرعة ، وقد بدت عليه علامات الشماتة ،

وعندما انتهى من التقشير أشار له البارودى أن يعود من حيث أتى .

وبدأنا في تخريط القرعة في احدى الصواني ، ثم خرطنا الطماطم فوقها ووضعنا فوق الخليط كمية لا بأس بها من البصل ثم حشرنا اللحم في جوف الخليط ، وصببنا فوق كل ذلك ما يقرب من رطلين من السمن .

وفرك صاحبي كفه وبدت عليه علامات الغبطة والارتياح ثم قال متفائلا :

- ألم أقل لك ؟ هذه هي كل الشغلانة ، ليس هناك أبسط منها ولا أسهل .

وأشعلنا وابور الجاز ووضعناه أسفل الفرن الصاج الأسود الذي أحضرناه معنا من القاهرة لمثل هذه الطوارئ وسمعنا بوضع الصينية داخله ، ولكننا توقفنا فجأة وقلت لصاحبي :

- الملح ؟ لقد نسينا الملح ، وكدنا نشمت فينا الضو .

- آه ، لقد تذكرنا ، تصور أننا كنا على وشك أن نفسد الطبخة

- كما يقولون - لأجل « شوية » ملح . أين الملح ؟

- لا أظن أن الملح وحده يكفي ، بل لا بد من التوابل الأخرى ، حتى تعطى الصينية طعما ونكهة ، لا بد من الفلفل والكسبرة والكمون والبهارات ، ففي هذه الأشياء البسيطة سر الطبخ .

وألقينا نظرة على صف العلب المرصوفة فوق المنضدة وقال صاحبي :

- أظن أن هناك أصناف معينة من التوابل تلائم الصواني ، ويتحتم علينا أن نعرف بالضبط ما هي الأصناف التي تلائم القرع ، والا فسدت الصينية ، ثم لا تنس أنها لا توضع الا بنسبة معينة وكميات محددة .

وبدت لنا مسألة وضع التوابل مشكلة عسيرة ، ولم نر خيرا من أن

نرسل الى الضوء نسأله - دون أن يحضر - عن أنواع وكميات التوابل التي
توضع فى صينية القرع .

وجاء المرسال يخبرنا أن الضوء الخبيث يقول :

- العلب عندهم ، يأخذون منها ما يشاءون ، هى كيمياء ؟

ونظر الى البارودى وتقدم الى العلب وعليه سيماء من نوى أمرا جللا
وقال :

- دعك منه ، خليها بالبركة ، وربك يستر .

وبدأت التوابل تتدفق على الصينية بغير حساب ، هذه كسبرة ، وهذا
كمون ، وهذه مستكة ، وهذا حبهان ، فلفل أسود ، فلفل أحمر ، كله خير كله
بركة .

وأخيرا دخلت الصينية الفرن تنهادى باسم الله حافظها ومنضجها .

وجلسنا بجوار المحروسة ، ننتظر نضجها ، وبعد خمس دقائق فتح
البارودى الفرن ليرى ما تم بها .. فوجدنا بالطبع كما هى .

وأصابنا الملل ونحن جالسين أمام الفرن نفتحه كل دقيقة فنجد الصينية
كما هى ، ونظر البارودى الى وقال مستثيرا :

- ما رأيك فى أن نحضر الضوء ليجلس - فقط - أمام الصينية ؟

- فكرة طيبة بشرط أن يجلس على الحياد فلا يتدخل قط فى شئون
الصينية .

وأحضرننا الضوء ، وذهبنا الى خيمتنا وجلسنا نتسلى بالقراءة ، وبعد
نصف ساعة ذهبنا ليرى ما تم فى أمر الصينية وفتحنا الفرن ونظرنا اليها فاذا
بها خضراء من غير سوء .

وهز صاحبي رأسه فى دهشة متسانلا :

- لماذا لا تستوى ؟

ثم نظر الى الضوء فى غيظ وهمس الى :

- يخيل الى أن الخبيث يرفع الوابور من أسفل الصينية عندما تذهب
ثم يضعه ثانية عندما يحس بنا .

ونظرت الى الضوء الشامت الساخر والى الصينية الخضراء التى تأبى
النضج وقلت له متشككا :

- جائز .. لا أستبعد على الخبيث أى منكر .

وعدنا الى الخيمة وبعد نصف ساعة أخرى ذهبنا نطل على الصينية فاذا
بها كما هى ، وأشار البارودى الى خيام العساكر وقال للضوء :

- اذهب ولا ترينى وجهك ، والا جنيت على نفسك .

وجلسنا أمام الصينية كأننا أسدا قصور النيل ، والوابور بجوارنا ينز ،
والصينية - سامحها الله - لا تشعر ولا تتأثر .

وقرب موعد الافطار ، والصينية لم يفارقها الاخضرار وأخيرا سلمنا
أمرنا لله وخرجناها فأدهشنا أنها استوت رغم أن لونها لم يتغير ، واعتبرنا
الأمر حدثا فى عالم الطبخ .

ودق المدفع وأقبل الضباط على خيمة الأكل ، وفرجنوا بالصينية تتوسط
السفرة ، وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات
التواضع وانكار الذات وقلنا ببساطة : نحن الذين عملناها .

ونظر الينا على مقلد قائد الكتيبة بعد أن تذوق اللقمة الأولى ثم قال فى
حسرة :

- والله عملتوها .

وذقنا الصينية واذا بعنصر الجاز متوفر فيها كل التوفير .

فارس بيل كليب

هذه القصة يقصها علينا طفل في
السادسة من عمره ، فحملنا بها الى
دنيا .. دنيا قد نراها الآن تافهة
ولكننا لا نستطيع أن ننكر أننا قد
عشنا فيها أو فيما يشابهها زمنا
رغدا .. زمنا ليت الليلي التي أمضته
ترجعه ...

كنا نجلس في مخبئنا السرى - أنا وأخي الأكبر - وهو عشة من
اليوس على شاطئ النيل كانت تستعمل مصلى قبل أن يبنى المسجد الجديد -
وقد نشر أخي أمامه صورة كليين أحدهما رابض والآخر مضطجع ، وكان
قد قطع الصورة من إحدى المجلات . ونظر الى أخي متسائلا :
- ما رأيك ؟

فلجبتة وأنا أحملق في الكليين بنظرات معجبة :

- رائعان !

- وسادت فترة صمت كان أخي ينصب خلالها بأذنيه كأنه يسمع شيئا
ثم قال :

- يخيل الى أن هناك من ينادينا ..

ثم طوى الصورة بعناية ونهض قائلا :

وتبادلت أنا والبارودي النظرات .. نظرات الندم على أننا تركنا الضو
ينفرد بالصينية .

ولكن هل ترى الضو حقا ، قد انتهاز فرصة خلوه بالصينية فصب عليها
الجاز ؟ .

لا نظن فقد كان الضو مظلوما .. ولم نكتشف أنه مظلوم ، الا عندما
فرغت صفيحة السمن ، وأحضرنا صفيحة جديدة ، فانقطع الجاز ، لقد كانت
صفيحة السمن الأولى هي منبع الجاز فقد كان سمنها مخلوطا به !! .

وعندما كانوا يسألوننا بعد ذلك ما الذى يجبركم على احتمال سوء
الضو !! كنا نجيب : ما هو أسوأ منه .

ولم يكن هناك أسوأ منه .. بل أسوأ من أى شيء على وجه الأرض
سوى : صينية القرع .

★ ★ ★

- لابد لنا أن نخفي الصورة والا رآها أبى .. أين نطننا نخفيها ؟

ولم يترك لى فرصة الاجابة بل أردف قائلا :

- سأخفيها فى حذائه .

ونظرت اليه فى دهشة وقلت له معترضاً :

- ولكن

ولكنه لم يدع لى فرصة الحديث اذ كان يستطيع التحدث أسرع منى ، وكانت كل محاولة فى مناقشته تذهب سدى ، لقد كان فى التاسعة وكنت فى السادسة ، واستمر يقول :

ليس لدينا مكان آخر ، حذاؤه هو المكان الوحيد .

وتخيلت حذاء أبى .. ثم تخيلت أبى نفسه ، وأحسست برعب لمجرد التخيل ، وهزرت رأسى بشدة ولكنه قال :

- لا تكن أبله . فأنت تعلم أنه لا يرتديه الا فى المولد . أو عند مقابلة الحكام ، وكلاهما نادر .. سأعطيك الصورة لتتولى أنت اخفاءها فى الحذاء .

ولكنى هزرت رأسى مرة أخرى . لقد كنت أكره أن ألقى ببى الى التهلكة ، وكنت أرى فى المسالة جرمين : أحدهما ادخال صورة كلاب فى الدار ، والثانى العبث بحذاء أبى .. فالحق مضمون .. لأن أبى لا يحرم منبياً ولا يغفر خطيئة . لقد كان رجلاً ضخماً يطأطأ رأسه عندما ينفذ من أى باب ، وكانت أمى تقول عنه أنه طيب القلب ، ولكنى لم أك أصدقها لأتى ما رأيته كذلك قط ، وكيف أراه طيباً وقد خصص لنا عصاً لتأديبنا اذا أخطأنا .. أو اذا خيل له أننا أخطأنا .

وعندما عدت الى الدار ، ذهبت الى أبى وقلت له :

- نريد كلباً .. أنا وأخى .

ورفع الى رأسه فى دهشة وقال :

- ماذا تريد أن تصنع به ؟

ولم أعرف بم أجيب ، ووقفت أمامه صامتاً ، وأخيراً تكلم هو قائلاً :

- لا فائدة فى الكلاب ... انها لا تؤكل ولا تشرب .

وعدت الى أخى الذى وثب من فراشه وسألنى متلهفا :

- ماذا قال لك ؟

لقد قال انها لا تؤكل ولا تشرب .

وهنا دخلت أمى ، فقلت لها اننى لا أحب أبى ، فوضعت أصبعها على فمها محذرة ، وقالت :

ان الأطفال يجب أن يحبوا آباءهم .

وهل كان الآباء فى رداءة أبى ؟ !

انه ليس رديناً ، هو فقط لا يفهم عقلية الأطفال . هيا الى الفراش .

وغادرت الغرفة ، وسمعتها تتحدث الى أبى بصوت لم أميز منه الا بضع كلمات : انهم أطفال ، ولابد لكى تفهمهم أن تفكر بعقلهم ، ، ولم أفهم معنى ما تقصد ، ولم أهتم بذلك كثيراً ، فقد كانت هناك أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها .

واضطجعت على الفراش بجوار أخى ، وسمعته يقول كأنه يحدث نفسه :

- الكلاب لا تؤكل ولا تشرب ! ! والله لو أحضرنا كلباً ! لأكله وشرب نعمه ... ! إنه رجل مخيف ! !

ومرت فترة طويلة دون أن أنام فقد كنت مستغرقاً فى التفكير ، وأخيراً سألت أخى :

- أأنظنه يأكله كله ؟ بجلده ؟

وكان أخى قد أغفت عيناه ، فأجابنى وهو نصف نائم :

يأكل ماذا ؟

- كيف حالك ؟

ولكنه لم يجبني بكلمة ، فقلت في نفسي ربما كان أبله ، أو أصم لا يسمع ، ولكن أخى أخبرنى أنه لم يتعلم الكلام بعد ، وأنى كنت مثله فى يوم ما .. فلم أصدق له لأنى لا أنكر أننى كنت لا أستطيع الكلام يوما .

وطلب منى أخى أن أجلس بجوار الطفل حتى يذهب الى الدار فيسرق له قليلا من اللبن ، كما طلب منى أن أغنى له اذا بكى ، فقلت له :

- هذا هين ، وسأغنى له حتى ولو لم يبك .

وذهب أخى ، وجلس الى جوار الطفل وتبادلنا النظرات ، وسألته عن اسمه ولكنه لم يجب بكلمة ! ! وخطر لى أن أحمله بين ذراعى كما فعل أخى ، وحملته فعلا ، ولكننى سمعت وقع أقدام آتية من الخارج فوضعتة جانبا وجلست بجواره ، وأحضر أخى اللبن فجرعه الطفل بنهم ، ثم طلب منى أن أعود الى الدار حتى لا تفلق والدتنا .

وعدت الى الدار فوجدتها جالسة ترقق بعض ثياب أبى فسألته قائلا :

- عندما كنت طفلا .. أكنت حقا لا أتكلم ؟

ونظرت الى فى شىء من الدهشة وهزت رأسها بالاجاب فعدت أسأل :

- تماما كالقطط والكلاب ، وبقية الحيوانات ؟

- فأجابت ضاحكة :

- أجل ... مثلها تماما .

ولكن الطفل خير من القطعة ، ومن الكلب أيضا .

وبعد فترة وجيزة أقبل أخى ، فتناولنا العشاء وذهبنا الى الفراش ، وكان رأسى مشغولا بالطفل ، وبما أنوى أن أفعله معه ، وأى اسم سنطلقه عليه ، ولم يكذ يستقر بنا المقام على الفراش حتى سألت أخى :

- بماذا نسميه ؟

فدفعنى أخى بيده قائلا :

- الكلب .

- لا ... لا أظنه حقيقة من أكلى الكلاب . نم . نم . دعك منه .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك .. فى ذات يوم عاد أخى من المدرسة فقفز بكتبه الى المائدة ثم أشار الى أن اتبعه ، ودلفنا سويا الى حجرتنا فهمس فى اذنى :

- أين أبى ؟

- لقد خرج .

- الى أين ؟ ألا تعرف ؟

الى المقهى أو الجامع .

- اسمع .. لقد حصلت على شىء عجيب جدا . ماذا تظنه ؟

وهزرت رأسى متماثلا ، فاقترب بغقة من أذنى ثم همس قائلا :

- لقد حصلت على طفل .

- طفل ! ؟ طفل حقيقى ؟

- أجل ... أجل ... لقد وضعته فى العشة على الشاطيء ومنتمل الآن

الى هناك .

- ولكن كيف حصلت عليه ؟

- لقد عثرت عليه .

- وهل هو ملكنا الآن ؟

ملكى أنا ، ولكنى سأعيرك اياه فى غيبتى عنه .

وعدونا الى العشة ، وهناك وجدنا الطفل يبكى فرفعه أخى بين ذراعيه ، ونظرت اليه وقد تملكنى الاعجاب وقلت فى دهشة :

- إنه طفل حقيقى ! !

ثم وجهت الحديث الى الطفل أسأله :

- اخفض صوتك والا سمعونا .

فكررت السؤال في صوت هامس ، ولكنه أعلى من الصوت الأول ،
فأجابني بقوله :

- لم افكر بعد ... هل تقترح شيئا ؟

- بوبى .

- لا تكن غبيا ... ان هذا اسم كلب .. انى أرى ان تسميه عادل .

- عادل . اسم لا بأس به ، ولكنى أفضل اسم « بوبى » !! .

- قلت لك ان هذا اسم كلب ... فلا تكن عنيدا ... ثم لا تنس أن الطفل
طفلى ، وأنى حر فى أن أسميه كما أشاء .

وسمعنا صوت أبى وأمى يذهبان الى الفراش ، وأطفئ النور وساد
السكون الدار ، فنهض أخى من الفراش وهمس فى أذنى :

- سأذهب الى الطفل لأنفه باحدى القوط وأنومه .

- أتعرف كيف تنومه ؟

- أجل .. انى أذكر ما كانت تفعله أمى معك قبل النوم ، عندما كنت

فى مثل منه .

وكان أخى يتكر عنى كل شيء وأنا طفل . أما أنا فكانت لدهشتى لا
أذكر عنه شيئا ! .. لقد كان لا شك أكثر ذكاء ، وبعد هنيهة أبصرته يفتخر من
النافذة ، بعد أن أنبأنى أنه سيعود قبيل الفجر .

وفى اليوم التالي كان أبى وأمى يظنان أن أخى قد ذهب الى المدرسة
كعادته ... ولم يعلما شيئا عن بقائه طيلة اليوم فى الكوخ بجوار الطفل وكان
متعبا ، بعد أن قضى الليل طوله على الأرض ، وقد أزعجه الطفل بكثرة
بكاؤه ، الى أن اضطر الى السكوت والنوم ، وقد نال منه التعب والاعياء .

وقضينا يوم لطيفا مع الطفل ، وقد نبين لى أن له ثلاث أسنان ، وبدأ
لى أنه يستطيع الوقوف ولكنه لا يرغب فى ذلك بدافع من الكسل والخمول .

ومضت الليلة التالية كسابقتها ، وفى الصباح أنبأنى أخى أن رأيه قد
استقر على أن يحضر « سوسو » لكى تتولى أمر الطفل .. فهى ولا شك أقدر
منا على تولي أمره والعناية به ... فهى امرأة والنساء أدرى من الرجال بهذه
الأمر .. وهى على أية حال لابد أن تتدرب من الآن على ذلك .. ولا شك أنها
مستمر كثيرا بالطفل فهو طفل « جاهز » لم تتعب فى حمله ولا وضعه .

وكان أخى كثيرا ما يحدثنى عن سوسو .. وهى ابنة جيراننا فى حوالى
الثامنة ، وكان يخبرنى أنه ينتظر حتى يتخرج من المدرسة فيشترى طائرة
ليطيرها سويا الى بلاد بعيدة وأنبأنى أنها لم تمنع فى الفكرة ، بل رحبت
بها .. وقد سألته أن كان ينوى أن يأخذنى معه فوعدنى خيرا .

وبقيت مع الطفل حتى ذهب أخى وأحضرها ، ووقفت تنظر الى الطفل
فى دهشة ثم أقبلت تربت عليه وحملته فى رفق متسائلة :

- أهذا هو ابنتا ... ؟ انه جميل جدا .. انه يشبهك كثيرا .. ما اسمه ؟

فقلت فى عجلة :

- بوبى !!

فنظر الى أخى شزرا ثم قال بلهجة تشبه كثيرا لهجة أبى :

- يا لك من حمار !! قلت لك ان هذا اسم كلب .

ثم التفت اليها قائلا :

اسمه عادل .

وكانت سوسو فى تلك اللحظة تصلح للطفل ثيابه ، فنظرت اليها نحن
الاثنين شزرا وقالت بنفس لهجة أخى :

- يا لكما من حمارين ... !! انه بنت .

ثم أقبلنا على الطفل تنبينه فإذا به حقا بنت .

ونظر الى أخى قائلا بعد برهة :

أذهب وأحضر اللبن .

فانطلقت أعدو الى الدار ، وفي الطريق أبصرت جماعة من أهل البلدة بينهم شيخ البلد وقد ساروا كأنهم يبحثون عن شيء .. فلم آبه لهم وانطلقت في طريقي ، وعندما وصلت الى الدار وجدت أبى قد وقف بالباب وأمامه أحد مدرسى المدرسة وسمعته يقول له :

- أجل ... منذ يومين .. اليوم وأمس .. لم نر له وجهاً .

ونظر الى أبى نظرة أوجست منها خيفة ، وسألنى :

- أين أخوك ؟

على الشاطئ .

قل له أن يحضر .

وانطلقت الى أخى أسوق اليه النبأ ، ورأيت الاصفرار قد علا وجهه ،

ثم التفت الى سوسو قائلاً :

- ابقى مع الطفل حتى أعود .

وعندما التقينا بأبى أمسك بيد أخى وسحبته الى مخزن الحبوب وبعد

برهة عاد إلينا وحده وسأله أمى :

- أين الولد ؟

- لقد حبسته فى الحاصل .. انه يأبى أن يقول أين كان فى خلال هذين

اليومين ، وسيبقى هناك بلا طعام حتى يقول الحق .

وحاولت أمى أن تعترض ، ولكنه أسكتها بنظرة صارمة ...

وفى المساء تعشيت وذهبت وحدى الى الفراش ، وقد شغلنى التفكير فى أخى وسوسو والطفل ، ولم أكد أحس أن أبى وأمى قد ذهبا الى فراشهما حتى قمت الى النافذة وقفزت منها ، فسقطت على ركبتي وأحسست بالدماء تسيل من أهداهما

وسرت أتلص طريقي فى الظلمة الحالكة ، والخوف يملكنى وخيل الى أنى أبصر أشباحا تتراقص أمامى ، ولكنى حاولت أن أهدىء نفسى .

ووصلت الى الحاصل وصحت أنادى أخى فى صوت هامس مبجوح ، فأجابنى أخيراً ، وسألنى أن أذهب الى الشاطئ لأرى ماذا فعلت سوسو بالطفل ، وحاولت أن أقدم ، ولكنى رأيت شينين يبرقان فى الظلمة لم أشك فى أنهما عينا عفريت مخيف ، وتسمرت قدماى فى الأرض وقلت لأخى أنى أبصر أمامى عفريقا وسألته ماذا أفعل ، فأجابنى بأننى واهم ، ولكنى أكدت له أننى أبصره هناك وافقا فى نهاية الطريق .

وصمت أخى برهة ، ثم طلب منى أن أعود الى الدار وأخبر أمى .. ولكنى رأيت العفريت يقترّب منى فصحت مستجداً وأخذت أعدو أمامه وهو يتبعنى حتى وصلت الى الشاطئ وهناك وجدت سوسو قد وضعت الطفل على ساقيها وأخذت تربت عليه وتغنى له ... ثم سألتنى عن أخى فقلت لها ان أبى قد حبسه .. ولكنى لم أكد أتم قولى حتى أبصرت أخى قد أقبل علينا يلهث فقد استطاع أن يقفز من نافذة الحاصل .

وفى نفس اللحظة سمعنا فى الخارج وقع أقدام كثيرة وأصواتا نتحدث ، ثم أبصرت حشداً من الناس يقتحم العشة ، ... واستطعت أن أميز على ضوء المصباح الذى حمله أحدهم أنهم أولئك الجمع الذين كانوا يبحثون عن شيء ، وكان معهم بعض رجال الشرطة .

وأمسك أحدهم بالطفل يحتضنه وساقونا أمامهم الى العمدة ، وهناك وجدتهم قد تكاؤا على أخى وخيل الى أنهم يتأمرّون على إرساله الى السجن ، ونسلت من بين الجمع وهممت بأن أعدو الى الدار لأخبر أبى ، ولكنى تذكرت العفريت ... فعدت الى سوسو وهممت فى أننها بأن تذهب فتخبر أبى .

ورأيت الشرطى قد أمسك أخى فهجمت عليه وضربتة بقبضة يدي ، وصحت فى الجميع ان هذا الطفل هو طفلنا ، ولكنهم لم يسموا بى واستمروا فى نقاشهم وهرجهم .

وفجأة لمحت أبى بجسمه الطويل قد أقبل فى الظلمة ، وبجواره سوسو تعدو الى جانبه ، وسرى بين الجميع الهمس ووقف الشرطى مكانه وبدأ لى جليا أن الجميع كانوا يخشون أبى تماما كما نخشاه ... لقد كان رجلا مخيفاً .

وأقبلوا عليه يحيونه باحترام ثم سلموه أخى ، ورأيتنا نعود أبراجنا دون
أن نأخذ الطفل فقلت لأبى :

- أننا لم نأخذ طفلنا .. ان أخى هو الذى وجده ، وهو ابنه ، هو
وسوسو . ولكنه جذبني من يدي ودفعني أمامه ...

ولم نسر عدة خطوات ... حتى لمحت أمرا جللا ، واكتشفت شيئا
خطيرا .

لقد كان أبى يرتدى الحذاء !!

وفرصت أخى ... وأشرت الى الحذاء .. فعلت وجهه علامات الذعر
وبدا عليه كأنه ينوء تحت حمل من المصائب ، وأنه قد أضحي في حالة يأس .

ودخلنا الى الدار واقبلت أمى تحتضن أخى .. ولم ينس أبى بينت شفة ،
ولكنى لم أشك في أنه قد أعد لأخى عقابا خطيرا .. فقد كانت الجرائم متعددة :
غياب عن المدرسة ، ومزقة الطفلة ، وأخيرا صورة الكلاب التى لاشك في
أنه اكتشف وجودها في الحذاء .

ودلفنا الى حجرتنا في سكون ، وربت على ذراع أخى وقلت له أهدئ
من روعه :

- لا تخش شيئا .

انى لا أخشى شيئا .. لأنه لن يستطيع أن ينالني بسوء .. سأهرب من
الدار ولن أعود أبدا .. فلست من الحمق حتى أنتظر لكى أموت من الضرب .

- اذن سأسافر معك .

- حسنا سوف ندبر أمرنا معا .

- وسأطلب الى أمى أن تفر معنا أيضا .

- لا تكن أحمق ... اياك ان تذكر لها شيئا عن ذلك .

ولكننا لا نستطيع تركها وحدها .

اذن ابق أنت .

وفى تلك اللحظة سمعت صوتا عجيبا لم أعتد سماعه من قبل .. سمعت
أبى يضحك !!

وأرهمنا السمع مشدوهين ، ولكنه كان يضحك فعلا ... وسمعناه يقول
لأمى .

ألم ترى ابنة ابنك ؟ لقد أصبحت جدة .. أنتكرين عندما كنت طفلة ..
وكنت تحملين الوسادة على كتفك وتدعين أنك قد أنجبت طفلة .. وتطلبين منى
أن أحضر لها اللبن ، لقد كان ابنك خيرا منا فقد سرق طفلة حقيقية وأعطاهما
لموسو .. لقد أنجبا طفلة جاهزة ، أنتكرين ذلك الزمن ؟

وسمعت أمى تجيب ضاحكة :

- ليت اللبالي التى أمضته ترجعه .

ثم سمعنا صوت قبلة ... وأردف أبى يقول :

- لقد وجدت في الحذاء هذه الصورة .

وهنا أحسمت برجفة وخيل الى أنى أستطيع أن أسمع دقات قلبى ،
وسمعت أبى يقول :

- أخبريهما بأنى سأحضر لكل منهما كلبا ، على ألا يعبثا بالحذاء بعد
ذلك .

وفقرت الى أخى أحتضنه ... وأخذنا نرقص في الحجرة

★ ★ ★

مُنْتَهَى الْفَنَاءِ

هنا أضع ألعاني .. هنا يهبط
الوحي .. وسط ذلك الصمت المخيم
والسكون السائد ، وبين أضواء
الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا في
هذه الأغوار السحيقة والدياجير
المعتمة التي تبدو كأنها أعماق
الأبدية اللانهائية .

لى صديق سيربالى ...

ومنذ أن سمعت بمبدأ السيرباليزم .. وشاهدت بعض الرسوم
السيربالية ، أيقنت من أن صاحبي هذا لابد مندفع الى أحضان السيربالية ،
متبوء عرشها فى أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبى فنان أصيل .. فنان جوهر ومظهرا ، أو هو صورة نموذجية
لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أقنع تماما أنه ليس بى من سمات الفنان
شئ ، وإنى مخلوق طبيعى مادى جامد يارد خلو من كل ما يميز عبء الله
الفنانين .

وأذكر ذات مرة ؛ أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم من أهل العلم
والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بى مقدما لى علبة سجائره قائلا :

- سيجارة ؟ !

- أشكرك جدا ، أنا لا أدخن .

- عجيبة ! إذا أحضر لك قهوة ؟ !

- ولا أشرب قهوة .

- شاي إذا ؟

- ولا أنوق الشاي .

وضحك الرجل وغمز بطرف عينيه وقال متخابثا :

- لو كان عندي كأسا من الوسكى لأتحفك به ، لأنه يعز على أن

تزورنى ولا أقدم لك شيئا .

- أنا لا أنوق الخمر .

- مددش .. لا سجاير ، ولا قهوة ولا شاي ، ولا خمرة ، ولا حتى

أى مكيف آخر ؟

- أبدا .. أبدا ، انى غير ذى «كيف» ، لاسجاير ، ولاخمر ولاميسر ،

ولا ، ولا .

- ما شاء الله ، ما شاء الله . هكذا الاستقامة والا فلا . لا بد أنك تصلى

وتصوم .

- أبدا ، أبدا .

- لاتصلى ولا تصوم ؟

- ولم أصلى وأنا لا أركب ما تنهى عنه الصلاة ؟ ومم أستغفر ربى ..

وأنا ما أتيت ذنباً .. انى مخلوق كافى خيرى شرى .. انى منهى عن الفحشاء والمنكر . «خلقة» .

وأغرق الرجل فى الضحك ، وظننها مزحة .

ولكنى فعلا كذلك ، لاسجاير ولاقهوة ولاشاي ولاخمر ولاحتيش ،
ولاصلاة ولاصوم ولاشيء أبدا .. أبعد كل هذا أكون فنانا ؟

أما صاحبى .. فقد كان فنانا بمعنى الكلمة .. فهو فوق ارتكابه لسلسلة
الأشياء المبيئة عالياه ، من خمر ومكيفات وصوم وصلاة .. كان مخلوقا معينا
فى الغرابة .. مفرطا فى الشذوذ .

وكان صاحبى - ولم يزل بالطبع - موسيقارا من أساطين الموسيقى
ومن عمدتها فى هذا الجيل ، وكنت قد سمعته وسمعت عنه كثيرا قبل أن ألقاه ،
وكنت أميزه دائما بغرابة موسيقاه وطرافة أساليبه ، فهو يكاد يكون بين
الموسيقيين نسيجا وحده .

وعندما لقيته أول مرة دعانى الى زيارته فى «المعبد» .

وكان لقاؤه حارا مليئا بالحفاوة والترحيب ، اذ تفضل واعتبرنى فنانا ،
رغم خلوى من كل مميزات الفنان ، وعندما سألتنى زيارته فى المعبد ، لم
يحاول أن يزورنى بأى توضيح عن هذا المعبد ، كانما هو شيء كان لزاما على
أن أعرفه .. أو كأن كل انسان له معبد يزوره الناس فيه .

وخجلت من أن أستوضحه ، خشية أن يتهمنى بالجهل ، وخشية أن
يعرف أنه ليس لى معبد ، لأنه لو كان لى معبد ، لما سألته عن معبده .

وتركتها تمر ، دون استفسار أو استيضاح .. معتقدا أنها دعوة عابرة ،
أو عزومة مراكبية ، وأنه من الخير ألا أكشف نفسى ، ما دمت لن أذهب .

وانغمرنا فى الحديث ، منسجمين تمام الانسجام ، حتى حان وقت
الانصراف ومددت يدي أودعه وأخبره بأنى سعيد بقلائه متشرف بمعرفته ،
وانى أتمنى أن أراه كثيرا .

وضغط على يدي بشدة ، وقال فى لهجة مصرية مؤكدة :

- أنا منتظر زيارتك للمعبد .

- ان شاء الله .

- اليوم الساعة الثامنة والنصف مساء .

ورأيت الدعوة جادة ، والعزيمة مؤكدة ، فبدأ على وجهي التردد ..
وهمت بأن أعتذر .. ولكنه أرتف مؤكدا :

- لن أقبل منك اعتذارا ، لابد من حضورك ، انى أتوق الى أن أجلس
معك جلسة طويلة ، وستسرك الجلسة كثيرا . انى واثق من ذلك ، فأنت فنان
يلتزمك جو المعبد الشاعرى الهادى .. أنا فى انتظارك .

وكان هذا بمثابة أمر منه بالحضور ، ولم يكن هناك داع للتردد ، لاسيما
وأنه كان انسانا رقيقا مهذبا حلو الحديث ، لطيف المعشر والمحضر .. وأنه
لم يكن - فيما عدا مسألة المعبد - يبدو عليه أى مظهر من مظاهر شذوذ
الفنانين .. ولاسيما أيضا أنه وفر على حرج سؤاله عن المعبد بقوله من باب
الابضاح :

- إن تجد كثير صعوبة فى الاستدلال على المعبد فهو كائن فى شارع
كذا رقم كذا .

ثم بدأ يشرح لى بالتفصيل كيفية الوصول الى المعبد .

ولم أحاول - رغم جهلى بالمنطقة التى يقع فيها المعبد - أن أستزيده
ايضا فقد كرهت لنفسى أن يبلغ بها الجهل هذا الحد ، وأن أبقى على قيد
الحياة فى القاهرة ثلاثة وثلاثين عاما ، دون أن أعرف أن فى القاهرة معابد ..
ولا أسعى لرؤية بعضها .

وفى الساعة الثامنة مساء بدأت السعى للمعبد .. وظللت ألتف من شارع
الى شارع .. وكان الحى مظلم مقفر ، يقع فى طرف من أطراف القاهرة
المجاور للمقابر ، وأخيرا وصلت الى الشارع المطلوب .. وبدأت التنقيب عن
النمرة ، ولم أدقق كثيرا فى البحث عن النمرة .. إذ كنت أعتقد أن المعبد
غرض شهير مميز .. وأنه لابد مسترعى التفاتى وسط غيره من البيوت
العادية القائمة فى الشارع .

وقطعت الشارع ذهابا وإيابا دون أن يلتفت نظرى مبنى غير عادى وسط
البيوت القائمة فى الظلمة .. لا مأذن ، ولا قباب ، وأى هيكل ينم عن المعبد .
وهكذا لم أر بدا من التدقيق فى البحث عن الرقم المطلوب ... وسرت
أقرأ أرقام الدور واحدا واحدا حتى وقفت أخيرا أمام الرقم المقصود .

عجبا ! انه بيت عادى كغيره من بيوت الشارع .

لابد أن يكون هناك خطأ أو لبس ، اذ ليس على البيت أى سمة من سمات
المعابد ، ووقفت لحظة مترددا أمام البيت وكان بيتا عاديا مكونا من بدروم
ودورين وتحيطه حديقة صغيرة وسور حديدى .

ومددت يدى الى الجرس وضغطت عليه وقلت لنفسى :

- امأل

وسمعت صوتا يصيح من البدروم :

- مين ؟

وهنا وضحت المسألة ولم يعد هناك معنى للتردد ، فقد كان الصوت
صوت صاحبى الفنان ، ولم أحاول السؤال بالطبع بل دفعت الباب الحديدى
ودخلت أتلمس طريقى فى ظلمات الحديقة الى باب البدروم .

وسقط على الضوء الخافت الخارج من الباب ، فاستطاع صاحبى أن
يميزنى واندفع فى سيل من الترحيب الحار قائلا :

أهلا .. أهلا .. يا مرحبا .. تفضل نورت المعبد .

وتفضلت .. ولكنى قطع لم أنير المعبد ، فقد استمرت الظلمة الجاثمة
فى أرجائه التى لم تفلح فى اضاعتها ذبالة الشموع الخافتة .. جاثمة كما
هى ... لم تتأثر قط بدخولى .

وتلفت حولى افحص المعبد ... فوجدت نفسى فى بدروم عادى
خراب ... مظلم رطب . لا يفترق عن أى بدروم آخر . الا فى أن صاحبنا
الفنان زاد من مظاهر الفقر والخراب ، وأمن فى ابرازها فاصطنع من أعمال

الديكور والزخرف شقوق ظاهرة في الجدران وتهديم في الأركان ... واسقاط للبياض في الأسقف وهضاب ووهاد في الأرض .. وبين مظاهر الخراب والبؤس هذه وضع أثاث المعبد وهو بيانو في أحد الأركان ، وعود معلق في ركن آخر .. ومقاعد ووسائد وأرائك متفرقة هنا وهناك .

وطاف بي صاحبي في أرجاء المعبد ... طواف معجب متفاخر ... ثم استقر بنا المقام في إحدى الحجرات الرطبة العفنة المظلمة .

ومرة أخرى كرهت نفسي .. فقد أحسست أنني غير فنان .. أو فنان غير أصيل .. إذ لم يصادف المعبد هوى في نفسي ولم أشعر وأنا جالس وسط هذا الخراب والرطوبة والظلمة بارتياح وانسجام .. ومع ذلك فلم أكن أملك إلا أن أوافق صاحبي على أعجابه وطربه .. فان خجلي يدفعني دائما الى أن أكون منافقا كبيرا .

قال صاحبي :

- هنا أضع الحائى .. هنا يهبط الوحي .. وسط ذلك المصمت المخيم والمكون السائد وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا في هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة ، التي تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .. هنا في هذا المعبد المليء بالسحر والطلاسم .

وهزرت رأسي وقلت موافقا وأنا أزج في قولي ببعض مترادفات الأبدية واللانهائية والدياجير :

- أجل ! أجل ! ان سحره عجيب ... أنه يبدو كأنه كهف الأقدار يمتد من بطون الماضي الى وهاد الأبد .

وطال بنا الحديث في كهف الأقدار بين الأغوار والدياجير والماضى والأبد .. حتى حان وقت انصرافي فودعته وانصرفت .

تلك كانت المرة الأولى لزيارته ، وطالت بنا الفرقة حتى التقيت به أنا وصديق لي ذات مرة في إحدى المحلات العامة فأصر على أن أزوره في تلك الليلة أنا وصاحبي .

ورحبت بالدعوة فقد كان - كما سبق لي القول - انسانا لطيفا ... وكانت جلسته محببة الى نفسي .. وكان صديقي هذا يتوق الى رؤية المعبد بعدما حدثته عنه .

وقصدت الى الدار .. ولم يطل بي البحث عنها هذه المرة وسرعان ما رقت وصاحبي أمام الباب الحديدى أدق الجرس .

ولم يجنى الصوت من البدروم هذه المرة ، فقد كان معنا لا يبدو به بصيص ضوء ، بل أجانبي صوت الفنان من إحدى نوافذ السلامك وهتف بي مرحبا :

- أهلا وسهلا .. تفضل .

وانتظرت أن يهبط من السلامك ليقودنى الى المعبد ، واتخذت طريقى الى بابه ، ولكنه نادانى بصوته الجهورى :

- اطلع هنا ... ان المعبد به بعض التصليح ولا يصلح لاستقبال الزائرين .. تفضل .

وسحبت صديقي من يده وسرنا نتلمس طريقنا وسط الظلمة الى باب البيت ، وقبل أن نصل الى الباب أضىء نور السلم وبدأ على ضوءه مدخل البيت أنيقا نظيفا ليس به شيء من قفر المعبد وخرابه .

ودلفنا من الباب الى الفناء الداخلى .. فوجدنا السلم الرخامى يتوسطه وقد بدا نظيفا لامعا .. وبدت الجدران مطلية بالزيت ومحلة بالنقوش .. والممدخل كله ينم الزوعة والنظافة ... الا من شيء واحد أثار دهشى وبدأ نشازا فى المدخل الفخم .. وذهب بكل ما به من نظافة وأناقة .

فى باطن السلم ، أو ما يسمونه « بئر السلم » وجدنا كوم من الحجارة والزلط والأنربة والردش كأنها بقايا جدار مهدوم أو آثار عمارة .. وفى وسط الكوم المترب ووراء جدار السلم قام جذع شجرة جاف مقلحف مليء بالفروع اليابسة والبراعم المتكشمة .

ونظر الى صاحبي وهز رأسه أسفا وقال :

- أنظر الى الخدم والبوابين ، ماذا كان يصيره لو رفع هذه القاذورات وألقى بهذا الحطب فى الحديقة .. بئس أن يتركه هكذا مشوها مدخل البيت .
وقلت موافقا :

- منتهى الإهمال .

وصعدنا الدرج وأنا آسف على إهمال البواب وقذارته وإن كان أسفى بشويه شئ من الحيرة المستترة والشك الخفى .

ولفانا صاحبي الفنان أمام باب الشقة مهللا مرحبا .. وأخذنا بالحضن ، ثم قاندا الى داخل الشقة ، وهممت بأن ألقت نظره الى القاذورات التى كومها البواب فى بئر السلم ، لولا ذلك الشك وتلك الحيرة للذان كنت أشعر بهما .

أجل ! لقد كان يساورنى شك .. ضعيف جدا وبعيد الاحتمال جدا ، الى درجة أننى لم أجروء على التصريح به .. ولكنه مع ذلك كان يساورنى .

هذا الشك هو احتمال أن يكون هذا الكوم والحطب موضوع عن قصد وبفعل فاعل .. وأن يكون الفاعل هو صاحبي الفنان .

ولهذا السبب لم أجسر على ابداء أية ملحوظة عنها ... ولا أن أصرح بأى رأى فيها خشية أن أبدو جاهلا وأن أسبب للفنان خيبة وفجعة .

أى خيبة أمل كان يشعر بها صاحبي الفنان ، لو أنه قد وضعها بقصد معين وخطة مرسومة ، وقلت له عنها انها قاذورات ومخلفات تركها البواب ؟ !

ولذلك أثرت الصمت ، وفضلت أن اتجاوز عن كوم الأتربة والشجرة الجافة وألا أبدى بشأنهما أى سؤال رغم أنهما كانا يشغلان حيزا كبيرا من تفكيرى ، ورغم أنى كنت تواقا الى استطلاع حقيقة أمرهما ، حتى لا أفضح نفسى ، وأخجل صاحبي .

وجلسنا فى صالة أثنى على الطراز العربى ، منخفضة الأرائك مزركشة بالصدف ، تناثرت فيها آلات الطرب والموسيقى .

وصفق مضيق بيديه صائحا :

- أم عبده .

- وأنت أم عبده ، ترفل فى ثوب فضفاض أسود فأمرها بتجهيز

القهوة .

ولم تكن تختفى أم عبده حتى قفز من مقعده قائلا :

- ستحضر لك أم عبده قهوة من اليمن .. بن يمنى أصلى ، وسأحضر

لكم شيئا من زحله .. زبيب زحلاوى على كيفكم .

وحضرت القهوة مع أم عبده ، وتوسكا ، وهى كلبة كبيرة فى حجم

أم عبده ، ثم أحضر هو الزبيب .

ولم يكد يستقر به المقام حتى قفز مرة ثانية قائلا :

- سأحضر لكم شيئا من اليونان .

ثم أحضر لنا بعض قطع من البطارخ .

وبدأنا السهرة .. وطال بنا الحديث ... وكوم الأتربة والشجرة الجافة

ما زالت تساور ذهنى .. وتدس بنفسها فى تفكيرى .. والسؤال عنها يتراقص

على شفتى .. ويهم بالانطلاق .

وفجأ وبلا سابق انذار .. رأيت صديقى الفنان يميل على ويسأل فى

لهجة ملينة بالفخر والكبرياء ، وهو يشير بابهامه الى ناحية السلم :

- أرايتها ؟

- واستطعت من منظره وإشارته وطريقة سؤاله أن أدرك جلية الأمر

بوضوح ، وأن أفهم أن تشويه منظر المدخل بالأتربة والحطب من فعل

صاحبي الفنان نفسه وليس من إهمال البواب ، وأنها قد أصبحت بناء على ذلك

مسألة تستحق التفريط .

وأجبت بحماس شديد وأنا أميل عليه كما مال على :

- رأيتها .

- وما رأيك ؟

بدیعة .. آية فى الابداع .

وكان صاحبى الآخر يتبع المناقشة وقد بدا عليه الذهول ، غير داريا ما هى هذه التى رأيتها آية فى الابداع .

وبدا الفنان تفسيره قائلا وهو يهز رأسه من فرط الاعجاب :

- انها قطعة خالدة من السيرىاليزم . انها شجرة الفناء . الفناء اللانهائى السحيق ، أرأيت الأرضية التى فى أسفلها . انها تمثل الفقر والخراب ، وترمز الى التراب الذى يختلط بالريميم ، ومن وسط هذا نبت الجفاف والذبول ، قائم كأنه العظام النخرة . انه تابلوه رائع ، كل شيء فيه موضوع لحكمة ولغرض ، كل فرع جاف يرمز الى شكل من أشكال الفناء ، لو تأملت فيها مليا لأبصرت العجب ، أرأيت هذه الزلزلة الموجودة فى الركن أسفل السلمة السابعة ، انها ترمز الى الجماعم الخاوية ، التى كانت كالزلزل ، أما الحجرة المقلوبة على جانبها فهى تمثل القلوب التى كانت كالحجر . أما الشجرة نفسها فهى تحتاج الى دراسة طويلة . انها ليست شجرة عادية كما قد يبدو لك . لقد ظلمت أبحاث عنها مدة طويلة حتى وجدت أخيرا ملقاة على قارعة الطريق بعد أن أصطدمت بها سيارة مسرعة .

وقضينا الجلسة كلها نتحدث عن شجرة الفناء ، انى أحمد الله الذى من على بالستر فلم أشك له اهمال البواب وتركه القاذورات والحطب فى بئر السلم . وأخيرا نهضنا للتصراف وهو يقول :

- انى أنوى ان أقدمها للعرض فى أول معرض للسيرى باليزم .. وانى أقدر لها ثمنًا يزيد على الألف جنيه . فلا أظن هناك لوحة يمكن أن تمثل الفناء كما تمثله هى .

وخرجنا من الثقة وبدأنا نهبط السلم وقد وقف هو يودعنا على بسطة السلم .

وفجأة رأيته يغفر فمه ويحملق بعينيه فى بئر السلم ويبدو عليه فرح شديد .

ونزلت ، ولم أملك الا أن انظر الى حيث أخذ يحملق بعينيه ، أعنى فى بئر السلم حيث وضعت شجرة الفناء ، فاذا بى أرى المكان نظيفا أنيقا لا أثر فيه ولا للحطب الجاف ، واذا بمدخل الدار قد عاد اليه رونقه وزالت عنه الغمة .

ولكن صاحبى لم يكن يرى هذا الرأى ، بل كان يعتبر المسألة فاجعة وصاح بأعلى صوت :

- الشجرة ، أين الشجرة ، لقد سطوا عليها اللصوص ، يا عم على ، يا عم على .

وهبطنا نحن الثلاثة بسرعة نبحث عن عم على البواب ، فاذا بنا نجده قد افترش الأرض على باب حجرته ، ووضع أمامه منقدا مشتعلا وأخذ يلقي فيه بين آونة وأخرى بقطعة من الحطب ، وعلى مقربة منه كانت تجثم أشلاء الشجرة وقد حطمها الرجل ليتدفأ بحطبها .

- وهجم صاحبى على ، عم على ، يمسك برقبتة ويصيح :

- أيها الجاهل الأحمق ماذا فعلت بشجرة الفناء ؟

شجرة ايه ؟

الفناء .. الفناء .

ووجدت البواب يوشك أن يختنق تحت ضغط يد الفنان ، فأسرعت أخلص البواب منه خشية أن يرتكب جريمة قتل ، وقلت له :

- يا أستاذ لا داعى لكل هذه الثورة ، ان عم على كان يقصد معاونتك .

معاونتى أنا . كيف ؟

- ألم تكن هذه شجرة الفناء ؟

وأشرت الى كوم الحطب المجهز للوقود . وأجاب الفنان :

الزوجة الحادى عشر

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة
لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل عن
قنيصتها بمثل هذه البساطة حتى كان
ذات يوم ، وضع لنا الأمر وعلمنا
أنها لم تترك زوجها العاشر الا بعد أن
حصلت على « الزوج الحادى
عشر » .

على شاطئ البحر ... فى صيف العام الماضى ... رأيت ابتسام .
ولا شك ان الاسم قد وقع لدى القارىء كوقعا حسنا ... وأنه يتوقع بعد
ذلك أن أصف له هيفاء من فائنات الصيف ... بمايوه من قطعتين ، برز منها
الصدر ، والتف الخصر ، واستقامت الساقان .
لا يا سيدى ... آسف كثيرا ، وما ذنبى وهى ليست كذلك ، ولا ربع
ذلك .

أقول انى رأيتها على الشاطئ لا تنهاوى ، ولا تمايل ... بل تسير
كالهجين ، تدفع بجسمها الضخم المتراهل الى الامام والى الخلف وتنب بقدميها
على الأرض دبا وقد أمسكت حقيبتها بيدها ، حقيبة جلدية من الحقايب التى
يحمل الطلبة فيها كتبهم ولكنها ضخمة بحيث تتسع لما تحمله من البضائع .
البضائع ؟

- أجل ، لقد كانت كذلك .

- فعلام المصيب اذا ، لقد جعلها عم على ، منتهى الفناء . لقد أضحت
فناء الفناء .

ونظر صاحبى الى النيران والى كوم الحطب ثم هز رأسه موافقا
وأجاب :

- معك حق ، هيا بنا برافو عم على ، أنت شيخ السيراليين .

★ ★ ★

أجل ، الحلقان والأساور والروائح والخواتم التي تبيعها ببضعة قروش لأصحاب الكبائن ، فكتسب منها رزقها .

لا تروع يا سيدى القارىء فلقد روعت من قبلك ، عندما سمعت اسمها ثم رأيتها ، بشكلها ومشيتها وحقيقتها .

رأيتها سمراء صفراء كالحة باهتة - واخشيته من أن تقرأ القصة - مجمدة الوجه ، واسعة الفم ، مخيفة النظرات ، ذات صوت عال مخشوش ، ولهجة أمرة غير مستجدة .

دخلت علينا الكابينة ذات مرة . أو قل هجمت ، ورأيت الأهل يعاملونها برفق ورقة وأدب وابتاعوا منها أشياء لم يكونوا قط فى حاجة اليها .. فلما انصرفت سألتهم لم اشتروا منها ما اشتروا ولم عاملوها بمثل ما عاملوها به .. فأجابوا أنهم يخشونها لأنها طويلة اللسان ، وأنها لا تتورع عن شتيمة من يرفض الشراء منها فان بها لومة ! ومن تلك اليوم وأنا أخافها وأخشى الاقتراب منها ، وتحدثوا عنها فقالوا انها ذات ماض عجيب ، فقد تزوجت ما يقرب من العشرين رجلا كان منهم قبطان سفينة وكابتن انجليزى سافرت معه الى انجلترا !!

وزارتنا المرأة مرة ثانية ، أو أغارت علينا ، وانسجمت معنا بعض الشيء ، فجلست نقص علينا طرفا من مغامراتها وزيجاتها ... ثم انبأنا فى النهاية أنها مخطوبة .

وكنمت الضحك فى صدرى خفية أن ينالنى منها شر ولم أشك فى أنها مجنونة وأن كل ما تصفه لا يعدو حديث خرافة .. حتى سمعت بعد ذلك طرفا من تاريخها ، من صاحب لا أرتاب فى صدقه ، فلم أشك بعد ذلك فى أن المرأة لم تكن كاذبة فى شيء مما قصته .

كنت أجلس وصاحبى فى أصيل يوم من أيام الصيف أمام حوض السباحة ينادى هليوبوليس ، ولست أدرى كيف ساقنا الحديث الى ذكر صاحب لنا فأخذنا نتندر بفرط ههونه وبأنه ليس هناك ما يمكن أن يستثيره أو يحرك ساكنه .

وصاحبنا هذا يدعى ، أحمد أفندى . وهو رجل فى منتصف العمر ... مقبول الشكل ، ممتلئ الجسم ، أصلع الرأس ، ولست أظن هناك فائدة فى كل ما ذكرت من الأوصاف فهى لا يمكن أن تكون مميزة لشخص بذاته وتكاد تنطبق على نصف سكان مصر وكل موظفى الدواوين .

أما الشيء الذى قد يمكن أن يكون من مميزاته فهو ذلك الهدوء والسكون والطيبة والقناعة .

ورأيت صاحبنى قد ضحك فجأة فسألته عما يضحكه فأجاب بأنه قد تذكر واقعة عجيبة وقعت لصاحبنا منذ عشرات السنين .. واقعة لو لم يشاهد وقوعها بعينى رأسه ، ولو لم يطلع على حوائثها من أولها الى آخرها ... لقال عنها فرية أكذوبة .

وبدا صاحبنى يقص على الواقعة ... قال :

- كنا نعمل معا فى مكتب البريد العام ، وكنا نجلس متجاورين كل خلف نافذته التى يستعرض من خلالها مختلف الوجوه التى تدف علينا طيلة اليوم ، وفى ذات صباح لمحت من نافذتى غادة مقبلة .. غادة فى جسدها الممتلئ وصدرها البارز اغراء ، وفى تقاطيع وجهها وسواد عينيها سحر وفتنة ، وتناولت بيصرى كما تناول غيرى من الموظفين الذين لمحوها من خلال نوافذهم وكأننا لم نبصر من قبل امرأة جميلة ... الا واحدا لم يحرك ساكنا ولم يكلف نفسه حتى مشقة رفع بصره ، وكان هو ، أحمد أفندى ، ووقفت الغادة أمام ، أحمد أفندى ، تحييه بابتسامة تذيب الحديد !! ونظر هو اليها ببروده وجعوده وسألها عما تطلب .

ولا تسئل عن الحسد الذى أحسمنا به نحو أحمد أفندى عندما سمعنا الغادة تسأله برقة هل هو أحمد أفندى ، وعندما تبينا أنها تقصده شخصيا ، وأن وقوفها أمامه لم يكن وليد صدفة

وطال الحديث بينها وبينه ، حديث ناعم رقيق ، تتخلله البسمات والضحكات ، وأخيرا انصرفت مودعة ، وأقبلت على صاحبنا أسأله من تكون الغائنة وما قصتها ، فتبين لى أنها التقت بأبيه فى بلدته وتوقفت بينهما عرى

الصادقة وأنه أنبأها أن ابنه يعمل في البريد وأعطاه عنوانه فلم تكد تصل الى القاهرة حتى أتت لزيارته .

وأقول لك الحق اننى رأيت الفتاة نقطة ، واستخسرتها فيه ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل ما دام ، يعطى الحلق لى بلا ودان ، وباليته بلا أذن فقط .. بل بزوجة ، وثلاثة أولاد ، وهو فوق ذلك زوج مخلص وفى .

ومرت الأيام ، وهى تتردد عليه من يوم لآخر .. لا تكاد تحل بالمكتب حتى يتضوع عبيرها فى أنوفنا وترن ضحكاتها فى آذاننا ، وتسرى منها رائحة طيبة تملؤنا طربا وحبورا ، وأخذت معاملة أحمد أفندى لها تتطور مع الأيام ... فببذل جموده رقة ، وخشونته ليئا ، وذهب عنه ذلك البرود والركود .. ففش وبش ، وتلطف وتظرف ، وأخذ أقباله عليها يزيد المرة بعد المرة .. بل لقد خيل الى أن الرجل بدأ يتعلق بها فينتظر مجيئها فى كل يوم بشوق ولهفة .

أقول ان هذا هو ما خيل الى ... حتى ذات يوم حادث ملأنى دهشة .. حادث حاولت أن أجده تفسيراً وتعليلاً ولكن عبثاً .

كنا جالسين فى المكتب ذات مرة وقد انهكنا فى العمل وجلس بجوارى أحمد أفندى يبادلنى من آن لآخر كلمة أو سؤالاً ، وقد بدا فى أتم هدوئه وريزانه وعقله ، وقورا حكيماً ... لا يتوقع منه المرء هزلاً ولا مجوناً ، ولا عبثاً ، ولا مزاحاً .

ترى ماذا تقول فى هذا الوقور الحكيم .. عندما تراه قد هبط فجأة عن كرميه فاختنفى أسفله وقبع فيه كهر يموء أو طفل يحبو ؟

هل جن ؟ ! أو يأتى الجنون هكذا فجأة دون مقدمات أو مبررات ؟ لقد نظر الى الرجل من أسفل المقعد وقد بدا على وجهه ذعر شديد وسمعته يهمس :

- قل لها اننى غير موجود .

أقول لمن ؟ . ماذا أصاب المسكين وماذا دهاه ؟

لقد أصابتنى دهشة شديدة جعلتنى فى حالة عجز عن التفكير .. فقد حدث ما حدث فى مثل لمح البصر .. ولك أكّد أرفع عينى عن الرجل القابع عند قدمى ، حتى أبصرت الحسناء تقف أمامى فى النافذة تمنحنى ابتسامة من ابتساماتها العذبة وتساألنى فى صوت رقيق :

- أحمد أفندى موجود ؟

فأجبته بمسرة دون تفكير :

- لا يا فندم .. غير موجود ؟

وحينئذى بابتسامة أخرى وأعطتنى ظهرها وانصرفت .

ونظرت الى الرجل المنكمش أسفل المقعد فوجدته ينظر الى ويهز رأسه متسائلاً ، فأجبته :

- لقد انصرفت .

وتنفس أحمد الصعداء وخرج من مكمنه وانطرح على كرسیه وقد تصبب العرق من جبينه وحاولت أن أستوضحه الأمر وأعرف منه سر ذلك الجزع والفرع من رؤية الحسناء وسبب تهريبه منها كأنه كان مجرم تطارده الشرطة ، ولكنه تنزع بالصمت وطلب الى أن أنبئها فى كل مرة تحضر للسؤال عنه بأنه غير موجود .

ومرت الأيام والغادة لا تنقطع عن المجيء الى المكتب والسؤال عنه ، ولا يكاد يحس هو طرقات أقدامها حتى يبدو عليه كأنما سمع انذاراً بالخطر فيهبط الى مخبئه فى لمح البصر حتى اعلان الأمان فيظهر على وجه الأرض ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى وقفت الغادة أمامى ذات يوم تسألنى عنه كالمعتاد فأجبته بنفس الجواب الذى عودتها عليه ، غير موجود ، ، ولكنها فى هذه المرة لم تجب بابتسامتها المعهودة ، ولم تتصرف ، بل هزت رأسها ببطء وقلبت شفتيها بازدياء وقالت فى صوت هادى :

- أنا أعلم انه موجود .. قل له لا فائدة من التهرب ، سأعثر عليه ان عاجلاً أو آجلاً .

- هرب ؟ ولم يهرب ؟ وماذا تريدان ؟

- ماذا أريد منه ؟ ... انى زوجته ؟

ان اجابة المرأة كانت آخر ما كنت أنتظر ، ونظرت اليها مشدوها وقلت
فى ذهول :

- زوجته .. أنت ؟ .. ولكنه متزوج وله ثلاثة أولاد ...

ونظرت الى المرأة نظرتها الى أبله ، وهزت كتفيها باستخفاف ، ثم
أخرجت من حقيبتها ورقة لوحت لى بها وقالت : هذه ورقة الزواج وعندى
ورقة أخرى تنازل لى فيها عن أطيانه .. أرجوك قل له لا فائدة ... قل له
يكف عن الزوغان ويظهر بالتى هى أحسن ، والا

وبون أن تنتظر منى رداً أولتنى ظهرها وانصرفت .

وخرج أحمد أفندى من مخبئه كأنه فأر غريق وسألته :

أتزوجتها حقيقة ؟

وهز رأسه بالايجاب .

وكتبت لها الأطيان ؟

وهز رأسه بالايجاب أيضا .

أنبأنى باختصار أنه ذهب اليها فى العوامة ذات ليلة وأنها أسكرته
وعقدت زواجهما واستكتبته تنازلاً عن كل ما يملك ...

وتملكنى العطف عليه والثراء له ... فلقد كانت ورطته ليست مما يسهل
الخروج منها ، وخاصة أن المرأة ليست لينة العريكة ، فقد علم أنها تزوجت
من قبل تسع مرات ، وكان من أزواجها قبطان سفينة وكابتن إنجليزى .

وهنا صحت :

- قبطان سفينة وكابتن إنجليزى ؟ ما اسمها ؟

- ابتسام ؟

- ابتسام ؟ لا يمكن ... ! انها تكون حقا قد تزوجت هؤلاء ولكنها قطعاً

لم تكن حسناء ولا غادة ولا شيئاً من هذا الذى تقوله .

- هل تعرفها ؟

- رأيتها فى الصيف الماضى شوهاً شنعاء . ليست بها مسحة من ذلك
الجمال الذى تتحدث عنه ، ولكن أتم حديثك .. فلا شك أن الزمن والأزواج
العشرة قد فعلوا بها ما فعلوا .

وأخذ صاحبى يتم حديثه قال :

- قلت لك أنى أحسست نحو صاحبى بعطف شديد وأخذت أفكر وإياه
فى الوسيلة التى نستطيع بها أن نتفقه من ورطته وتطوعت أنا لمساومة المرأة
للتنازل عن حقوقها .

وفى اليوم التالى حضرت كعادتها ولم يهبط أحمد أفندى بل جلس
ليواجهها ، وسألها عما تريد تمناً للطلاق وللورقة التى معها فأنبأتنى باصرار
أنها لا تريد الطلاق ..

ولم تجد مع المرأة طرق اللين والسياسة ، فقد كان أحمد أفندى فى
نظرها ، لقطة ، ثمينة ، وأخيراً نفذ صبرى فصحت بها أن تذهب الى حيث
ألفت .

ورمقننى بنظرة طويلة ملؤها التهديد والسخرية ، ثم هزت رأسها ببطء
وانصرفت .

وظللت أقرب المرأة وهى تسير الى الخارج وأنا موجس من نظرتها
خيفة . ولم تمض لحظة حتى أبصرتها تتجه يمنة ثم ترتقى السلم صاعدة الى
مكتب المدير .

وأحسست بقلبى يهبط بين جوانحى .. فقد كنا لا نخشى أحداً فى ذاك
الوقت كما نخشى المدير ، اذ كان رجلاً جاداً ، قاسياً ، وكرهت أن يكون أول
من يعرف بالنفسيحة ولم أشك فى أنه سيتخذ مع أحمد أفندى اجراء حاسماً
رادعاً .

حَدِيثُ حَمْدَةِ

وبدأت العجوز قصتها بصوتها
الناعم الرقيق ، فهدأ الجميع الذي
كان يظن كأنه خلية النحل . وبدأ
الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم
الصغيرة .

كان يوم الخميس من أحب الأيام الى نفسه .. فقد كان هو اليوم الذي
يشعر فيه أنه حر طليق يرتع كما يشاء .. بل وكان يتمنى في قرارة نفسه لو
أضحى الأسبوع كله أيام خميس ، فلا يجد نفسه مقيدا الى مكتبه طول أيام
الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الانجليزى كأنه سجين حكم عليه
بالاستنكار المؤبد ! .

وكان يوم الخميس ممتعا حتى فى حصصه ... فقد كانت الحصتان
الأولتان ، انشاء « والثانيتان ، رسم » ولم يكن هناك أحب الى نفسه من الانشاء
العربى والرسم . فقد كان بارعا فى كليهما ، وكان مدرسا العربى والرسم
حبيبين الى نفسه ، اذ كان أولهما طبيب الخلق كريم النفس ، وكان ثانيهما سمينا
أنيس اللون خفيف الدم .. فكان الصبى يجد فى درسيهما متعة وسرورا .

وكان الجرس لا يكاد يدق مؤذنا بانتهاء الحصاة الرابعة ، حتى يسرع
الصبى الى بيته ، فيقذف بكتبه .. ثم ينطلق الى بيت جده .

ولم تمض لحظة حتى أقبل حاجبه يطلب أحمد أفندى فصعد معه ،
أصفر الوجه ، مرتعد الأوصال ، وبعد هنيهة أقبل مرة أخرى يطلبينى ..
ودخلت لمقابلة المدير وعلمت منه أن أحمد أفندى أنكر كل علاقة له بالمرأة ،
وسألنى عما أعرفه ، ولم أستحسن أنا فكرة الانكار فرويت له الحقيقة ، وقلت
له انها زلة شباب واننا نأمل ان يتصرف فى المسألة بعطفه الأبوى .
وانصرفنا من أمام المدير تاركين المرأة عنده ، وقد ملأنا الخوف
والقلق .

وفى اليوم التالى حضرت المرأة ، وأقبلت علينا كأنها غمة أو سحابة ،
ووقفت أمامنا برهة نحقق فيها بنظراتها ثم حدثت المعجزة .

لقد مدت يدها الى أحمد أفندى بالورقة التى تنازل لها فيها عن أملاكه ،
وطلبت منه الطلاق .. بلا قيد ولا شرط .

لم تصدق أعيننا بادىء الأمر ، وظننا المرأة تمزح ، ولكنها كانت جادة
فى قولها .

آية معجزة تلك التى استطاع المدير صنعها ... كيف استطاع أن يؤثر
عليها ... بالضرب بالتهديد ... باللين ... بالسياسة .. من يدري ؟ !

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل
عن فتيتها أحمد أفندى بمثل هذه البساطة ، حتى كان ذات يوم ، وضع لنا
الأمر ، وعلمنا ببساطة أنها لم تترك زوجها العاشر أحمد أفندى الا بعد أن
حصلت على « الزوج الحادى عشر » . أتدرى من كان ؟ ! .. لقد كان المدير
نفسه بجده وقسوته وصرامته .

كيف أوقفه ؟

كيف حدث ما حدث ؟ ؟

والله وحده أعلم !

وكان بيت الجد هذا هو أحب أماكن النزهة الى نفسه ، فقد كان به كل ما يرغبه الصبى ، وكان أهم ما يمتاز به بيت جده عن بيت أبيه ، هو الحرية ! ... الحرية المطلقة التى يحددها قيد ولا شرط .

كان الصبى يجد نفسه مطلق الصراح ... يلعب كما يشاء ... ويأكل ما يشاء ، ووقتما شاء .. كان يستطيع أن يدخل كل حجرات البيت دون أن يمنعه أحد خشية توسيع الحجرات (أغلب الظن أن ذلك يرجع الى أنه لم يكن من المستطاع توسيعها أكثر مما كانت) ... وكان يستطيع الشفلة كما شاء دون أن يتهمه أحد بالشقاوة والعفرفة ... كان يشعر أن بيت جده ملئ بالحركة والحياة من كثرة ما به من الصبية الأقرباء من أولاد العم وأولاد العمة الذين كانوا يلتقون كل خميس فى بيت الجد أو « البيت الكبير » ... والواقع أن الصبية كانوا يجدون من روح الفوضى التى تسود البيت مرتعا خصبا لمرحهم ولهوهم .

وأخيرا .. وهو أهم ما فى الأمر ... كان الصبى يجد فى البيت جنته العجوز التى كانت تخصه بالعطف دون سائر الأولاد ، والتى كانت تقص عليه أحسن القصص .

كانت الجدة بارعة فى فن القصص ... براعتها فى كل شؤون الحياة عندما كانت تستطيع السير والحركة .. وقبل أن يصيبها ذلك الشلل الذى تركها راقدة طريحة الفراش ... لا تستطيع النهوض ... ولا تقدر أن تقف على ساقها .

كانت الجدة امرأة عجيبة ، ولم تكن عجوزا ككل العجائز ، فقد كان كل ما فيها محببا الى النفس مقربا الى القلب ، كانت متحدثة بلا ثرثرة .. طيبة القلب بلا حمق ولا بله .. سديدة الراى بلا مكر ولا دهاء ... معتدة بنفسها بلا غرور ولا كبرياء .

وما زالت صورتها منطبعة فى رأس الصبى .. بجسدها الطويل النحيل المدد على الفراش ، وقد جدا وجهها هادئا ساكنا ، تعلوه صفرة وشحوب ، وشعرها القضى قد اخفى بمنديل أبيض ، ويداها النحيلتان المعرورتان قد امتدتا فوق الغطاء .

وكان صوتها يعلو هادئا ناعما .. وقد التف حولها الصبية يلحون عليها ان تحكى حديثه .. وتبدأ قصتها فاذا بالمكون يسودهم وكان على رؤوسهم الطير .. ويشربون ، بأعناقهم اليها ويثبتون أبصارهم فى وجهها وهى تقص قصتها ويستمرون هكذا فى سكوتهم ساعات طويلا وهم الذين لا يستقر لهم قرار ولا تهدأ لهم ساكنه حتى تنتهى القصة فيتمطون ويتأهبون ويذهبون للعشاء والنوم ورووسهم ملان بالقصة وحوادثها .

وكان بين الجمع صبية نحيفة رقيقة .. خضراء العينين ذهبية الشعر ، وكانت الصبية غريبة الاطوار شاذة الخلق . اذ كانت مرهفة الحس فياضة الشعور ، وكانت حادة المزاج سريعة التأثير ، وكانت من فرط احساسها يخيل الى الناس انها مريضة أو مجنونة ، ولم تكن أحوالها تبدو طبيعية لطفلة فى مثل سنها .

وكانت الصبية تبكى لكل من يتألم انسانا كان أو حيوانا ، وكان يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلعبون بضرب قطرة أو صيد عصفور ، ولم تكن تطيق أن ترى أحدا يقتل أمامها حشرة مهما كانت ضالتها وحقارتها . وكان أكثر ما يبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون .

وفى ذات يوم من أيام الخميس الحبيبة الى قلب الصبى ، انطلق كعادته الى بيت جده .. فوجد الجميع فى انتظاره ، وبدأوا فى لعبهم ومرحهم حتى أصابهم الكلال ونال منهم التعب .. فتسللوا الى الدار القسيحة قبيل الغسق والتهموا بعض الأطعمة من المطبخ ، ثم التقوا مرة أخرى فى حجرة الجدة التى استقبلتهم فرحة باسمه ، والتقوا حول فراشها يطلبون منها كعادتهم أن تقص عليهم احدى قصصها .

ولم تكن الصبية الرفيعة الجسم ، الخضراء العينين ، تشاركهم ألعابهم العنيفة الصاخبة ، ولكنها كانت أسرعهم الى الجالوس حول فراش العجوز ،

وأشدّهم انصافاً وأكثرهم لهفة وتشوقاً .

وبدأت العجوز قصتها فى صوتها الناعم الرقيق فهذا الجميع الذى كان بطن كأنه خلية النحل ، وبدأ الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

قالت العجوز :

- فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان .. كان يحكم الدنيا ملكا من ملوك الانس أحدهما ملك المشرق والآخر ملك المغرب ، وكان الملكان العظيمان يتنازعا على السلطان . ولم تكن الحرب بينهما ليخمد لها أوار أو تطفىء لها جذوة حتى ملئت الرعية كثرة الصراع والقتال فأشار أحد الحكماء على ملك المشرق أن خير وسيلة لتوطيد أركان السلام ، وابعاد شبح الحرب أن يزوج ابنه من ابنة ملك المغرب فيمود بذلك اللوئام ويستتب الأمن وتحل الصداقة والحب بين الملكين محل البغض والكراهية وتتصافى النفوس وتصبح الأمتان أمة واحدة ... لا تعصف بها الحروب ، ولا يقض مضاجعها الخوف والفزع .

وكان ملك المشرق قد مل طول القتال وشعر بالحاجة الى أن يقضى البقية الباقية من العمر فى هدوء وسلام ... فاستنصب رأى الحكيم ورحب به ، وسرعان ما أرسل الرسل الى خصمه يطلبون يد ابنته ويعرضون عليه الصداقة الخالصة والود الصائق ، ويؤكدون رغبتهم فى اللوئام والسلام .

ولكن ملك المغرب ردهم فى عنف وصددهم فى غير لين ولا رفق ، ولم يتورع أن يبدى لهم ازدرائه واحتقاره ، وطردهم شر طرده ، وعاد الرسل اذبال الخيبة والفشل وقد ثارت ثائرتهم وغلا مرجل الغضب فى نفوسهم فأفضوا الى مليكهم بما كان من أمر خصمه ، وكيف أمعن فى اهانتهم والسخرية بهم .

وشعر ، ملك المشرق أنه قد أهين إهانة لا يغسلها الا الندماء وندم على ما فرط منه من لين نحو خصمه ... وأقسم أن يجعل من ابنته سبية من السبايا ، وأن يحطم جيشه ويمزقه اربا اربا ، وأن يعذبه عذابا لم يعذبه أحد .

وحشد الملك قواته ، وسير الى خصمه جيشا لم يسمع الناس بمثل ضخامته ولا قوته ووضع على رأسه ابنه الذى كان يملأ الحقد قلبه ، اذ كان يشعر أن اللطمة قد وجهت له دون سواء ، وكان يتحرق شوقا للثأر لكرامته المهدورة ، والانتقام ممن احتقره وازدراه .

واندفع الأمير بجيشه كأنه العاصفة لا تبقى ولا تذر ، وكان ملك المغرب قد بدأ يستعد للقاء خصمه . فقد كان يعلم أنه لن يسكت على ما لحقه من اهانة ، ولكنه لم يتوقع أن يكيل له الضربة بمثل هذه السرعة ، ولا فى مثل هذه القوة

وهم الجيش الغازى ، فصب على رؤوسهم الحمم فمزق شملهم وفرقهم فهوى سبا ... وفر الملك ووقعت ابنته أسيرة فى يدى الأمير .

وسيقّت الأميرة ذليلة مطأطئة الرأس وقد رأت بعينها ما حل بأهلها من نوازل وكوارث ، وما ارتكبه الأمير من تذليل وتعذيب ... فأفغم قلبها بالحقد عليه والازدراء له .

ورأى الأمير ما سفك لأجلها من نماء ، وما بذل فى سبيلها من أرواح .. فقد كانت رائعة الحسن فاتنة ساحرة .. حتى أحس الأمير ان الأسيرة على وشك أن تصبح أسرة ، وأن السبية الذليلة قد استحوذت على نفسه فأضحت فى قلبه نهاية امرأة ! !

وعصف الهوى بقلب الأمير ، وحاول ان يستميل الأميرة اليه ، ولكن قلبها كان مليئا بكرههيه ، وحاول استرضاءها برفع من مصاف السبابا وأعلن زواجه منها . ولكنها استمرت على بغضه وازدراؤه .

وشعر الأمير أن حياته قد باتت مقفرة مظلمة ، فقد كان محروما من حب الفتاة التي جن بحبها .

ومرت الأيام ، وكان ملك المغرب قد أخذ يستعيد قواه وبعد العدة للثأر لنفسه ، حتى كان ذات يوم أتم فيه استعداداه ووجه جيشا هائلا للهجوم على خصمه .

وأحس ملك المشرق بالخطر ينمو منه فأخذ في تحصين مدينته ... فلم يكد يصل الجيش الهاجم حتى كانت المدينة أمنع من العقاب .

واضطر المهاجمون أن يضربوا الحصار على المدينة وأن يضيّقوا الخناق عليها ، ولكن المدينة استمرت في مقاومتها الباسلة بون أن ينال منها العدو شيئا . وكانت الأميرة تتلف على نجاح أبيها في هجومه ليخلصها من أسرها وينكل بالأمير كما نكلوا به من قبل ، وبدأ اليأس يدب في قلبها عندما رأت أبيها يفشل في اقتحام المدينة ، وصمعت على أن تغرر بالأمير فتحصل منه على ما لديه من أسرار تساعد أبيها في هجومه .

وشعر الأمير أن الأميرة قد بدأت تتلطف به وتلين له وأحس أن بغضها قد أضحى حبا ، فتملكه السرور وملأت السعادة قلبه ... واستدرجته الأميرة .. فوثق بها ولم يتوان عن أن يفرض اليها بكل ما عنده .

وفي جنح الظلام تسللت الأميرة من القصر ، وهربت في زى أحد الجنود وذهبت الى معسكر أبيها فباحث له بأسرار الأمير ، ولم يمض يومان على اختفائها من القصر حتى كانت المدينة قد سقطت وحصدوا العدو حصدا .

وأسر الأمير واقتادوه ذليلا كما اقتاد الأميرة من قبل ، وسجنوه في قيو مظلم رطيب يبقضي به بقية حياته .

ولم يكن يحزن الأمير في كل ما حدث له الا خيانة الأميرة .. فقد كان حبها ما زال عالقا في فؤاده ، وكان يعزق قلبه ان ما أظهرته له من حب لم يكن الا لخدبته والايقاع به .

ورأت الأميرة ما فعله أبوها وجيشه بقوم الأمير ... فرأت أن الأمير كان أكثر رحمة وأكرم قلبا ... فقد انقض قومها على أعدائهم فلم يتركوهم الا عظاما نخرة وحطاما بالية ، وأحرقوا الحرث والنسل ، وذبحوا النساء والأطفال .

وأحست الأميرة بالندم يخزها على خيانتها للأمير .. وشعرت أنه لم يرتكب الا من أجلها ، وأنه كان كريما معها ، وبدأ حبه يتسلل الى قلبها يوما بعد يوم . حتى شعرت أخيرا أنه قد ملأ قلبها وملك عليها حواسها .

وتكررت الأميرة في زى خادمة وحملت معها اناء به خمر وتسللت اليه تبغى زيارته في قيو . وأخبرت الحارس أن سيدتها الأميرة قد أرسلتها لتعطي الاناء للأمير السجين . وذهل الأمير حين وجدها أمامه . ولكنها أسرت اليه بندمها واعترفت له بحبها .. فكاد يجن من الفرح ، وأحس أنه خير له مائة مرة أن يعيش معها سجيئا في القيو من أن يعيش بذونها طليقا في قصره ومملكته ، وشغلها الهوى برهة .. ثم أفاقا على صوت اقدام الحارس تقترب ... فانهمكت في ملء الكأس للأمير .. وأعطتها له فجرعها في لهفة ، وخيل للأمير أن طعم الشراب كان غريبا ، وقوهم حرارة في جوفه .. فظن بالشراب سما ، وبدأ الوهم بتملكه فخشى أن تكون الأميرة قد جاءت لتخدعه مرة أخرى ، وزاد الوهم في نفسه فجن جنونه ، ورأت الأميرة عيناه تجحظ وأسنانه تصر ثم قفز وأمسك بعنقها في قبضة يده وصاح بها :

- لم تصرين على تعذيبى وقتلى ... أنا الذى أحبيتك حبا لم يحبه انسانا من قبل .. أنا لا أخشى الموت ، ولكنى يفجئنى أن أموت بيدك ، وأنا لا أرغب في الانتقام منك ، ولكنى لا أرغب في الذهاب الى الحياة الأخرى بدونك ! وحاولت الأميرة أن تتكلم وأن تقسم له أنها تحبه حقيقة وأنها لا تخدعه في هذه المرة ، وأن الشراب الذى أعطته اياه ليس به أثر للسم ، ولكن الأمير

وضحكت الجدة وربت على ظهر الفتاة ... ثم قبلتها فى حنان وأجابتها :

- يا حبيبتي انها قصة .. فليس هناك أمير ولا أميرة .

ولكن الصبية لم يقنعها هذا القول واستمرت فى وجوها وشرودها ، وفاض بها الحزن على العاشقين ... واستمر الأسى يملأ قلبها .

وذهب الصبى فى الخميس التالى فافتقد الصبية بين الجمع ، وسأل عنها فأنبأوه أنها لم تحضر لأنها مريضة .. ولم يكن الجمع على عادته من المرح والضجيج ، وكانت الدار يسودها سكون موحش ، ولم تقص الجدة قصتها كعادتها كل خميس .. فقد كانت هى الأخرى حزينة واجمة .

ولم يستطع الصبى أن يمنع نفسه من الضحك ، عندما أخبره أحد الصبية هامسا أن ابنة العم مريضة من فرط حزنها على الأمير والأميرة التى سمعت قصتهما من الجدة فى الأسبوع الماضى .

وقبيل الغسق رأى الصبى عمه ، والد الصبية المريضة ، قد حضر الى الدار متجهم الوجه ، مقطب الجبين ، وشاهده يدخل على جدته .. ثم سمع الجدة العجوز تبكى بكاء خافقا .

وذهل الصبى عندما أبصر بجدته ، للمرة الأولى فى حياته قد خرجت من حجرتها وهى تزحف على الأرض ، وقد أصرت على الخروج .. ثم رآهم يحملونها على مقعد وينزلون بها السلم حيث يضعونها فى عربة حملتها الى بيت العم ، حيث الصبية المريضة .

وعلم أن الصبية قد أصابتها حمى خبيثة شديدة الخطر ، وأنها تهذى بقصة الأمير والأميرة ، وتبكى فى هذيانها على ما أصابها .

وفى بيت العم رأى جدته العجوز ، وقد حملوها الى حجرة المريضة ، وأرقدها بجوارها .

وكان الصبى دهشا من كل ما حدث ... لا يكاد يدرى سببا لانتقال جدته ، وتكليف نفسها كل هذه المشقة والعناء ومد رأسه داخل الباب ، فأبصر

طعنها بسيفه طعنة نجلاء حتى يتمكن من قتلها قبل أن يسرى السم فى جسده فتتركه لا حراك به .

وارتمت الأميرة جثة هامدة ، واحتضنها الأمير وقد مزق الألم قلبه ، وأغمض عينيهِ ، وأخذ ينتظر أن يمزق السم أحشائه وأن تفيض روحه فيلحق بمعشوقته .

ومر الوقت بطيئا ، والأمير يحس أنه ما زال حيا ، وأخيرا بدأت الغيوم تنفث عن ذهنه فأدرك أن الأميرة لم تخدعه ولم تنس له السم ، وأنه قتلها ظلما وعدوانا .

ولم يطق الأمير الحياة لحظة واحدة فثبت سيفه على الأرض ثم رمى بصره عليه فنفذ فى قلبه وفاضت روحه .

★ ★ ★

ونخلت الخاتمة تعلن أن العشاء قد جهز .. فأفاق الصبية من ذهولهم ، وختمت الجدة قصتها قائلا : توته . توته فرغت الحدوته ..

وقفز الصبية من أماكنهم . وانقلب السكون ضجيجا وصخبا واندفعوا يتسابقون الى الطعام كأنهم لم يذوقوا نلأكل مذ خلقوا طعما .

وساد السكون الحجرة مرة أخرى ، وتلفتت الجدة حولها ، فاذا بالصبية النحيلة ما زالت قابعة فى مكانها لم تغادر الحجرة مع الجمع الصاحب المنطلق .

وكانت الصبية الصغيرة تبدو شاردة النظرات ... تائهة الفكر ، وقد ملأ الحزن قسما وجوها .. وسألتهما الجدة فى رفق عما بيا ، ففاضت عيناها بالدموع وأجابتها فى صوت خافت يقطعه البكاء :

- لم قتلها ؟ ! وقتل نفسه ؟ ! لو أنه تمهل قليلا لعلم أنها لم تسمه ولعاشا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر .

بجذته قد تمددت فى فراش الصبية ، وقد ضمتها الى صدرها باحدى يديها .

وصمتت الصبية ، وانقطع هذيانها وعادت الجدة تقول :

- لقد أفاق الأمير فعلم أن السيف لم يقتلها بل أصابه بجرح خطير كاد يودى بحياته لولا أن استطاع الحارس نجده وأبلغ الطبيب فضمد له جرحه وأنقذ حياته ... وساء الأمير أن وجد نفسه حيا ، فقد كان لا يرغب فى الحياة دون أميرته المحبوبة .. غير أنه علم أن الأميرة أيضا لم تمت ، إذ لم يكن جرحها قاتلا واستطاعوا انقاذها ... فملأ الفرح قلبه .. ولكنه خشى أن يقتلوه لمحاولته قتلها .. وخشى أكثر من ذلك أن تكون قد عادت الى بغضه وكراهيته بعد ما فعله بها ، وعصفت به الهواجس فعاد الى اغمائه .

وأفاق الأمير مرة ثانية على صوت حبيب الى قلبه ... فلم يصدق أذنيه ، ولكنه فتح عينيه ، فأبصر أمامه الأميرة المحبوبة بدمها ولحمها .. وأبلغته الأميرة أن أباهما قد عفا عنه وأطلق سراحه ، وأنه حر فى أن يعود الى مملكته ، ولكن الأمير لم يبد عليه الفرح ، وأخبرها انه لا يريد حريته ولا مملكته ، ولكنه يريد بها .. فأخبرته أنها هى أيضا ملك يديه يفعل بها ما يشاء .

وتزوج الأمير بالأميرة ، وعاشوا فى النبات والنبات ، وخلفوا صبيان وبنات .

وظهر الهدوء على الصبية المريضه وكفت عن الهنات واستمرت الجدة تدللها حتى راحت فى سبات عميق .

وعندما عاد الصبى فى الخميس التالى ، وجد الصبية فى وسط الجمع . وهى تضحك فى غبطة ومرح .. وكان أول ما قالت له :

- ألا تدرى ما حدث للأمير والأميرة ؟

فضحك الصبى وقال :

- نعم أعرف .. لقد أنقذا من الموت ، وتزوجا .

واندهشت الصبية كيف علم الصبى ، وسألته من أخبرك ؟

وضحك الصبى مرة أخرى وأجاب :

- أخبرنى الأمير نفسه .

ولا ينكر الصبى أن الجدة قصت عليهم بعد ذلك قصة الا وقد تزوج البطلان فى النهاية .

• • •

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com